النَّبِيُّ الخَاتَم

وَمِنَنُه عَلى البَشَرِيَّة

(مجموعةُ الخُطب)

صلى الله عليه وسلم

الشيخ خالد سيف الله الرحماني

النبي الخاتم –صلى الله عليه وسلم–
ومننه على البشرية

الشيخ خالد سيف الله الرحماني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا الكتاب في الأصل مجموع خطب ألقاها الشيخ في "بنجلور" في اجتماعات "مركز الدراسات الهادفة" الذي أنشأه بعض شبابها المخلصين الغيارى.

و هذه الخطب تتحدث عن جوانب نيرة من سيرة النبي – صلى الله عليه و سلم – الزكية العطرة الرحيمة. مما قدمه للإنسانية من توجيهات قيمة و تعليمات مثالية، و خاصة ما يتعلق برحمته و عطفه و شفقته على غير المسلمين، و النساء، و الطبقات المنبوذة و المتخلفة، و العبيد و الإماء، والعمال و الأجراء، و اليتامى و المرضى، و كبار السن، و المعوقين، مع ممارساته الفعلية و تطبيقاته العملية و معاملاته الحسنة معهم، كما تجلي أسوته الحسنة في مجال الاعتناء بحقوق الإنسان الرئيسية.

و مما يمتاز به هذه الخطب أنها تبرهن في ضوء الدراسة المقارنة للأديان على أن حياة النبي – صلى الله عليه و سلم – النقية الطاهرة هي التي تصلح أن تكون قدوة للبشرية كلها. كما أن هذه الخطب تزيل الشكوك و الشبهات الواردة إلى أذهان غير المسلمين، و إلى أذهان كثير من المثقفين المسلمين الذين درسوا السيرة النبوية في كتب المستشرقين.

و من أهم ما يمتاز به هذه الخطب أنها تغلب بيان الجانب الخلقي من سيرته – صلى الله عليه و سلم - المضيئة، و رأفته العامة و رحمته الواسعة على البشرية، و ذلك أنه – صلى الله عليه و سلم لم يخض في الغزو إلا سبع أو ثمان سنين من مجموع ثلاث و عشرين سنة نبوية، و ما لحق الطرفين من الخسائر البدنية يلحق بعض الدول الراقية في أسبوع، لا كما يفعل بعض من يكتب حول سيرته – صلى الله عليه و سلم – الذين يغلبون جانب الغزو، حتى يخيل للقارئ الذي لا يلم بالجانب الخلقي من

حياته – صلى الله عليه و سلم - الطيبة أنه الهدف الرئيسي من حياته – صلى الله عليه و سلم – العطرة.

و لقيمة هذه الخطب ترجمت إلى لغة "تلغو"، و "اللغة الإنجليزية" و"اللغة الفرنسية"؛ لأن الشيخ بعلمه و تبحره و تمكنه من كثير من العلوم والفنون جعلها بمثابة تصنيف مستقل، و نظرا لما تحتله من أهمية نقدمها إلى قراء العربية.

الخطبة الأولى:

رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم– أسوة للبشرية جمعاء

ألقيت في ٢ / من ذي الحجة عام ١٤١٧ هـ
الموافق ١٠ من أبريل سنة ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

حين نقول: إنه لا تصلح شخصية لتكون أسوة للعالم أجمع إلا شخصية نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم -، فلا يكون مصدر هذا القول مجرد حسن الاعتقاد الديني و الحماسة الدينية، بل يعتمد على الحقيقة التأريخية و الواقعة المحققة.

و لم يقع المسلمون رغم المحن و الشدائد و البلايا و المشاكل الكثيرة في الشعور بمركب النقص من الناحية الدينية و الاعتقادية، لأجل صدق نبوة محمد – صلى الله عليه و سلم – و قوتها الاستدلالية وغلبتها العلمية والعقلية. و من هنا ترى مسلما مفلسا فقيرا معوزا بائسا جائعا متجوعا متحطما بالبلية، بعيدا عن العلم، مظطهدا مطحونا في رحى الظلم و الجور، معرضا للخطر بسبب الاضطرابات الطائفية، متهكما بتهمة "الإرهاب" و"الأصولية " مستهدفا لكل نوع من أنواع السلاح من الترغيب و الترهيب، منهك القوى، غارقا في حب الرسول – صلى الله عليه و سلم -، يرضى بأن يضحي بنفسه، و لكن لا يقبل بحال أن يحرم من الإيمان، و أن يبتعد عن العلاقة القائمة بينه و بين محمد – صلى الله عليه و سلم -. و لا شك أن هذا أغلى متاع يملكه المؤمن، و أكبر زاد للآخرة.

أفضل تعريف بالنبي – صلى الله عليه و سلم –:

أفضل تعريف بالنبي – صلى الله عليه و سلم – هو ما جاء عن طريق كتاب الله تعالى، فقد قام القرآن الكريم بالتعريف بالذي أنزل عليه بوضوح و تفصيل، حيث يندر نظيره في تأريخ صحيفة دينية لحاملها، و على سبيل المثال: قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). [٢١ / الأنبياء: ١٠٧]. و قال سبحانه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).[٣٣ / الأحزاب: ٢١]. و قال عز و جل: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ). [٣٣ / الأحزاب: ٤٠]. فهذه الآيات تشير إلى حقيقة مهمة، و هي أن شخصية محمد – صلى الله عليه و سلم – هي التي تجدر بها أن تكون أسوة (Model) للبشرية كلها، من بين قادة العالم و زعماء الدنيا. فالآية: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). [٢١ / الأنبياء: ١٠٧]. تدل على أن رحمته لا تختص بطائفة أو طبقة، أو منطقة، أو جيل أو عرق، أو خليقة، بل تشمل البشرية كلها و الخلائق جمعاء.

و الآية: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ). [٣٣ / الأحزاب: ٢١]. تدل على أن حياة نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم – أسوة لجميع طبقات البشر، و قدوة لجميع أفراد بني آدم، سواء كانوا من الأغنياء و الأثرياء، أو من الفقراء و المساكين، أو من الملوك و الأمراء، أو من الرعايا و العامة، أو من الأقوياء، أو من الضعفاء، أو من الحكام والقضاة، أو من المحكومين و المتظلمين، أو من المعلمين و الأساتذة، أو من الطلبة و الدارسين. كما تدل على أنه – صلى الله عليه و سلم – أسوة كاملة و قدوة عامة لمختلف مجالات الحياة و شؤونها، سواء كان مجالا اجتماعيا، أو اقتصاديا، أو مجال سياسة داخلية أو خارجية، أو مجال العلاقات الخارجية، أو مجال الأمن و السلام، أو الحرب أو الغزو، فحياته – صلى الله عليه و سلم – مصباح ينيرالطريق في كل موضع.

و الآية: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ). [٣٣ / الأحزاب: ٤٠]. لا تعلن انقطاع النبوة، و أنه لا نبي بعده فحسب، بل تعلن كذلك أن تعاليمه و توجيهاته ستبقى مصونة إلى قيام الساعة، و أن التحريف و التصحيف و اللبس و الخلط الصادر بأيدي الإنسان لا يستطيع إفساد شريعته.

و هذه الآيات كما تدل على مناقبه و فضائله الجمة، فكذلك تدل على أن حياة النبي – صلى الله عليه و سلم – هي التي تصلح أن تكون أسوة لجميع طبقات البشر و مما لا ريب فيه أنه ادعاء كبير، و لكنه لا يعتمد على عاطفة و حماسة دينية مجردة من الدلائل؛ بل صادر في ضوء الدراسة المقارنة لسير قادة العالم و الزعماء الروحيين.

أية شخصية تصلح أن تكون أسوة للعالم كله؟

يجب أن تتوفر ثلاثة أمور في شخصية تصلح أن تكون أسوة للعالم كله:

١- الأمر الأول: أنه لم يخاطب فئة أو قوما أو طبقة خاصة، و لم يوزع البشرية على أساس اللون و العرق و الجنس و العنصر و اللغة و الإقليم والمنطقة و الحدود الجغرافية إلى خانات مختلفة، بحيث يرفع طبقة و يسلك معها سلوكا حسنا، و يضطهد أخرى و يعامل معها معاملة سيئة. و ذلك أن الشخص الذي يتعاطف مع فئة مخصوصة و يواليها، و يعتبر فئة أخرى من المجتمع أداة مسخرة لخدمتها، لا يمكن أن ينصف البشرية كلها، و بالتالي لاتصلح حياته و تعاليمه أن تكون أسوة للبشر كلهم، بل لا تصلح أن تكون سائغة مقبولة للجميع.

٢ – الأمر الثاني الذي يجب أن يتوفر في مثل هذا الشخص هو: أن يحيط بجميع قضايا الحياة و مشاكلها، و أن تجرب شخصيته الأحوال المختلفة التي يواجهها الإنسان في حياته من فرح و سرور، و حزن و هم، و انتصار و ظفر، و هزيمة و انتكاس، و حكومة و إمارة، و خضوع و تبعية، و غنى و ثروة، و فقر و إفلاس، و فوز و نجاح، و فشل و حرمان، و أن تمر شخصيته بالقرابات الاجتماعية المختلفة التي يرتبط بها الإنسان من أبوة و بنوة و زواج.

و ملخص القول أن تكون شخصيته جامعة للأحوال و الكوائف

اللازمة للحياة الإنسانية.

٣ – الأمر الثالث: أن تكون تعاليمه و رسالته التي منحها الإنسانية وصلت إليها بطريقة محفوظة، و لم تفسدها التحريفات و التلبيسات الإنسانية.

يجدر بي أن أقوم الآن بالدراسة المقارنة لحياة نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم – الزكية في ضوء هذه المقاييس الثلاثة.

هل المسيح – عليه السلام – كان نبيا عالميا؟

فإن في العالم ما عدا الإسلام ديانتان كبيرتان: (١) النصرانية (٢) الهندوسية، و إن كانت " البوذية " تعتبر أيضا ديانة كبيرة من حيث عدد أتباعها و أنصارها، و لكنها فقدت هويتها في الواقع، مع أنها كانت برزت لإصلاح الهندوسية و إزالة فسادها و معالجة خللها، و لكن دمجتها العقيدة والأفكارالهندوسية في ذاتها، و لذا أكتفي بذكر الهندوسية من بين الديانات الهندية، و إن كانت اليهودية ديانة هامة من بين الديانات السماوية، و لكن اليهود بأنفسهم يعترفون بأن ديانتهم ديانة عنصرية (Racial religion)، و ما خوطب بها إلا بنو إسحاق، و لذا لم يدعوا بأنها ديانة إنسانية عالمية.

وتبرز النصرانية كذلك في الواقع كديانة هادية لبني إسرائيل، فقد خوطب المسيح – عليه السلام – في الأناجيل بالعبارات التالية:

"يا ربي، أنت ابن الله، و أنت ملك بني إسرائيل". ([١]). و في إنجيل "متى": "سلام عليك يا ملك اليهود". ([٢]). و قد حكي عن المسيح – عليه السلام – بنفسه أنه قال: "ما بعثت إلا إلى أغنام ضالة من أسرة إسرائيل". ([٣]). و قد قال عيسى – عليه السلام – لأصحابه و جلسائه المخصوصين الذين يقال

---

[١] - يوحنا: ٤٩ – ٥٠

[٢] - متى ٢٧ / ٢٩

[٣] - متى ١٥/ ٤٢

لهم: "الحواريون" بكل صراحة: "لا تذهبوا إلى الأمم الأخرى، و لا تدخلوا في مدينة من مدن السامريين". ([١]). و لذا كان يرى الأسلاف و ولاة الأمور من النصارى أنه لا يجوز لليهود إقامة العلاقات مع الأمم الأخرى، و لا يجوز الذهاب إليها. ([٢]). و قد انتقد زملاء الحواري "المسيح بطرس "عليه حين ذهب إلى الذين لا يختتنون، و أكل معهم. ([٣]).

و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه لا يسمح للمسيحيين بالدعوة و التبليغ في غير الجنس الإسرائيلي. و كيف لا، و قد كان يرى المسيح – عليه السلام – بنفسه أن النجاة الأخروية ليست إلا للجنس اليهودي . ([٤]). و كان – عليه السلام – يتبع هذا المبدأ بشدة، حتى رفض مساعدة امرأة كنعانية طلبت الإغاثة منه في بعض الأمور، و قال: ليس بمناسب و جميل أن يؤخذ الخبز من الغلمان و يلقى أمام الكلاب. ([٥]). و من البين أن الشخص الذي تختص تعاليمه و دعوته بجنس مخصوص، و الذي أغلق باب النجاة على الأمم الأخرى غير أمة واحدة، كيف يصلح أن يكون أسوة و قدوة و نموذجا للبشرية كلها؟

الهندوسية و النظام الطبقي:

تعتبر الهندوسية أقدم ديانة في العالم، و يندر نظير النظام الطبقي الذي تقدمه بشكل جلي في ديانة أخرى. ولو كانت إقامة الفوارق بين الإنسان على أساس عنصري محمودة لسبقت الهندوسية جميع الديانات في كونها حميدة. و ذلك أن الهندوسية توزع البشرية من حيث الخلقة بين أربع فئات: ١ – البراهمة. ٢- التشتري. ٣ – الويش. ٤ – الشودر (الطبقة المنبوذة).

---

[١] - متى ١٠ / ٥ – ٦
[٢] - الأعمال ١٠ / ٢٨
[٣] - الأعمال: ١١ / ٢
[٤] - يوحنا: ٤ / ٢٢
[٥] - متى ١٥ / ٢٦

والبراهمة مشتقة من "برهما" و هو ذات الإله، فهذا اللفظ يدل على قرب هذه الطبقة من الإله، و لذا يعتبر البرهمي ممثلا دينيا، و من حقه الخاص الحصول على تعليم الكتاب المقدس: "الويد"، و أخذ النذور و الهدايا. و البراهمة يحتلون درجة عليا من حيث الخلقة من بين الخلائق الأخرى، و كل ما في هذه الدنيا هو ملك لهم في الأصل، و الجرائم التي يعاقب عليها الناس الآخرون بالإعدام، يحلق فيها رؤوسهم فحسب، و ابن العاشر من البراهمة يعتبر أبا للتشتري البالغ من عمره مائة سنة، و يجوز له أن يتزوج أية فتاة من فتيات هذه الطبقات كلها، و لكن لايجوز لشخص من طبقة أخرى أن يعقد النكاح على امرأة برهمية، غير أن البرهمي إذا نكح امرأة من طبقة منبوذة، فكأنه يؤهل نفسه للنار، و البرهمي مهما أساء و عمل من السيئات يستحق التعظيم و الاحترام و التبجيل و التوقير.

و من أعمال "التشتري" أن يقدم القرابين و النذور و الهدايا، و أن يقوم بالدفاع (Defense) وأعمال الحراسة و الصيانة. و على "الويش" أن يقوم بالتجارة و الزراعة و تربية المواشي، و أن يقدموا الهدايا. فكأن هذه الفئات كلها لخدمة البراهمة، و لكن أسوأ حظا منها فئة "الشودر" (الطبقة المنبوذة)، فليس من حقها أن تأخذ تعليم الكتاب المقدس: "الويد"، و ليس لها الجلوس مع البراهمة، و إنما عملها الهام هو القيام بخدمة البراهمة بكل إخلاص. و يحق للبرهمي أن يأخذ مال "الشودر" بقوة و قهر، و إن رفع "الشودر" خشبة على شخص هو من فئة أرفع من فئته، فتقطع يده، و إن ركض برجله بغضب، فتقطع رجله، و إن سب شخص من الطبقة المنبوذة "برهميا"، فيقلع لسانه من اللهاة، و إن ادعى شخص من "الشودر" أنه يقدر على أن يعلم "برهميا"، فيسقى زيتا مغليا، حتى لا فرق بين كفارة قتل الكلب، والقطة، و الضفدع، و الوزغة (سام أبرص)، و الغراب، و البومة، و بين قتل فرد من أفراد "الشودر" [الطبقة المنبوذة].

و من البين أن الديانة التي تبررمثل هذا التوزيع الجائر للإنسان، وتقوم بالتفرقة بين دم و دم و عرق و عرق و جنس و جنس على أساس اللون و العنصر (Strain) ، كيف تقدر على أن توفر للبشرية كلها نظام الحياة ومنهجها العادل، و بالتالي كيف تكون سائغة مقبولة؟

الإسلام ديانة عالمية:

لنتدبر الآن التعاليم و التوجهات و الأفكار(Ideas) و النظريات التي قدمها رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم - بهذا الصدد، و من المهم أن النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – لم يقدم الإسلام في حين من الأحيان كديانة عنصرية و جغرافية (Geographical)، بل قدم تصورا عالميا للدين والشريعة، و قدم التصورالشامل للإله، فهو رب الإنسانية، و هو الرحمان والرحيم للجميع، و وصف القرآن الكريم بأنه هدى للناس، و جعلت نبوته ورسالته للبشرية كلها، فقد قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا). [٣٤ / سبأ: ٢٨]. و جعلت ذاته رحمة للعالم أجمع، حيث جاء في القرآن الكريم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). [٢١ /الأنبياء: ١٠٧].

مقياس الفضل هو الاكتساب لا المصادفة:

جعل معظم الناس مقياس الفضل المصادفات، فكان الإيرانيون يرون أنه يجري في عروق الملك و أسرته دم الإله، و كان يعتقد في الديانة الهندوسية أن البراهمة أعلى منزلة خلقيا، و إنهم خلقوا من رأس الإله، و كان الأشخاص من الجنس الإسرائيلي يعتبرون مقربين عند الله لدى اليهود و النصارى. بينما منح النبي – صلى الله عليه و سلم – الإنسانية تصورا رائعا، و هو أن مقياس الفضل ليس مصادفات، و لكنه اكتساب، فلا يدل مجرد كون شخص أبيض أو أسود على فضله، وكذلك لا تدل ولادة فرد في أسرة مخصوصة أو منطقة خاصة على فضله، بل مقياس الفضل

والعظمة هو عمل الإنسان و سيرته و خلقه و سلوكه، فلا يصير الإنسان صغيرا أو كبيرا، أو مقبولا عند الله أو مردودا عنده إلا بعمله، و قد صرح بهذه الحقيقة النبي – صلى الله عليه وسلم – بكل وضوح بمناسبة " حجة الوداع " في خطبته التأريخية العظيمة الرائعة، حيث قال:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ "، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟"، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟"، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟"، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: "فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ" . قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ"، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: "لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ". ([1]).

و قد وضح هذه الفكرة الانقلابية بكل وضوح و صفاء بمناسبة فتح مكة كذلك: "حيث قال:

"يا أيُّها الناس، إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيةَ الجاهلية، وتعاظُمَها بآبائها، الناس رجلان: بَرٌّ تقي كريم على الله عزَّ وجل، وفاجِر شقي هيِّن على الله عزَّ وجل، الناسُ كلُّهُم بنو آدمَ، وخلَقَ الله آدمَ من ترابٍ". ([2]).

و قد قضى النبي – صلى الله عليه و سلم – على جميع الأسس للتفرقة و التميز التي كانت متأصلة وقت طلوع أشعة الإسلام، و التي وفرت أسباب تذليل الإنسانية و احتقارها في كل عهد، و قد استأصل شأفة التفرقة

---

[1] - أخرجه أحمد رقم ٢٣٤٨٩، و أبو نعيم في "الحلية" ٣/١٠٠، و إسناده صحيح.

[2] - أخرجه الترمذي رقم ٣٢٧٠، وابن خزيمة (٢٧٨١)، و أحمد رقم ٨٧٣٦، و هو حديث صحيح.

على أساس اللغة و المنطقة و العنصر و العرق بنفي الفارق بين العربي والعجمي، و جعل التفريق بين إنسان و إنسان على أساس اللون تصورا غير سائغ بذكر الأبيض و الأسود.

المساواة الدينية:

لم يجعل النبي – صلى الله عليه و سلم – تصور المساواة نظرية ميتة بحتة، بل نفذها في الحياة العملية و شعبها المختلفة و مجالاتها المتعددة، و لم يخصص من الناحية الدينية جيلا دون جيل أو جنسا دون جنس للقيادة الدينية و الزعامة الروحية و التعليم الديني، و الحصول على علوم الدين، و الإدلاء بالرأي في الأمور و الشؤون الدينية؛ بل جعل – صلى الله عليه و سلم - حق الإمامة في عبادة هامة: " الصلاة " للأقرأ و الأكثر قرآنا و الأحسن تجويدا، ثم أعلم الناس بأحكام الصلاة و مسائلها، ثم أورعهم الذين يقضون حياتهم بحيطة و دقة، و يتجنبون مواضع الشبهات، فعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -:

> "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما". ([1]).

دور العجم في خدمة العلوم الإسلامية:

لم يفرق النبي – صلى الله عليه و سلم – أي تفريق في تعليم الكتاب و السنة و تعلمهما بين أفراد البشر، و من هنا كان كبار أهل العلم في الصحابة أنفسهم من لم يكونوا من قريش، و لا من العرب. ثم لما جاء دور نشأة العلوم و الفنون وتدوينها وترتيبها، كان مشاهير أهل العلم الذين تنخفض العيون و تطرق الأبصار لاحترامهم، من العجم الذين كان يطلق

[1] - أخرجه مسلم رقم ٦٧٣، و " سلما " أي إسلاما.

عليهم "الموالي"، فأعظم شخصية في الفقه هو الإمام أبو حنيفة – رحمه الله تعالى -، و كان فارسيا، و أمير المؤمنين في الحديث و أقدمهم و أعرفهم بهذا الفن هو الإمام محمد بن إسماعيل البخاري – رحمه الله -، وكان فارسي الجنسية، و مرجع سلاسل " التصوف " هو الإمام الحسن البصري، و ينتمي أيضا إلى العجم. و كان من تأثير تعاليمه – صلى الله عليه و سلم - الانقلابية أنه لم تنشأ "البرهمية" في الإسلام رغم انحطاط و تدهور ديني كثير، و ما زالت المناصب الكبرى تزدان بالعجم من القضاة و المفتين و رجال العلم و التحقيق.

المساواة السياسية:

لم يبرر رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – مبدئيا أي تفريق جنسي في الحياة و المجال السياسي كذلك، يدل على ذلك ما قاله – صلى الله عليه و سلم -: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ". ([1]). و ما قاله – صلى الله عليه و سلم -: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ". ([2]). و قد جعل النبي – صلى الله عليه و سلم بنفسه "عبد الله ابن أم مكتوم" القرشي العامري ابن خال خديجة بنت خويلد، أميرا على المدينة المنورة مرارا في حال غيبته، فقد استخلفه -صلى الله عليه وسلم- ثلاث عشرة مرة في غزواته على المدينة. ([3]) مع أنه كان ضريرا. و قد أمر – صلى الله عليه و سلم – زيد بن حارثة مع أنه كان عبدا من حيث الأصل، و لم يكن عند العرب طبقة أحقر من طبقة العبيد.و أمر كذلك ابنه أسامة بن زيد على جيش انضم إليه أكابر قريش كجندي عادي . ([4]).

[1] - أخرجه البخاري رقم ٧١٤٢.

[2] - أخرجه أبو يوسف في "الخراج" ص٩، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٥٦٠)، والطبراني في "الكبير" ٢٥/ (٣٧٧)، و أحمد رقم ١٦٦٤٩، و إسناده صحيح.

[3] - راجع: ابن الأثير، أسد الغابة ٤ / ٢٨٠، بيروت، دار الإحياء، ١٤١٧ هـ.

[4] - راجع: صحيح البخاري رقم ٣٧٣٠.

والجيش المحظوظ الذي تكللت جهوده بفتح إيران، كان يقوده سلمان الفارسي – رضي الله عنه -، و كان عمر – رضي الله تعالى عنه – يقول: لوكان سالم مولى حُذَيْفَةَ حيا لوليته – أي: لعينته خليفة المسلمين - بعدي. ([1]).
ومن هنا تولى عرش الحكم بعد سقوط الخلافة العباسية في التأريخ الإسلامي دوما المسلمون العجم و الأمم الداخلة في الإسلام حديثا.

و لو كانت عقلية التفوق الجنسي في الإسلام لكان علي – رضي الله عنه – خليفة بعده – صلى الله عليه و سلم -، و لم يكن أبو بكر و عمر – رضي الله عنهما -؛ فأية أسرة تفوق أسرة النبوة حتى تكون مركز حب و احترام من قبل المسلمين؟

غير أن طبيعة العرب كانت مليئة بالشعور بالفارق العنصري و التفوق الجنسي من القرون، و لذا كان النبي – صلى الله عليه و سلم – يشعر بأن العرب لا يرضون بالسيادة و السلطة العليا و النفوذ الأعلى لقبيلة غير قبيلة قريش، ولأجل ذلك قال – صلى الله عليه و سلم – لمصلحة مؤقتة: " الأئمة من قريش"؛ فعن أنس - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: "الأئمة من قريش إذا حكموا فعدلوا وإذا عاهدوا فوفوا وإذا استرحموا فرحموا ". ([2]). و عنه – رضي الله عنه – قال:

"إِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَامَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ وَنَحْنُ فِيهِ، فَقَالَ: " الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقًّا مِثْلَ ذَلِكَ، مَا إِنْ اسْتُرْحِمُوا فَرَحِمُوا، وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَوْا، وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". ([3]).

---

[1] - راجع: مقدمة ابن خلدون ص ١٩٤، بيروت، دار القلم، ١٩٨٤م.
[2] - أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم ٣٦٤٤، و أحمد رقم ١٩٧٧٧، و إسناده صحيح.
[3] - أخرجه أحمد رقم ١٢٣٠٧، و هو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

و عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -: أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم- قال: "النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيشٍ فِي الْخَيرِ والشَّرِّ". ([١]).

و هذا القول لا يعني – على ما أظن – أنه لا يمكن أن يكون أمير المسلمين من أمة أخرى، و إلا لما قال: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ". ([٢]).

المساواة القانونية:

جعل النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – جميع الناس في درجة واحدة من حيث القانون، فليس في الإسلام تفريق من ناحية القانون، كأن يجوز فعل لإسرائيلي، و لا يجوز لفرد غير إسرائيلي، و أن تكون العقوبة لجريمة (Crime) واحدة: القتل لعامة الناس، و الحلق للبراهمة. و المساواة القانونية واضحة في الشريعة الإسلامية، فقد سرقت امرأة عربية، فأعلن النبي – صلى الله عليه و سلم – قطع يدها، فأراد الناس الشفاعة، و جعلوا حبه و ابن حبه أسامة ممثلا عنهم، فغضب، وصرح بعموم الشريعة الإسلامية و تطبيقها على الجميع حتى على أولاده وأحبائه،فإن التفريق بين الشريف و الوضيع و الغني و الفقير يؤدي إلى الهلاك و الدمار، فعن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

"أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا اهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ

[١] - أخرجه مسلم رقم ١٨١٩.
[٢] - أخرجه البخاري رقم ٧١٤٢.

الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا". ([1]).

و من هنا لا يفرق الإسلام في باب الجرائم بين الأمير و الرعية، والشريف و الوضيع، و كلهم سواسية في نظر المحكمة، فقد كان زيد بن ثابت قاضيا في عهد عمر – رضي الله عنه -، و رفعت القضية ضد أمير المؤمنين، فحضر في مجلس زيد، فقام احتراما له، فقال عمر – رضي الله عنه -: هذا أول ظلم منك، و لم يستطع المدعي إقامة البينة، و وجب اليمين على المدعى عليه، فشفع زيد – رضي الله عنه – إلى المدعي بأن يبرئ أمير المؤمنين من اليمين، فلم يعجب ذلك عمر – رضي الله عنه -، وقال: هذا خطأ ثان منك.

فعمر بن الخطاب يتقاضى وهو خليفة و له مكانة و هيبة في النفوس مع أبي بن كعب الأنصاري عند قاضي المدينة في عهده زيد بن ثابت، فيأتي عمر وأبي بن كعب إلى مجلس القضاء، ويقول زيد لعمر: لوطلبتني يا أمير المؤمنين لأحضر عندك فيرد عليه عمر: مقرراً قاعدة مهمة من قواعد التقاضي، وهي قاعدة المساواة: في بيته يؤتى الحكم.

ثم يحاول زيد - من باب الإكرام للخليفة - أن يدني مجلس عمر و يقربه، فيأبى عمر إلا أن يجلس حيث يجلس خصمه على قدم المساواة، ويقول لزيد: هذاأول الجور منك.

وبعد أن يدلي كل من الخصمين بحجته، يحكم زيد باليمين على عمر ثم يطلب من أبى بن كعب أن يعفي أمير المؤمنين من اليمين؛ لكن عمر لم يقبل و جعله من جوره الثاني، وأصر على تنفيذ ذلك، فيحلف كما حكم القاضي، وبعد أن استحق الأرض المتنازع عليها قضاء، وهبها عمر لأبي بن كعب. فعن الشعبي قال: كان بين عمر بن الخطاب وبين أبي بن كعب -

[1] - أخرجه البخاري رقم ٣٤٧٥، ٣٧٣٣، ٤٣٠٤،٦٧٨٧، و مسلم رقم ١٦٨٨.

رضي الله عنهما - تدارىء (تدافع في الخصومة) في شيء وادعى أبي على عمر - رضي الله عنهما - فأنكر ذلك فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه في منزله، فلما دخلا عليه، قال له عمر - رضي الله عنه: أتيناك لتحكم بيننا، وفي بيته يؤتى الحكم، فوسع له زيد عن صدر فراشه فقال: ههنا يا أمير المؤمنين، فقال له عمر - رضي الله عنه -: لقد جرت في الفتيا، ولكن أجلس مع خصمي فجلسا بين يديه فادعى أبي، وأنكر عمر - رضي الله عنهما- فقال زيد لأبي: أعف أمير المؤمنين من اليمين، وما كنت لأسألها لأحد غيره، فحلف عمر - رضي الله عنه -. ثم أقسم، لا يدرك زيد بن ثابت القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء". ([1]).

و حضر مرة في مجلس قضاء أبي بن كعب كذلك، و رد على صنيعه بتفضيله على خصمه مثل هذا الرد، فعن مُحَمَّدٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَبَيْنَ مُعَاذِ بْنِ عَفْرَاءَ دَعْوَى فِى شَىْءٍ فَحَكَّمَا أُبَىَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقَصَّ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ أُبَىٌّ: أعْف أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: لاَ، لاَ تُعْفِنِى مِنْهَا إِنْ كَانَتْ عَلَىَّ. قَالَ: قَالَ أُبَىٌّ: فَإِنَّهَا عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَحَلَفَ عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتُرَانِى قَدِ اسْتَحْقَقْتُهَا بِيَمِينِى، اذْهَبِ الآنَ فَهِىَ لَكَ ". ([2]).

و لم يحد عمر – رضي الله تعالى عنه – عن قاعدة المساواة طول حياته، فعن ابن عمر قال:

كان بين عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد خصومة، فتقاضيا إلى أبي بن كعب، فقضى على عمر باليمين، فقال سعيد: أما إذا صارت إلى اليمين، فإنى أعفيه منها، فقال عمر: ما أريد أن تعفينى منها إنى أختلف على حق، فاستحلفه فحلف. ثم صعد المنبر فقال:أيها الناس، إنه ليس باليمين البرة

---

[1] - أخرجه البيهقي في الكبرى، كتاب آداب القاضي،باب إنصاف الخصمين... رقم ٢٠٢٥٠، ٢٠٢٩٧،٢٠٢٩٩، وابن الجعد في مسنده رقم ١٧٢٨، و راجع: المتقي الهندي، كنز العمال رقم ١٤٤٤٥.

[2] - أخرجه الدارقطني رقم ٤٦٥٤.

الصادقة بأس ". ([1]).

فما أروع هذه المساواة القانونية في نظر الإسلام؟

و أقام علي – رضي الله عنه – الدعوى ضد يهودي في عهد خلافته في محكمة القاضي شريح، و قدم الحسن – رضي الله عنه – ابنه وسبط الرسول – صلى الله عليه و سلم – و عبده قنبر كشاهدين، فرد القاضي شهادتهما؛ لأن حسب القانون الإسلامي لا تقبل شهادة الابن في حق أبيه، ولا شهادة العبد لصالح المولى، مع أن عليا – رضي الله عنه – ذكر مناقب الحسن – رضي الله عنه – التي بينها الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، و بالرغم من ذلك لم يقبل القاضي شهادته. و قد أدت واقعة العدل هذه إلى إسلام اليهودي. فعن الشعبي قال:

"ضاع درع لعلي يوم الجمل فأصابها رجل فباعها فعرفت عند رجل من اليهود فخاصمه إلى شريح فشهد لعلي الحسن ومولاه قنبر، فقال شريح لعلي: زدني شاهدا مكان الحسن، فقال: أترد شهادة الحسن؟قال: لا، ولكني حفظت عنك أنه لا تجوز شهادة الولد لوالده". ([2]).

ألا تفرق المحاكم في منهج عملها بين الحاكم و المحكوم و السلطان و الرعية في عصرنا الحاضر الذي يمتاز بالديموقراطية و الجمهورية و العلمانية؟ و هل يمكن أن ترفع القضايا ضد رؤساء البلاد في المحاكم العامة المكشوفة ؟

المساواة الاجتماعية:

نظر الإسلام إلى جميع فئات المجتمع من الناحية الاجتماعية بعين

---

[1] - راجع: ابن كثير، مسند الفاروق ٢ / ٥٥١، ط: ١، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، تحقيق: عبد المعطي قلعجي.

[2] - المتقي، كنز العمال ٧ / ٢٥، رقم ١٧٧٩٠.

واحدة، و لم يشجع التفرقة الاجتماعية من حيث الطبقية ، و إن كان الفقهاء أوجدوا سعة اعتبار الكفاءة في النسب و الأسرة و القبيلة نظرا إلى السلوك و التقاليد و الأعراف الاجتماعية القديمة، و لكنه احتمال المكروه بسبب الاضطرار الاجتماعي، و ليست طبيعة أصلية حقيقية للشريعة الإسلامية، و ذلك أن الأسر و القبائل من وجهة النظر الإسلامي ليست إلا للتعارف و عدم التناكر، و ليست القبائل و الأنساب للتفاخر و التصنيف بين الناس و تعيين طبقاتهم الاجتماعية مثل " شاستر " (كتاب القانون لدى الهندوس)، حيث يقول الله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ). [٩ / التوبة: ٧١].

و قد كان التفاخر بالأنساب اختلط بلحوم العرب و دمائهم و أعصابهم، فلم تكن محافل التفاخر و المباهاة تعقد في المهرجانات و المواكب فحسب، بل لم تكن تجمعات الحج خالية منها، فجعلها النبي – صلى الله عليه و سلم – مجالس ذكر الله تعالى، و أوقف سلسلة الزهو و المفاخرة الجوفاء بالأنساب، و لم يقدم ذلك كنظرية فحسب، بل شاد عليه بنيان العمل و طبقه في حياته كذلك، فزوج قريبته و أخته من عمته: أُميمة بنت عبد المطلب" زينب بنت جحش الأسدية " مولاه زيد بن حارثة، مع أن أهل أسرته ما كان يعجبهم هذا الزواج كثيرا؛ لأن زيدا كان عبدا معتقا، و هذا الشعور أدى إلى انتهاء الآصرة الزوجية أخيرا، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – قرر هذا الزواج بشيء من الإصرار للقضاء على العرف الاجتماعي الناشئ من الطبقية، و قال زوجناها زيدا، ليكون " الخلق " مقياسا للشرف، فعن جَابِرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:قَالَ:رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - زَوَّجْتُ الْمِقْدَادَ وَزَيْدًا لِيَكُونَ أَشْرَفُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا ". ([1]). و في رواية عن جابر عن الشعبي قال:قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: أنكحت المقداد وزيدا

[1] - أخرجه الدارقطني رقم ٣٧٩٢، بإسناد فيه انقطاع، ط: مؤسسة الرسالة.

ليكون أشرفكم عند الله أحسنكم إسلاما. أنكح المقداد ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب، وأنكح زيد بن حارثة زينب بنت جحش، وكان المقداد قد أصابه سباء ". ([١]). و زوج كذلك فاطمة بنت قيس أسامة بن زيد – رضي الله تعالى عنه، حيث قال لها: " انكحى أسامة بن زيد فكرهته، ثم قال: انكحى أسامة فنكحته، فجعل الله فيه خيرا، واغتبطت ". ([٢]). و أنكح المقداد بن الأسود ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب، و قال عن هذا النكاح أيضا: مقصده جعل الخلق و السيرة مقياسا للشرف. و خطب بلال فتاة أنصارية و طلبها للزواج، فرفض أهلها بالنظر إلى كونه مملوكا معتقا، فسخط – صلى الله عليه و سلم - و أمرهم بقبول الخطبة. ([٣]). و خطب أبو هند إلى بني بياضة، و كان حجاما و عبدا معتقا، فأمر النبي – صلى الله عليه و سلم – بني بياضة بقبول الخطبة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: "أَنَّ أبا هند حَجَمَ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- في يافوخِهِ. فسمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: يا بني بياضة أنكحوا أبا هند، وانكِحُوا إليه. قال: وإن كان في شيء مما تَدَاوَوْن به خير: فالحجامة ". ([٤]). و كذا أمر جميع الأنصار، فعن أبي هريرة: أن أبا هند حجم النبي - صلى الله عليه و سلم - في اليافوخ فقال النبي - صلى الله عليه و سلم -: يامعشر الأنصار أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه، وقال: إن كان في شيء مما تداوون خير فالحجامة ". ([٥]).

و قد أدرك الصحابة – رضي الله عنهم – مقصد النبي – صلى الله عليه و سلم – هذا، فجسدوه في حياتهم و قاموا بالتطبيق العملي، فزوج أبوحذيفة سالما مولى " امرأة أنصارية " بنت أخيه. ([٦]). و أشار عبد الله بن

---

[١] - أخرجه عبد الرزاق رقم: ١٠٣٢٦.
[٢] - أخرجه مسلم برقم: ١٤٨٠.
[٣] - راجع: السرخسي المبسوط ٥ / ٣٩، ط: ١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
[٤] - أخرجه أبو داود برقم ٢١٠٢، و إسناده حسن.
[٥] - أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم: ٥٩١١، و إسناده حسن.
[٦] - الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٣ / ٣١٤، بيروت، العلمية، ١٤١١ هـ.

مسعود على أخته أن تنكح مسلما، روميا كان أو حبشيا. و زوج عبد الرحمن بن عوف بلالا أخته. ([1]).

و هناك عدة أمثلة غيرما سبق تدل على أن الشريعة الإسلامية لاتحب الغلو في رعاية النسب و الأسرة و القبيلة في الزواج، و تريد أن تحقق الأخوة الإسلامية في هذا المجال كذلك.

المعول في الآخرة على الأعمال دون الأنساب:

إن رفع طبقة بشأن العقوبة و العذاب، و الجزاء والمثوبة، و حرمان طبقة بدون سبب معقول من النجاة الأخروية و النعم الإلهية، هو الذي يؤدي في الواقع إلى نشوء تصورالتفرقة بين فئات المجتمع و إقامة الفوارق الطبقية في الديانات. فقد كان تصور تزلف البراهمة من " الإله " فاشيا في الهند، و تصرح الديانة اليهودية و النصرانية كذلك بأن بني إسرائيل هم المتقربون من " الله تعالى ". فقضى النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – على هذه الفكرة الخاطئة، و جعل مقياس الشرف و الفضيلة " التقوى "، فعن عقبة بن عامر – رضي الله تعالى عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا أنسابكم يوم القيامة، أكرمكم عند الله اتقاكم. ". ([2]). و خاطب ابنته الكريمة السيدة فاطمة – رضي الله عنها – و عمته صفية – رضي الله عنها – فقال لهما: لا ينفعكما مجرد كونكما بنتي و عمتي، حيث جاء في الحديث: "يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا ". ([3]). و في رواية البخاري: " يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ

[1] - راجع: ابن بطال القرطبي، شرح صحيح البخاري ٧ / ١٨٥، الرياض، مكتبة الرشد، ط: ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

[2] - أخرجه الأصبهاني في " كتاب الأمثال في الحديث النبوي"، رقم: ١٦١، و راجع: الطبري " جامع البيان في تأويل القرآن " ٢٢ / ٣١٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، بإسناد فيه مقال.

[3] - أخرجه مسلم، رقم: ٢٠٦.

عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ يَا فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّدٍ اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنْ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا". ([1]). وجاء في رواية أن النبي – صلى الله عليه و سلم – لما دعا قريشا، قال أبو لهب: فمالي إن أسلمت، فقال: ما للمسلمين، فقال: أفلا أفضل عليهم ؟فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - بماذا تفضل فقال: " تباً لهذا الدين يستوي فيه أنا وغيري". ([2]). و لذا أعلن القرآن الكريم بكل صراحة و صفاء أن القرابات و الأولاد لاتنفع يوم القيامة، حيث قال تعالى: (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). [٦٠ / الممتحنة: ٣].

و لقد لعب تصور عدم التفرقة في الجزاء و المثوبة و العقاب بين الناس في الآخرة بسبب اللون و العرق و العنصر و المنطقة دورا هاما في القضاء على الفوارق الدينية و الاجتماعية

الإيضاح اللازم:

يمكن القول بكل قوة بأن ديانة ما من ديانات العالم لا تحمل رسالة عالمية، ماعدا الإسلام، فإنه نظر إلى البشرية جمعاء بعين واحدة، و رفض رفضا تاما بشكل واضح مكشوف إقامة التفرقة بين دم و دم، و عرق و عرق و عنصر و عنصر.

و يجدر بي أن أوضح بأمر مهم، و هو أن ما ذكرناه من تعاليم رسل و أنبياء بني إسرائيل و زعماء الديانة الهندوسية، هي مأخوذة من الصحائف الموجودة حاليا. و لكن نحن نعتقد بأن أي نبي حق و مصلح ديني متق لله تعالى لا يمكن أن يكون حامل لواء الفوارق الطبقية، و إنما هي من تحريفات و تلبيسات أرباب الأهواء الذين أدخلوا نظرياتهم و أفكارهم في تعاليم الأنبياء و الصالحين من الناس، و حاولوا استغلال الإنسانية باسم الدين.

[1] - أخرجه البخاري، رقم: ٣٥٢٧.

[2] - راجع: الرازي الشافعي، مفاتيح الغيب ٣٢ / ١٥٣، بيروت، العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

غياب النموذج الإنساني في الديانة الهندوسية:

لا يصلح شخص أن يكون أسوة للبشرية كلها، إلا أن تهدي حياته وترشد تعاليمه في مختلف شعب الحياة و كوائفها و أحوالها و شؤونها. و إن درسنا ديانات العالم من هذه الناحية، فلا نجد أحدا غير رسول الإسلام، ينزل على هذا المحك. و ذلك أن الديانة الهندوسية تخلو من تصور الرسالة و النبوة، و ترى أن الإله يتقمص الشكل الإنساني و يظهر في الدنيا، و يزيل الفساد، و تلك الشخصيات التي يحل فيها الإله يقال لها: " أوتار "، و في الديانة الهندوسية تعتبر شخصيتان مثاليتان: " راما " و " كرشنا " ممن حل الإله فيهما حسب معتقدهم. و من الأمر الجلي أن الشخص الذي يصلح أن يكون أسوة للإنسان لا بد أن يكون من البشر، و يحتاج كما يحتاج جميع أفراد بني آدم إلى الحاجات و المطالب و المستلزمات البشرية، و يكون عاجزا و عبدا كسائر أفراد البشر، و لا يملك قوة هائلة و سلطة واسعة مثل الإله، حتى يقلع الجبال و يحملها بيده، و يحيي الإنسان و يميتهم، و يجري الأنهار، ويستطيع أن يجعل الصحارى و الغابات – إن شاء – خرابا في لحظة واحدة، حتى يقدر على أن يربط رؤوس الأفيال في أجساد الإنسان، وبالافتراض إن وجدت شخصيات في الدنيا حل فيها الإله، فكيف تصلح سيرته المليئة بحوادث خارقة للعادة و قدرة واسعة و قوة هائلة أن تكون أسوة للبشر العاجزين المحتاجين البائسين؟

حياة المسيح لاترشد في جوانب الحياة كلها:

لم يترك إخواننا النصارى كذلك المسيح – عليه السلام – كرسول مقدس طاهر لله تعالى، بل أشركوه في الألوهية، و من الطبيعي أن الشخص الذي يكون إلها كيف يكون أسوة للبشر؟ وإن جمعت أحواله من الأناجيل، و كتبت بترتيب الوقائع و الحوادث، فلعل سيرته الزكية لا تظهر لمدة شهرين، كما لم تمر حياته بمراحل عديدة من الحياة

الإنسانية، و يقال للإنسان: بأنه حيوان اجتماعي، و تنشأ القرابات الاجتماعية كلها أساسا بالزواج، فبه يصبح رجل زوجا، ثم يصير أبا، و يتولى واجبات و وظائف رئيس الأسرة، و لكن لم يتزوج سيدنا المسيح – عليه السلام -؛ بل لم يحب الزواج، فحياته تخلومن أحكام الحياة العائلية و الأسرية، و لم ينجح في إقامة دولة، بل صلب في حالة عجز و بؤس و قهر حسب العقائد المسحية، ولذا تبوء محاولات الشخص الذي يبحث عن قدوته في مجال النظام الوطني، و النظام القضائي و العلاقات الدولية و العلاقات و الشؤون الخارجية بالفشل، ولا يجد في حياته كذلك قانون العقوبات الذي يعتبر أهم وسيلة للحفاظ على الأمن واستقرار السلام. و لم يظهر المسيح - عليه السلام – كذلك في موقف الجهاد مع أعدائه، و لعله كان خلاف طبعه الذي جبل عليه، فلا فائدة في البحث عن قوانين الحرب و المصالحة و المهادنة في حياته.

و نواجه الوضع نفسه في حياة موسى – عليه السلام – كذلك، فقد اضطر إلى العيش في الغابات و قطع الفيافى في أغلب أوقات حياته بسبب الفرار من قبل بني إسرائيل عن العمل، و الوقوع في الفسق و الفجور، فلا تكفي سيرته الطاهرة في جوانب كثيرة من الحياة. و حياة " بوذا " لا تخلو أيضا من الفجوات.

شمول سيرة محمد – صلى الله عليه و سلم -:

و إن درسنا سيرة رسول الإنسانية – صلى الله عليه و سلم – فلا نجد فجوة، حتى قال اليهود لسلمان الفارسي – رضي الله عنه – على سبيل السخرية و التهكم: " إن نبيكم – صلى الله عليه و سلم – يعلمكم طريقة التغوط كذلك، فرد عليهم بفخر و بدون استحياء: نعم، إن نبينا – صلى الله عليه و سلم – قد علمنا طريقة قضاء الحاجة الطبيعية كذلك، فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لسلمان قد علمكم نبيكم- صلى الله عليه و سلم -

كل شيء حتى الخراءة ؟فقال سلمان:أجل، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي باليمين، أو أن يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم ". ([1]). و هذا مثال لاستيعاب سيرة الرسول – صلى الله عليه و سلم – و جامعيتها و شمولها. فتتجلى في سيرته – صلى الله عليه و سلم – كل قضية من قضايا الحياة الشخصية للإنسان بكل وضوح و صفاء، فسيرته الزكية متوفرة للهداية في كل باب من أبواب الحياة من باب الأكل و الشرب، و النوم و الاستيقاظ، و الجلوس و القيام، و اللباس و الكسوة، و الكلام و القول، و السير و المشي، و في كل عمل من أعمال الإنسان، و في جميع أطوار الحياة.

و خذ أي كتاب من كتب الحديث، و ألق نظرة خاطفة على فهرس عناوينه و موضوعاته و محتوياته، يتجلى لك أن كل جانب من جوانب سيرته – صلى الله عليه و سلم – مضيء أشد إيضاءة.

و يوجد نموذج لكل قرابة من ناحية القرابات الاجتماعية في حياته – صلى الله عليه و سلم -، و إن توفي والداه في الصغر، و لكنه سلك مع أعمامه: أبي طالب، و حمزة – رضي الله تعالى عنه -، و العباس – رضي الله عنه – ما يسلك مع الوالدين. و قد عقد النبي – صلى الله عليه و سلم – على نساء من قبائل شتى، و لعب دور زوج رحيم، شفيق، عطوف، رقيق القلب، بعيد عن كلفة، و مراع لعواطف و مشاعر الطرف الآخر. فلا شك أنه – صلى الله عليه و سلم – خير أسوة للحياة العائلية الجميلة الرائعة، و للمودة و الألفة و الأنس و الفرح المتبادل، و لمراعاة رقة النساء الفطرية و لين طبعهن، و للتحمل و الصبر في حلو الحياة و مرها و رغد العيش و شظفه و ضيقه و شدته. و يعتبر مشعلا يضيء الطريق في مجال تعليم الأولاد و تأديبهم و تربيتهم و تنشئتهم ما قام به النبي – صلى الله عليه و سلم – من تربية

---

[1] - أخرجه الترمذي، رقم: ١٦، و إسناده صحيح.

حسنة لبناته بحب و عطف و رعاية أبوية، و اعتناء بتربيتهن الدينية و الخلقية. و كان – صلى الله عليه و سلم – يعامل مع أصدقائه معاملة خير صديق، و يسلك سلوكا جميلا مع الصغار و الأقرباء، و يصنع معهم بشفقة و لطف و رحمة و عطف. و لم يؤكد على رعاية القرابات فحسب، بل قام بالتطبيق الفعلي لها، حتى راعى القرابة الناشئة من الرضاعة رعاية لا يقوم بها الإنسان للقرابة الدموية. و هكذا نرى أن أسوته و نموذجه الفعلي موجود أمام البشرية في مختلف شعب الحياة و فروعها و أقسامها و أطوارها.

سعة التعاليم النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم-:

أما سعة نطاق تعاليمه – صلى الله عليه و سلم -، فيدل عليه أن ينابيع " علم الكلام "، و "التصوف "، و " الفقه " تفجرت من ذاته – صلى الله عليه و سلم - النيرة المضيئة للعالم. فالكلام عبارة عن العقيدة الإسلامية، أي الأمور التي يعتقد بها قلبنا، و يصدقها ضميرنا، كالتوحيد، و الرسالة، و الآخرة، و القدر، و الملائكة، و الجنة، و النار، و ما إلى ذلك. و يمكن أن نعبر عنها بالإيمانيات.

و " التصوف " عبارة عن الأخلاق الفاضلة تزكو بها القلوب، و تصلح بها النفوس، مثل: الالتزام بالصدق، و تخلية القلب و النفس من الكبر و الزهو و الخيلاء و الاستكبار و التجبر، و الاتصاف بالتواضع و التذلل والتخاشع، و الاتسام بحب عباد الله تعالى، ومحاولة الابتعاد عن الكبر و الرذائل الخلقية. و هذا هو روح التصوف.

و الفقه يهدي في الجوانب القانونية و المواقف و المعاملات العملية للحياة، و يتناول خمسة مباحث: الأول: العبادات، أي: أعمال الإنسان التي تظهر العلاقة المباشرة بين الله تعالى و العبد، كالصلاة، و الصوم، و الحج، والزكاة، و الأضحية، و ما إلى ذلك.

الثاني: المناكحات، أي: القوانين التي تنظم علاقات الإنسان في الحياة الاجتماعية، و توضح الأحكام و الحقوق الاجتماعية، كالنكاح، و الطلاق، وثبوت النسب، و حقوق الزوجين، و الوالدين، و الأولاد، و الإخوة و الأخوات، والأقرباء و القريبات.

و الثالث: المعاملات، و هي القوانين التي تنظم علاقات مواطن مع آخر، كالبيع و الشراء، و حقوق التاجر و الزبون، و المؤجر و الأجير والموظف، و أحكام المالك، و المستأجر، و ما إلى ذلك.

الرابع: القوانين التي تنظم علاقات و حقوق الحكومة و المواطنين، و تتعلق بإدارة البلاد و الحكومات و النظام الوطني، كانتخاب الأمير، و نظام القضاء، و إدارة أمن العامة، و تنظيم سلامة الشعب، و حقوق الحكومة و الرعية بعضها على بعض ، و ما إلى ذلك. و هذه القوانين تشمل الأحكام التي تتعلق بالجرائم و العقوبات، و يطلق الفقهاء عليها " العقوبات "، " و الفقه الجنائي "، و " التشريع الجنائي "، و " فقه الجنايات ".

الخامس: الأحكام التي ترشد في مجال العلاقات الدولية، و المعاهدات و الاتفاقيات و المواثيق، و المصالحة و المهادنة و الموادعة، و الأمن و السلام، و الحرب و الغزو، و يطلق عليها في اصطلاح الفقهاء " السير ".

و هذه الأحكام و القوانين التي تحمل صلاحية هداية كاملة و توجيه تام للفرد و الحكومة من عقيدة الإنسان و إيمانه إلى العلاقات الدولية، هي كلها مقتبسة من تعاليمه و توجيهاته النيرة الزكية الرحيمة على الإنسانية و المنسجمة مع الفطرة البشرية. و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على استيعاب السيرة النبوية – على صاحبها ألف ألف تسليم – و جامعيتها و شمولها و صلاحيتها للهداية و التوجيه في جميع شعب و فروع الحياة و أطوارها.

مصادر الديانة الهندوسية من الناحية التأريخية غير محفوظة:

الأمر الثالث الذي يجب أن يتوفر في شخصية أو سيرتها حتى تصلح لأن تكون أسوة للبشرية جمعاء، هو أن يصل إلينا حوادث حياته و تعاليمه و نظامه الذي قدمه بطريقة مصونة، و نستطيع أن نقبله بوثوق تام و اعتداد كامل. و إذا درسنا من هذه الناحية سيرة النبي – صلى الله عليه و سلم – الزكية، و قارناها مع شخصيات دينية و روحية و إصلاحية أخرى، ليتجلى لنا أنه ليست هناك شخصية غير النبي – صلى الله عليه و سلم – وصلت إلينا حياته و تعاليمه بطريقة محفوظة و موثوقة صحيحة معتبرة.

أما كتب إخواننا الهندوس الدينية فأوثق كتبهم هي" كتب الويد " التي يعتبرها معظم شراح الديانة الهندوسية " كتبا إلهامية "، و كتب " الويد " كانت كثيرة، و لكن أربعة كتب من " الويد " معتبرة لدى إخواننا الهندوس في الوقت الحاضر، و هي: "رِك ويد"، و "يَجُرْ ويد"، و "سام ويد"، و "أتهَر ويد". ويرى الكاهن الهندوكي " ديانند سرسوتي " أنها ألهمت و ألقيت في روع " أغني "، و " وايو "، و " أدتيا "، و " أنغرا ". و لكن يوجد اختلاف كثير بين علماء الهندوسية حول هذه الكتب، فمثلا: يوجد اختلاف في عدد " الأشلوك " (أجزاء مخصوصة من الكتاب)، و هل بعض " الأشلوك " حقيقي أو منتحل، و على من نزلت هذه الكتب ؟ثم تلك الشخصيات المزعومة أيضا غير معروفة و غير معلومة من الناحية التأريخية.

حرمان العهد العتيق من الاعتبار و الصحة:

الإنجيل هو الكتاب الديني لدى إخواننا اليهود و النصارى، و له جزءان: "العهد القديم"، و "العهد الجديد"، و العهد القديم يتناول ذكر الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح – عليه السلام -، و ما نزل عليهم من

الأحكام، و فيه أحوال رسل بني إسرائيل على الأغلب، و في هذا الجزء التوراة و الزبور الذين ذكرهما القرآن، و لكن ليست لهذه الصحائف أية وثيقة. و يتبين من الحقائق التاريخية – التي يعترف بها اليهود و النصارى – أن هذه الصحائف تم محوها و إبادتها و القضاء عليها مرارا. و التوراة تصرح بنفسها بأن صحيفة موسى – عليه السلام – المختصرة كانت في اثنتى عشرة نسخة، و أعطى كل قبيلة من القبائل المختلفة نسخة، غير أنه وضع صحيفة " بني اللاوي " في تابوت السكينة، فكأنها نسخة أصلية، و لكن هذه الصحيفة أيضا ذهبت أدراج الرياح، فقد دمر الملك الآشوري " سارغون " مملكة اليهود في ٧٢١ ق، و هدم الهيكل السليماني، و أحرق الصحيفة المقدسة. و أباد "بختنصر" في ٥٩٨ ق و في ٥٨٧ ق العمران اليهودي و معابدهم و الآثار الدينية الباقية، و وقع في اليهود المجزرة، و استعبد و أسرألوف منهم بذل و مهانة. و لكن حسن طالع اليهود في ٥٣٩ ق، فأذن لهم الملك الإيراني " خسرو " ببناء الهيكل، و في الوقت نفسه رتب الكاهن " عزرا " بعد ١٨١ سنة هذا الكتاب بذاكرته مرة ثانية.

و ليس هناك شواهد تدل على حفظ الكتاب المقدس أو كتابته في عهد النزول من قبل أناس مختلفين لأنفسهم، و لم يدّع ذلك علماء اليهود و أحبارهم بأنفسهم في وقت ما، فمن الطبيعي أن الكاهن " عزرا " لم يرتبه على أساس متين معتبر صحيح، بل مداره على الأقاويل التي سمعت من اليهود، و على الأساطير و القصص، و الكلام الذي لم تثبت صحته، و لذا يوجد اختلاف شديد بين اليهود و الطوائف المسيحية بنفسها بشأن صحة واعتبارالصحائف المختلفة للأناجيل، فمن الطبيعي أن مثل هذا الكتاب كيف يعتبر مصدرا موثوقا به لحياة و تعاليم رسل بني إسرائيل ؟

تدوين " العهد الجديد ":

و أمر العهد الجديد من الأناجيل أشد اشتباها من العهد القديم،

فمن المعروف أن سيدنا المسيح – عليه السلام – قد قضى دوما حياة مقهور و مغلوب و مستسلم، فقد عاش بعد النبوة ثلاث سنين فقط، و زد إلى ذلك أن الذين آمنوا به هم يعدون بالأصابع، فلا يعرف كتابة الوحي في حياته، و الأناجيل التي تم عزوها إليه يصل عددها إلى خمسين، و لكن اعتبرت الأناجيل الأربعة صحيحة موثوقا بها بدون سبب مناسب معقول، و البقية غير موثوق بها، و الأناجيل الأربعة تنسب إلى " مَتّى "، و "لُوقا"، و " مُرْقُسْ "، و " يوحنا "، و يقال: " إن " متى " و " يوحنا " كانا من الحواريين للمسيح – عليه السلام -، و لكن جاء ذكرهما في هذين الإنجيلين نفسهما بحيث يبدو بجلاء أن هذين الكتابين رتبا بعدهما من قبل تلامذتهما و أتباعهما، و أما الإنجيل " مرقس " فنسب إلى مرقس، و يقال عنه: إنه تلميذ " بطرس " من الحواريين للمسيح – عليه السلام -، فكأنه تابعي، و قد تم ترتيب هذه الصحيفة بعد ٦٦ سنة من رفع المسيح – عليه السلام، كما يراه بعض شراح الأناجيل، بينما " لوقا " من تلامذة القديس " بولس"، و هو الذي يعتبر محرفا أصليا للنصرانية. و زد إلى ذلك التناقض و الاختلاف الشديد الذي يوجد في سرد واقعة واحدة في هذه الأناجيل، و الذي يدل بذاته على التحريفات و التصحيفات و التلبيسات و التخليطات التي تمت في هذه الكتب.

الشواهد من الأناجيل:

هذه خلفية تأريخية لتلك الكتب الدينية، و هي تحمل الشواهد الداخلية كذلك التي تدل بكل صراحة على كونها غير محفوظة، و تشكك في نسبتها إلى الأنبياء، فالعهد العتيق من الأناجيل تحكي لنا أن نوحا – عليه السلام – تجرد من لباسه بسبب نشوته بشرب الخمر، و ارتكب لوط – عليه السلام – الفاحشة مع بناته، و اقترف داود – عليه السلام – منكرا مع

زوجة جندي، و جعله مقتولا في الحرب بحيلة، و وقع هارون – عليه السلام – في الشرك – نعوذ بالله تعالى من ذلك -. و لا شك أن هذه الأمور مما يتألم بها القلب و يرتعش الفؤاد بذكرها. و هل من المعقول أن تكون مثل هذه المواد و المحتويات في كتاب إلهامي صحيح ؟ و تصور الأناجيل أسرة الأنبياء تصويرا بشعا يندى له جبين العاقل المنصف، فقد ذكرت أن أبناء يعقوب – عليه السلام – عملوا عملا شنيعا، فارتكب" روبن "، منكرا مع زوجة ابنه، و "يهوذا" أي يهوذ بن يعقوب – الذي ينتسب إليه اليهود، و يفتخرون بهذه النسبة – اقترف الفاحشة مع زوجة ابنه " تمر "، و تصور الله تعالى تصويرا متناقضا، حيث يبدو في موضع كجبار و قهار، و يظهر في موضع آخر عاجزا مسكينا بائسا، حيث يندم على خلق الإنسان، و يذهب بذاته إلى المعركة و ينهزم؛ بل ما زال مصارعا مع يعقوب – عليه السلام – طول الليل حتى رجع منهزما منهوك القوى متعبا مرهقا. و صدق الله تعالى إذ قال: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ). [٣٧ / الصافات: ١٥٩].

و العهد الجديد من الأناجيل نسب إلى المسيح و بعض الحواريين له. و هذه الصحف تصف المسيح – عليه السلام – من جانب بكمال رقة القلب و لين الجانب و الرحمة و الرفق و التسامح، و الحب الشديد للإنسانية، وتصوره من جانب آخر كشخص متصف بغلاظة الكلام و شدته و قطوب الوجه و عبوسته، الأمر الذي لا يليق بنبي حتما، و على سبيل المثال، يخاطب أحبار اليهود و علمائهم و الفريسيين و يقول لهم: " أيتها الحيات، و أولاد الحيات، و أولاد الثعابين، و أيها السفهاء، و أيها العميان، و يا أولاد النار "، و يقول للذين لا يقدرون القيم الروحية: " يا أيها الكلاب و الخنازير ". و يقول عن الذين يطلبون المعجزات: إنما يطلبها الزناة. ففكروا أيها الناس، هل يمكن لشريف فضلا عن نبي أن يستخدم مثل هذه اللغة و اللهجة و الأسلوب؟ فلو لم تكن الشواهد التاريخية لكفت هذه الشواهد الداخلية للدلالة على أن

الأناجيل غير موثوق بها، و غير معتبرة، و غير صحيحة، و معرضة للتحريف و التصحيف و التخليط و التلبيس الإنساني. فكيف يمكن لنا أن نثق بالتعاليم المنسوبة إلى الأنبياء و الرسل – عليهم السلام – التي وصلت إلينا بمثل هذه المصادر، و نعتبرها ينبوع الرشد و الهدى؟

الصيانة التاريخية للسيرة النبوية الزكية – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم -:

إذا درسنا حياة النبي – صلى الله عليه و سلم – من وجهة النظر هذه، ليتجلى لنا بكل صفاء، أن الله تعالى نظم تنظيما قويا غريبا لحفظ حياته – صلى الله عليه و سلم - و تعاليمه، و الذي يعتبر في حد ذاته معجزة حية، بحيث إذا فكر إنسان بذهن مفتوح و عقلية منصفة في هذه النقطة لأدرك أنه ليس هناك ملجأ يلجأ إليه البشرية، و تنعم بنعمة طمأنينة القلب و راحة البال و هدوء النفس إلا أن تتشبث بذيل رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم -.

القرآن الكريم هوالمصدر الأول للسيرة النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم:

إن هناك ثلاثة مصادر للعثور على حياة النبي – صلى الله عليه و سلم – الطاهرة: القرآن الكريم، و الأحاديث المباركة، و السيرة النبوية. فالقرآن الكريم المنزل من الله تعالى طبعة تامة أخيرة من كتاب الهداية، و تكفل الله تعالى بنفسه بحفظه و صيانته، حيث قال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). [١٥ / الحجر: ٩]. و لم يحدث مع القرآن الكريم كالصحائف الدينية الأخرى أن يتم جمعه و تدوينه و ترتيبه و كتابته بعد مدة مديدة من وفاة النبي – صلى الله عليه و سلم -.

فقد كتب القرآن الكريم في حياته، و رتبه النبي – صلى الله عليه

وسلم بنفسه، و حفظه ألوف من الناس في حياته – صلى الله عليه و سلم -، و جمعه كثير من الصحابة بشكل كتابي. و قد كان عدد الذين يفوض إليهم كتابة الوحي بصورة مؤقتة كثيرا، و لا يقل عدد كتبة الوحي المستقلين كذلك من واحد و عشرين، و هؤلاء هم الذين كانوا يحيطون بالنبي – صلى الله عليه و سلم – كل وقت، و كانت تنزل عليه عدة آيات في وقت واحد، فكان يدعو الكاتب الذي خصص لكتابة سورة ما، و يمليه عليه الآيات المتعلقة بسورته. ([1]). و زدإلى ذلك أن النبي – صلى الله عليه و سلم – كان بنفسه حافظا للقرآن الكريم، و كان " يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ". ([2]). و ليست صلاة التراويح إلا ذكرى لهذه المدارسة، و دارس مرتين في السنة التي توفي فيها. وكان عدد الحفاظ من الصحابة كثيرا، و جاء تصريح باسم ثلاثة و ثلاثين حافظا، و فيهم الخلفاء الراشدون، و أمهات المؤمنين: السيدة عائشة، و السيدة حفصة، و السيدة أم سلمة – رضي الله عنهن -، و الصحابية أم ورقة – رضي الله عنها. و الحفاظ الذين لم يتم التنصيص على أسمائهم، عددهم أكثر من ذلك، فقد استشهد سبعون حافظا في عهد النبي – صلى الله عليه و سلم - يوم بئر معونة، فعن أنس يقول: ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه و سلم- وجد على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة كانوا يدعون القراء، فمكث شهرا يدعو على قتلتهم ". ([3]). و استشهد عدد كبير من الحفاظ القراء في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – كذلك يوم اليمامة، و هم سبعون رجلا حسب بعض الروايات، و سبعمائة شخص حسب الروايات الأخرى. فعن قَتَادَةَ قَالَ:مَا نَعْلَمُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيدًا أَعَزَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ

---

[1] - راجع: ابن كثير، البداية و النهاية ٥ / ٣٣٩ – ٣٤٠، بيروت، مكتبة المعارف.
[2] - أخرجه البخاري، رقم: ٦.
[3] - أخرجه مسلم، رقم: ٦٧٧.

مَالِكٍ أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ، وَيَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ سَبْعُونَ، وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ. قَالَ: وَكَانَ بِئْرُ مَعُونَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَوْمُ الْيَمَامَةِ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ". ([1]).

و توجد شواهد عديدة في الأحاديث تدل على أن عدة نسخ من القرآن الكريم بشكل كتابي كانت موجودة لدى الصحابة – رضي الله عنهم -. و كانت أخت عمر فاطمة بنت الخطاب تتلو القرآن الكريم من الصحيفة خفية، و أخفته عن عمر حين قدومه. و هذه القصة معروفة. ([2]). و قد نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن السفر بالقرآن؛ لأنه كان يخشى أن يهتك الكفار حرمته إن ظفروا به، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - أنه كان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو". ([3]). و في " الطبراني " قراءة القرآن في المصحف أفضل بألفي درجة من القراءة عن ظهر القلب، فعن عُثْمَانَ بن عبد اللَّهِ بن أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ عن جَدِّهِ قال: قال رسول اللَّهِ- صلى اللَّهُ عليه وسلم -: قِرَاءَةُ الرَّجُلِ الْقُرْآنَ في غَيْرِ الْمُصْحَفِ أَلْفُ دَرَجَةٍ، وَقِرَاءَتُهُ في الْمُصْحَفِ يُضَاعَفُ على ذلك إلى أَلْفَيْ دَرَجَةٍ ". ([4]).

و هذه الروايات كلها تدل بصفاء على أن نسخا كثيرة من القرآن الكريم بصورة كتابية كانت لدى الصحابة – رضي الله عنهم -.

و استحسن في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – أن يتم جمع القرآن و تدوينه بصورة رسمية؛ لأن النسخ الفردية كانت يخشى عليها تقصير و سهو، فتم الحصول على النسخ القرآنية من جميع المسلمين، و رتبت وفق الترتيب المعروف في عهده – صلى الله عليه و سلم -. و كانت هذه النسخة الرسمية

---

[1] - أخرجه البخاري، رقم: ٤٠٧٨، و راجع: ابن حجر، فتح الباري ٧ / ٣٧٦، ٩ / ١٢، ٥٢، بيروت، دار المعرفة،١٣٧٩هـ.

[2] - راجع: الحاكم، المستدرك رقم: ٦٨٩٧.

[3] - أخرجه البخاري، رقم: ٢٩٩٠، و مسلم، رقم: ١٨٦٩.

[4] - أخرجه الطبراني في الكبير، رقم: ٦٠١، و إسناده لا بأس به.

في حيازة الحراسة الحكومية، و انتقلت إلى عمر – رضي الله عنه – بعد وفاة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه -، و بما أن الخليفة القادم لم يتم انتخابه في حياة عمر – رضي الله عنه -، و لذا فوضها أم المؤمنين حفصة – رضي الله عنها -. ثم أمر عثمان – رضي الله عنه – بترتيبه و تدوينه على لهجة قريش بالنظر إلى هذا المصحف و المقارنة مع النسخ القرآنية الأخرى الموجودة عند الصحابة الآخرين، حتى لا يفضي في المستقبل اختلاف اللهجة والأسلوب إلى وقوع الأمة في المشقة و العنت. ([1]).

فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي مازال محفوظا و مصونا في العالم، و الذي لا يوجد فيه اختلاف فتحة و كسرة و نقطة، و قد تم العثور على النسخة العثمانية، و لا يوجد أي فرق بينها و بين المصاحف المطبوعة. ولم يحفظ الله تعالى ألفاظه و كلماته فحسب، بل حفظ معانيه أيضا عن طريق المحدثين و الفقهاء. و تم كذلك الحفاظ على لهجته و أسلوبه و طريقة أدائه عن طريق " فن التجويد ". و قام النظام الطبيعي لصيانة خط القرآن (script) و رسمه، و مازالت المصاحف تكتب بالطريقة التي استخدمت في المصحف العثماني، إلا أن النقط و الحركات ما كانت تستخدم في ذلك العهد، و بدأت سلسلته فيما بعد، ليتيسر تلاوة القرآن الكريم للعجم. و قد حفظ الله تعالى اللغة العربية بسبب علاقتها بالقرآن الكريم، مع أن لغات عديدة انعدمت من العالم في مدة ألف سنة أو خمسمائة و ألف سنة.

و قد انقطعت علاقة اللغة العربية بـ " علم الطبيعة " (Science) و التكنولوجيا (Technology) منذ عدة قرون ماضية، و قد كانت أرض العرب محرومة من الوسائل الاقتصادية و الموارد المالية، فلم يكن من حيث الظاهر مساغ و مبرر لبقاءها و دوامها، و لكن علاقتها بالقرآن لم تحيها فحسب، بل أحيت أسلوب البيان و طريقة الأداء المبنية على القرآن

[1] - راجع: صحيح البخاري رقم ٤٦٧٩، ٤٩٨٦، ٧١٩١.

كذلك، مع أن تغييرات عديدة تطرأ على اللغة في مثل هذه المدة. فيتغير أسلوب اللغة في مائة أو مائة و خمسين سنة، تغيرا يكاد يصعب فهمها. و خذ على سبيل المثال:" اللغة الأردية " فإنها حديثة الولادة، و لم يمض على عمرها سنون كثيرة، و مع ذلك يصعب على الجيل الجديد فهم منظومة وشعر " ولي الدكني "، و " لميرزا غالب "، و " العلامة محمد إقبال"، و يشق عليهم كذلك فهم نثر المؤلفين للعصر الأول من اللغة الأردية حتى يتعذر لهم فهم نثر " الشيخ أبي الكلام آزاد " أيضا.

و لكن القرآن الكريم نزل قبل ألف و خمسمائة سنة زهاء، و لم يزل إلى يومنا هذا " الأدب القرآني " يعتبر أدبا مثاليا على المستوى العالي، و لم يزل يفهم كما كان يفهم في عهد نزوله.

ملخص القول أن الله تعالى لم يحفظ هذا الكتاب فحسب، بل حفظ معانيه وطريقة أدائه كذلك، كما حفظ اللغة التي نزل فيها، و أسلوب البيان و الأدب الذي يحمله، و خطه الذي كتب فيه في الابتداء.

فمن الحقائق التي لا تجحد أن القرآن الكريم يحوي جزءا كبيرا من السيرة النبوية الزكية الطاهرة – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم - , فنجد فيه خصائصه – صلى الله عليه و سلم – و مزاياه، و نوع علاقته بالله تعالى و عباده، و أهم الحوادث التي مرت حياته – صلى الله عليه و سلم - بها عادة في مراحلها المختلفة، و سلوكه – صلى الله عليه وسلم – و معاملته مع الأصدقاء و الأعداء، و معاملة هؤلاء معه – صلى الله عليه و سلم -، و طريقة عيشه – صلى الله عليه و سلم – في الحياة العائلية و الأسرية.

و خلاصة القول أن القرآن الكريم يتوفر فيه مواد متعلقة بالسيرة النبوية الزكية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم –، حتى لو لم يكن مصدر آخر لكفى القرآن إلى حد ما.

الأحاديث المباركة هو المصدر الثاني للسيرة النبوية الزكية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم:

الحديث مصدر ثان لمعرفة السيرة النبوية العطرة – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم -، فالحديث كأنه صورة متحركة و لوحة زيتية لحياته – صلى الله عليه و سلم – النقية، فقد تمت فيه الإحاطة الكاملة بتعاليمه و توجيهاته و أفعاله المعتادة و عاداته و شمائله النيرة. و بدأ الاهتمام بصيانة الأحاديث المباركة كذلك من عهد النبوة – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم -، فتم الاعتناء بكتابتها من هذا العهد، مع رغبة الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – في حفظ الحديث و مدارسته ومذاكرته و معارضته و سمعه و إسماعه رغبة شديدة، فقد تم ترتيب مجموعات حديثية متعددة من قبل عدد كبير من الصحابة – رضي الله عنهم – بأنفسهم، منهم علي، و عمرو بن العاص، و جابر بن سمرة، و عبد الله بن عباس، و عبد الله بن أبي أوفى، و جابر بن عبد الله – رضي الله تعالى عنهم -. ([1]). و قد أملى النبي – صلى الله عليه و سلم – بنفسه عدة مجموعات و كتابات حديثية، فقد جاء ذكر " كتاب الصدقات " في معظم مصادر السنة. ([2]). ثم قام المحدثون لنقد الأحاديث بتأسيس فن، ليس له نظير في الدنيا لا في الماضي و لا في المستقبل، و هذا الفن يسمى "فن أسماء الرجال "، يذكر فيه أحوال الرواة، و أخلاقهم و شمائلهم، و يتم فيه البحث و النقاش عن كونهم ثقات أو غير ثقات مناقشة مفتوحة و بدون امتياز و مراعاة و محاباة (favor) و ميل إلى أحد. و لا تقبل رواية من الرواة الذين ثبت عنهم الكذب و لو مرة واحدة، أو تم العثور على تقصيرهم و إهمالهم و غفلتهم عن الالتزام بأحكام الدين، أو ثبت

[1] - راجع: ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري، المقنع في علوم الحديث ص ٣٣٧ ــ ٣٣٩، ط: ١، السعودية، دار فواز، ١٤١٣هـ.

[2] - راجع مثلا: سنن أبي داود رقم ١٥٦٧، بيروت، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

انتماءهم إلى الفرق و الطوائف التي لا تعتبر الكذب شنيعا و لا ترى حرمته أو تقل شناعة الكذب عندها. و كان المحدثون محتاطين و أصحاب حذر و حساسية (sensitivity) شديدة في هذا الباب، حتى لا يتكلفون و لا يراعون في التنبيه على تقصير ديني أو خلل في الوثاقة يوجد في راو، و إن كان أبا أو قريبا أو أستاذا لهم. و قد أعجب بعض المستشرقين بهذا الفن الذي اخترعه المسلمون للحفاظ على أحوال و شؤون حياة نبيهم – صلى الله عليه و سلم -، حتى أصبحت أحوال مائة ألف شخص مصونة بفضل هذا الفن. و هذا حدث غريب في التأريخ.

و قد قامت عدة أدلة و براهين و شواهد على صدق الأحاديث المباركة و كونها موثوقا بها، و في هذه العجالة يضيق المكان عن ذكرها، و لكن تم العثور في العصر الراهن على حدثين هامين مثيرين للدهشة يدلان دلالة صريحة مكشوفة على وصول الأحاديث إلينا بطريقة صحيحة معتبرة. أحدهما: " الرسائل و الخطابات النبوية " – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم -، فقد تم اكتشاف عدة رسائل النبي – صلى الله عليه و سلم -. و يصدق المتخصصون في علم الآثار و العاديات بصحة نسبة هذه الرسائل إلى نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم -. و لا يوجد أي فرق بين ألفاظ و كلمات هذه الرسائل المكتشفة و بين الألفاظ المروية في الأحاديث، حتى الترتيب المأثور في الأحاديث لثلاثة ألفاظ: " محمد، رسول، الله، يشتمل عليها خاتم النبوة – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم – يوافق الترتيب المذكور في الرسائل المكتشفة، حيث " الله " في الأعلى، ثم " رسول"، ثم في الأسفل " محمد ".

و الثاني: اكتشاف النسخة المخطوطة لهمام بن منبه الذي هو تلميذ أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه -، و التي جمع فيها مائة و ثمانيا و ثلاثين مروية من مرويات أبي هريرة – رضي الله عنه -، و قد أخذ هذه

المرويات الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، و مما يستغرب له أن هناك توافقا تاما بين ألفاظ هذه المخطوطة و بين ألفاظ مرويات مسند الإمام أحمد بن حنبل. فكأنه معجزة ظهرت للدلالة على خلود نبوة محمد – صلى الله عليه و سلم -.

السيرة و الشمائل هو المصدر الثالث للحياة النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم:

"السيرة النبوية " تعتبر أهم مصدر لحياة رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – و مواقفها و أحداثها. إن المحدثين جمعوا و رتبوا حياته – صلى الله عليه و سلم - و تعاليمه و توجيهاته بترتيب قانوني (Legal)، و على سبيل المثال: إنهم رتبوا أولا مرويات متعلقة بالإيمان، ثم مرويات متعلقة بالصلاة، و ما إلى ذلك. فما راعوا في الحديث ترتيب حدوث الواقعة و زمنها إلا قليلا، بينما ترمي " السيرة النبوية " – على صاحبها الصلاة و السلام – إلى تقديم أحوال النبي – صلى الله عليه و سلم – و توجيهاته و تعليماته و وصاياه و نصائحه منذ الولادة إلى الوفاة بترتيب مطابق لحدوث الواقعات و الأحداث. و أول من رتب " السيرة النبوية " كفن مستقل هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب أبو بكرالقرشي الزهري (ت: ١٢٥ هـ). و ولد في خمسين من الهجرة، فقد جمع أحداث حياته – صلى الله عليه و سلم – بالذهاب إلى بيوت الصحابة و السؤال عنهم، حتى عن النساء المخدرات، مع الاستفادة الكاملة من أساتذة هذا الفن الخبيرين به أكثر من غيرهم، كـ "عروة بن الزبير" (ت: ٩٤ هـ)، و الإمام " الشعبي " (ت: ١٠٩ هـ)، و " وهب بن منبه " (ت: ١١٤ هـ)، و " عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت: ١٢١هـ).

والزهري متفق على جلالته وإتقانه ويعتبر إماما في الحديث و "السيرة"، و حل محله في الحديث: " الإمام مالك "، و " الإمام سفيان بن

عيينة "، و خلفه في "السيرة " محمد بن إسحاق "، و " موسى بن عقبة ". و "السيرة النبيوية " لابن هشام،كتاب رائع في هذا الباب، و قد طبع مرارا،و هو متوفر في كل مكان،و يعتبر شرحا لمغازي محمد بن إسحاق. و يوجد عمل موسى بن عقبة بشأن " السيرة " في مواضع مختلفة من كتب " السيرة ".

و ملخص القول أن الجزء الكبير من سيرته – صلى الله عليه و سلم– الذي يتوفر في الكتاب و السنة، قد تم كتابته وحفظه في حياته – صلى الله عليه و سلم – الطاهرة، و بدأت عملية ترتيب أحداث حياته – صلى الله عليه و سلم – حسب ظهورالواقائع و الحوادث في عهد الصحابة – رضي الله تعالى عنهم -، و لم يمض قرن حتى خرجت إلى حيز الظهورعدة كتب مرتبة مدونة، ثم تحولت إلى فن شريف بحيث لم يمض في الأمة الإسلامية مصنف خبير بارز إلا و قد طرقه.

و إذاقمنا بالاستعراض المقارن لصيانة حياة النبي- صلى الله عليه و سلم – و تعاليمه مع حياة الزعماء الدينيين الآخرين، ليتبين لنا بكل وضوح أن السند الذي يوجد عند المسلمين على الحديث الواهي الساقط، لا يوجد مثله على العقائد الرئيسية و النظريات الأساسية عند أصحاب الديانات الأخرى.

دليل بقاء نبوة محمد – صلى الله عليه و سلم – و خلودها:

و هذا في حد ذاته لأكبر دليل على خلود الإسلام و دوامه إلى يوم القيامة وختم النبوة على محمد – صلى الله عليه و سلم -، و ذلك أن من نظام الفطرة أن الشيء الذي لا ينفع الناس، يفنى بنفسه، فلا يدرى كم ينبت من النبات فطريا في موسم الأمطار، و كم يحتمل السيل زبدا رابيا، و لكن لا يبقى و لا يمكث في الأرض إلا ما ينفع خلق الله من النبات، و يذهب الزبد جفاء، و يبقى الماء الصافي الصالح للاستخدام. و الأسد أقوى حيوان،

ويحمل قدرة الدفاع عن نفسه بنفسه، و لكن مست الحاجة اليوم إلى صيانة جنسه، و كم من مبالغ ضخمة تصرف لحفظه، و كم من قانون وضع للتأكد على حفظه، و كم من تدبير اتخذ لسلامته، ولو اتخذ التدبير مثله في الهند لوقاية المسلمين و حراستهم و حمايتهم لما حدث اضطراب طائفي كبير، و مع ذلك يكاد ينقرض جنس الأسد، بينما تؤكل الغنم و تذبح كل يوم بمئات الألوف، و لكن يكثر إنتاجها؛ لأنها نافعة للبشرية، فكأن من تدبير نظام الفطرة إبقاء النافع و صيانته، و القضاء على الشيء الذي ينتهي نفعه.

فصيانة حياة النبي – صلى الله عليه و سلم – من الله تعالى إن دلت على شيء فإنما تدل على أنه لم تبق إلا سيرة نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم – نافعة للبشرية إلى القيامة من الناحية الروحية، و أراد الله تعالى أن تبقى إلى أن يرث الله تعالى الأرض و السموات، فقد انقرض عهد الديانات و الزعماء الروحانيين الذين سبقوا النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم -، و إلا لزم أن يحفظ الله تعالى تلك الديانات كذلك بشكل صحيح.

فحين نقول: إنه لا تصلح شخصية لتكون أسوة للعالم أجمع إلا شخصية نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم -، فلا يكون مصدر هذا القول مجرد حسن الاعتقاد الديني و الحماسة الدينية، بل يعتمد على الحقيقة التأريخية و الواقعة المحققة.

و لم يقع المسلمون رغم المحن و الشدائد و البلايا و المشاكل الكثيرة في الشعور بمركب النقص من الناحية الدينية و الاعتقادية، لأجل صدق نبوة محمد – صلى الله عليه و سلم – و قوتها الاستدلالية وغلبتها العلمية و العقلية. و من هنا ترى مسلما مفلسا فقيرا معوزا بائسا جائعا متجوعا متحطما بالبلية، بعيدا عن العلم، مظطهدا مطحونا في رحى الظلم و الجور، معرضا للخطر بسبب الاضطرابات الطائفية، متهكما بتهمة " الإرهاب " و "الأصولية " مستهدفا لكل نوع من أنواع السلاح من الترغيب و الترهيب،

منهك القوى، غارقا في حب الرسول – صلى الله عليه و سلم -، يرضى بأن يضحي بنفسه، و لكن لا يقبل بحال أن يحرم من الإيمان، و أن يبتعد عن العلاقة القائمة بينه و بين محمد – صلى الله عليه و سلم -. و لا شك أن هذا أغلى متاع يملكه المؤمن، و أكبر زاد للآخرة.

▼ ▼ ▼

الأسئلة و الأجوبة

هل كانت تعاليم الأنبياء السابقين ناقصة؟

السؤال الأول: أيها الشيخ الفاضل، إنك قمت بالدراسة المقارنة لتعاليم رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – مع الديانات الأخرى، وحققت أن تعاليم النبي – صلى الله عليه و سلم – كانت كاملة، و هذا يفضي إلى الشعور بأن تعاليم الأنبياء الآخرين كانت ناقصة، مع أن كل نبي يكون هاديا كاملا لعهده؟

الجواب: لا يغيبن عن البال بخصوص هذا أمران: الأول: أننا حين نقوم بمقارنة سيرة محمد – صلى الله عليه و سلم – مع سيرة الأنبياء الآخرين، فالمقارنة في الحقيقة تتم بين سيرة رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – الحقيقية و بين سيرة الأنبياء و الرسل الآخرين التي ليست محفوظة، و التي تقوم في ضوء صحف الديانات السابقة، التي لا تقدم صورة صحيحة لأؤلئك الإنسان العظام البررة الأتقياء و السفراء الكبار المتصلين بالملأ الأعلى الذين كانوا واسطة بين الله تعالى و بين خلقه، بسبب التحريفات و التلبيسات الإنسانية التي تسربت إليها. و لذا لا يعتبر الانتقاد على السيرة المشوهة المنسوبة إليهم انتقادا – و العياذ بالله تعالى - على حياتهم الطاهرة الرفيعة، بل إنما هو انتقاد على أناس ينسبون أنفسهم إليهم، و لكنهم خانوا في أداء مسؤولية الحفاظ على سيرتهم النزيهة النقية، و إلا فلا شك أن حياة كل نبي تكون هادية كاملة في عهده، و من هنا وجب الإيمان بجميع الرسل و الأنبياء و احترامهم و توقيرهم و تبجيلهم من وجهة نظر الإسلام، و لا يعد شخص مؤمنا بدون ذلك.

و الأمر الثاني: أن العهد الذي سبق بعثة النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – يعتبر عهد طفولة للحضارة و المدنية الإنسانية، و عهد نبوته – صلى الله عليه و سلم – عهد وصول الحضارة الإنسانية إلى أوجها و علوها، و عهد نضج المدنية، العهد الذي قرب عالم البشرية أجمع بعضه إلى بعض كحي واحد، و مدينة واحدة، فقد قطع الإنسان مسافة بعيدة في البحث عن أسرار الكون، و الاختراع و الابتكار و الإبداع، و العلم، و توسيع المدارك و تنمية العقل، حيث لم يقطع عشرها في هذا المجال من حدوث العالم إلى ولادة محمد – صلى الله عليه و سلم -. فلذلك كانت حياة الأنبياء السابقين المباركة كاملة مكملة بالنسبة إلى مقتضيات عهودهم، و لكنها غير كافية للعهد الحاضر، و لعل ذلك مراد قول الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا). [٥ / المائدة: ٣].

التصوف و وجهة النظر الإسلامية:

السؤال الثاني: جعلتم التصوف كذلك جزءا من العلوم النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم -، فما وجهة النظر الإسلامية بشأن التصوف؟

الجواب: إن التصوف في الحقيقة يرمي إلى إصلاح القلب، و تحلية الإنسان بالأخلاق الفاضلة، و تبعيدهم عن الأخلاق الرذيلة الدنيئة الخسيسة، و إنشاء حب الله تعالى و رسوله، و إحداث خوف الآخرة، و توليد الإخلاص، و الدفع إلى محبة خلق الله، و إبعاد أفراد البشر عن الكبر و الاستكبار، و ازدراء الناس و تذليلهم، و إيجاد التواضع و التذلل والتخاشع، و بسط الجناح للآخرين. و هذا هو مقصد التصوف و مرماه، و عطره و خلاصته. فمن يجحد من المسلمين أهميته ؟

و مع ذلك فمما لا يشك فيه أن التصوف تحول في العصور المتأخرة إلى الفلسفة، و تمت الاستفادة فيه من آراء الفلاسفة الشرقيين القدامى،

وأدرج فيه الطرق السائدة للرياضة بين أتباع الديانات الأخرى، و ذلك أدى إلى تسرب كثير من البدع العقدية و العملية إليه. فالقول الصحيح الذي يعتمد عليه أن التصوف لا يصح رفضه و عدم اعتباره تماما، كما لا يصح قبول كل ما هو سائد باسمه، فالحاجة ماسة إلى التمييز بين الخالص غير المشوب و بين الزائف المغشوش، فالأمور التي أصلها ثابت في الكتاب و السنة جديرة بالقبول، و التي لا أصل لها مرفوضة.

ما مزايا التبشير المسيحي ؟

السؤال الثالث: ما حسنات و محامد و مكارم الحملات التبشيرية، حتى يتأثر المرء بأخلاق أصحابها و حملتها ؟

الجواب: الأخلاق الحسنة و القيام بخدمة الخلق من حسنات الحملات التبشيرية، فكما أن الله تعالى جعل في الأشياء خواص، فالنار تحرق، و الثلج يبرد، و الماء يذهب بالغلة و شدة العطش وحرارته، و السم يحمل قوة الإهلاك، فكذلك جعل الله تعالى خواص في أفعال الإنسان، فحسن الخلق يملك قوة خارقة ملموسة لاستهواء القلوب واختلاب الأفئدة، ولا فرق في ذلك بين المؤمن و الكافر و بين الصالح و الطالح الفاسد. و هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى انتشار الإسلام، و هذا هو السلاح الذي جاء النبي – صلى الله عليه و سلم – به مع القرآن من غَارِ حِرَاءٍ، فما كان يملك في ذلك الوقت أسلحة أو أفرادا، و هذا هو الذي أوصل المسلمين في قرن إلى أنحاء العالم، فأينما حلوا كانوا سحب الرحمة و الشفقة و العطف و اللطف، فسادوا في كل مكان، و قد شعر العالم المسيحي بالتفوق الخلقي للمسلمين عموما، و في الحروب الصليبية خصوصا، و شاهدوا آثاره و نتائجه بأم أعينهم، فاتخذوا ذلك أسوة لهم، و هذا الذي أدى إلى نجاح الحملات والبعثات و المؤسسات التبشيرية.

و زد إلى ذلك ملاينة المسيحية التي كانت سببا رئيسيا في انتشارها ، فما هي إلا كفتيلة الشمعة، يمكن لك أن تلويها كيفما شئت، فإذا تحول هندوكي إلى النصرانية، فقد غير إلهه، و لم يؤثر ذلك في ثقافته و عشرته و مخالطته ومصاحبته و اجتماعه و عاداته و تقاليده و أعرافه، بالإضافة إلى الترغيب و التشويق و الإغراء الاقتصادي، و بناء على ذلك يسهل على كثير من الناس التغيير الاسمي للديانة، بينما يحمل الإسلام حضارة مستقلة و نظام الحياة الكامل، و هو يقوم بإحداث تغيير كبير في حياة الإنسان في جميع مراحلها، فلا يمكن الدخول في رحابه بدون همة عالية و إرادة قوية.

لماذا الأمم الأخرى أعز و أكرم و أرفع شأنا و مكانة من المسلمين؟

السؤال الرابع: يزيد في الوقت الحاضر عدد النصارى على عدد المسلمين،
و الأمم الأخرى تعيش في وضع مادي أرفع من وضع المسلمين،
وهي أسمى مكانة من مكانة المسلمين، فما سببه؟

الجواب: أولا لا أتفق مع هذا الرأي الذي يقول بأن عدد النصارى أكثر من عدد المسلمين، فالعدد المزعوم هو عدد النصارى الاسميين، و إلا فالمسيحية الحقيقية يندر وجودها في العالم في العصر الحاضر، فما هي إلا بمثابة الصفر.

و ثانيا: أن الكثرة لا تدل على القبول عند الله تعالى، فقد قام سيدنا نوح – عليه و على نبينا الصلاة و السلام – بالدعوة إلى الحق والتوحيد إلى مدة مديدة، لكن ما لبى على دعوته إلا بعض من الناس، وأصر معظم الناس على البقاء على الشرك واستمرائه، فهل هذا – والعياذ بالله تعالى - دليل على كون دعوته غير مقبولة عند الله تعالى؟

أما الكرامة و الذل فقد هيأنا أسباب المهانة بأنفسنا، فأية معصية لله تعالى لا نرتكبها اليوم؟ و من سنة الله تعالى إمهال الكفار و استدراجهم حينا،

ومؤاخذة المؤمنين في الدنيا ردعا و زجرا لهم.

هل المسيح – عليه السلام – كان هاديا ناقصا؟

السؤال الخامس: لما كانت حياة المسيح – عليه السلام – غير جامعة و شاملة و مستوعبة للجوانب المختلفة، فبالتالي ليس من الممكن أن يكون هاديا للبشرية في عصره، مع أنه لا يخفى أن كل نبي يكون هاديا في عهده؟

الجواب: أن غاية بعثة المسيح – عليه السلام – الرئيسية كانت إصلاح اليهود، و القضاء على المفاسد و الأضرار الخلقية التي تسربت إلى المجتمع اليهودي، و التبشير بقدوم النبي الخاتم محمد رسول الله – صلى الله عليه و سلم – الميمون، و قد حقق المسيح – عليه و على نبينا السلام – هذه الأغراض و الأهداف كاملا؛ فالهداية التي أريدت من بعثته كان يحمل أهليتها و موهبتها و قابليتها على وجه أتم، أما الهداية في شؤون الحياة و قضاياها المختلفة فكانت التوراة كافية لها؛ لأن نسخها لم يتم ببعثته، فلم يكن نبيا ذا شريعة مستقلة، و لذا كانت نبوته تحمل حلولا لجميع قضايا الحياة بالانضمام إلى شريعة موسى – عليه السلام - في عهده – عليه السلام -.

نموذج المعاملة مع الوالدين في الحياة النبوية–على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم:

السؤال السادس: قد توفي والدا رسول الله – صلى الله عليه و سلم – في صغره، فكيف تؤخذ من حياته – صلى الله عليه و سلم – أسوة للمعاملة مع الوالدين، و كيف تهدي حياته – صلى الله عليه و سلم – بهذا الخصوص؟

الجواب: الهداية كما تؤخذ من الفعل كذلك تؤخذ من القول أيضا، فتعاليمه – صلى الله عليه و سلم – بشأن حقوق الوالدين،

والسلوك المطلوب معهما متوفرة بكل وضوح و صفاء، و هي التي تهدينا بهذا الصدد، و المعاملة التي اتخذها مع حليمة بنت أبي ذؤيب السَّعْدية أمه – صلى الله عليه و سلم – من الرضاعة تعتبر نموذجا للمعاملة الحسنة مع الأم، و قد كان أعمامه: حمزة، و العباس، و أبوطالب أحياء، و قد جعلهم نظراء الأب و قرنائه، ([1]). فالسلوك الذي سلك معهم يعتبر أسوة و نموذجا للسلوك مع الوالدين.

لم حرم على السادة (بني هاشم) أخذ الزكاة:

السؤال السابع: لم حرم أخذ الزكاة على بني هاشم مع أن المسلمين كلهم سواسية؟

الجواب: كان من طبيعته و عادته – صلى الله عليه و سلم – تقديم الأقرباء بمناسبة التضحية بالأنفس و الأموال، فأرسل للمبارزة عليا، و حمزة بن عبد المطلب، وعُبَيْدَة بْنَ الْحَارِثِ بمناسبة بدر، حين دعا أبطال مكة إليها. ([2]). و كان يؤخرهم بمناسبة اكتساب النفع، و أكبر دليل على هذا أن النبي – صلى الله عليه و سلم – وزع العبيد و الإماء على جميع أهل المدينة، و لكن حين طلبت فاطمة – رضي الله تعالى عنها – خادما، لقنها " التسبيح الفاطمي ". فعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ فَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَام - أَتَتْ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَقَالَ:أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ: تُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ". ([3]).

و من الدوافع الرئيسية لمنع بني هاشم من أخذ الزكاة أيضا هو القضاء على الشائعات التي قد تتهم النبوة بجمع المال من الناس، و نفع

---

[1] - راجع: صحيح مسلم رقم ٩٨٣.
[2] - راجع: مُصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٧٨٣٤، دار القبلة.
[3] - أخرجه البخاري رقم ٥٣٦٢.

الأقرباء و أهل الأسرة، و لذا حرم النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – الزكاة على بني هاشم، لا في الحياة فحسب، بل بعد مماته – صلى الله عليه وسلم – كذلك.

هل يسمح في دار الإسلام بإحراق الزوجة نفسها مع جثة الزوج؟

السؤال الثامن: قلت - أيها الشيخ الفاضل -: إن غير المسلمين يتمتعون بالحرية الدينية الكاملة في " دار الإسلام "، فهل يسمح فيها بإحراق الزوجة نفسها مع جثة الزوج؟

الجواب: إحراق الزوجة نفسها مع جثة الزوج فعلة شنيعة جائرة، كما تصادم مع مصلحة الدولة؛ فإن هذه الفعلة تؤدي إلى الخسارة في القوة البشرية، فلا يسمح بهذه العادة القبيحة التي جرت في الهندوس في وقت من الأوقات، و من هنا لم يسمح الملوك المسلمون بهذه العادة السيئة رغم أنهم منحوا الهندوس في الهند الحرية الدينية التامة ولم يتدخلوا في شؤونهم الدينية.

▼ ▼ ▼

الخطبة الثانية:

رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم– و غير المسلمين

ألقيت في ٤ / من ذي الحجة ١٤١٧ هـ
الموافق ١٢ / من أبريل ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعاجيب التاريخ أن النبي الذي لقب بـ " رحمة للعالمين "، والذي نزل عليه أول آية محتوية على العلم و القراءة، و الذي نادى من جبل " الصفا " بالتوحيد النقي الخالص، و الذي خر ساجدا متضرعا أمام الله تعالى في معركة بدر، بدلا من أن يأخذ السيف بيده، و الذي دخل في مكة بمناسبة فتحها متواضعا متذللا ومخاشعا مطرقا رأسه حتى كان جبينه الطاهر النقي يلصق مرارا بسنام ناقته، و الذي ودع أسراء بدر الذين كانوا في طليعة المخرجين له من بيته و مدينته الحبيبة، بتكريم بالغ، و دعهم لابسين حللا جديدة، و الذي لم ير من المناسب بعد فتح مكة أن ينظر بنظرة غضب إلى الأعداء الألداء السفاحين المتعطشين إلى دمه – صلى الله عليه و سلم -، و أعلن بعفو عام، أن يقدم في صورة شخصية تقسو على مخالفيه قساوة بالغة، و لم يقترب من التسامح أبدا، و أن يصنع تمثاله على منوال يبدو فيه كأنه رجل في طبيعته تطرف، و هوآخذ بيده السيف. هذه كذبة عظيمة، ولعل التاريخ البشري يخلو من كذبة أكبر منها.

عموم وشمول رحمته – صلى الله عليه و سلم -:

لقد أمطرت سحب الرحمة التي غطت الكون بشكل رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – على المسلم و غير المسلم و الإنسان و الحيوان، فكانت بعثته – صلى الله عليه و سلم – سقيا للجميع، و تعزيزا للعدل و الإنصاف و الأخوة الإنسانية، بالقضاء على الظلم و الجور، فقد ربط النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – البشرية جمعاء بـ " آدم " – عليه السلام -، ونظم جميع أفراد بني آدم في سلك الأخوة و المودة الإنسانية، و أقام التآخي بينهم، و وجههم إلى العطف على جميع فئات البشر، حيث قال – صلى الله

عليه و سلم -: " لا يَرْحَمُ اللهُ من لا يرحمِ الناسَ". ([1]). و قال – صلى الله عليه و سلم – أيضا: "الرَّاحِمُونَ يرحمهم الرحمن، ارحَمُوا مَن في الأرض، يرحمْكم من في السماءِ ". ([2]). و قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس المعاملة التي يحبها لنفسه، فعن أنس عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ". ([3]). و قال بدون التفريق بين المسلم و غير المسلم: " ليس المؤمن بالذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه ". ([4]). و قال أيضا: " ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم". ([5]). و في رواية: " واللهِ لا يُؤْمِن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمَن جارُه بَوائِقَهُ ". ([6]). و استعمل القرآن الكريم لفظين للجار حيث ورد فيه: (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ). [٤ / النساء: ٣٦]. فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من " الجار الجنب " الجار غير المسلم. ([7]). ([7]). و اتخذ عبد الله بن عمرو – رضي الله تعالى عنه – موقفا رائعا، فقد حكي عنه أنه ذُبِحتْ شاة له في أهله، " فقال: أهديتم لجارنا اليهوديّ ؟قالوا: لا، قال: ابعثوا إليه منها، فإني سمعتُ رسولَ اللَّه - صلى الله عليه وسلم- يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه ". ([8]).

السلوك الحسن مع الأقرباء غير المسلمين:

إن السلوك الذي يتخذ المسلم مع قريبه المسلم بصفة القرابة،

---

[1] - أخرجه مسلم رقم ٢٣١٩، و الحميدي رقم ٨٠٢، والبخاري في "الأدب المفرد" رقم ٩٧.

[2] - أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي رقم ١٩٢٤، و هو حديث صحيح.

[3] - أخرجه أحمد رقم ١٣٨٧٥، و إسناده صحيح.

[4] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٣٣٨٩، ٩٥٣٦، و إسناده صحيح.

[5] - أخرجه الطبراني في " الكبير " رقم ٧٥١، و هو حديث صحيح.

[6] - أخرجه البخاري رقم ٦٠١٦، وفي "الأدب المفرد " رقم١٢١.

[7] - راجع: الألوسي، روح المعاني ٤ / ٤٧.

[8] - أخرجه أبوداود رقم ٥١٥٢، والترمذي (١٩٤٣)، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٠٥)، و هو حديث صحيح.

يتخذ نفسه مع قريبه غير المسلم، فقد قال القرآن الكريم عن الوالدين: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا). [٣١ / لقمان: ١٥]. فلا يميز في البر والصلة و السلوك الجميل و المعاملة الحسنة بين الوالدين، و إن كان الوالدان غير المسلمين. و قد أذن الإسلام في الزواج بالكتابيات، و لم يفرق في حقوق الزوجة المسلمة و الزوجة الكتابية. و إن كان الزواج بهن لا يخلو من الكراهة في الأوضاع الراهنة؛ لأنه قد يفضي إلى الحرمان من الإسلام و الإيمان؛ لأجل أن المسلمين يمرون بعهد العقلية المذعورة و النفسية الخائفة، و قلة الهمة في الحياة الثقافية. و أمر كذلك بالإحسان و صنع المروف و المعاملة الحسنة و السلوك الخلفي الجميل مع الأقرباء الآخرين من غير المسلمين، فقد ثبت عن عمر – رضي الله عنه – أنه قدم هدية إلى أخيه المشرك، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَأَى حُلَّةً سِيَرَاءَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اشْتَرَيْتَ هَذِهِ فَلَبِسْتَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلِلْوَفْدِ إِذَا قَدِمُوا عَلَيْكَ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهَا حُلَلٌ فَأَعْطَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْهَا حُلَّةً.فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَوْتَنِيهَا وَقَدْ قُلْتَ فِي حُلَّةِ عُطَارِدٍ مَا قُلْتَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، فَكَسَاهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَخًا لَهُ بِمَكَّةَ مُشْرِكًا ". ([١]). و يقول الإمام مجاهد: في العفو عن ديون الأقرباء المشركين أجر و مثوبة. و قد وزعت أم المؤمنين صفية – رضي الله تعالى عنها – بين أقربائها اليهود ثلاثين ألف درهم. ([٢]). فإذا لم يفرق الإسلام في مراعاة القرابات بين المسلمين و غير المسلمين، بل

[١] - أخرجه البخاري رقم ٨٨٦، و مسلم رقم ٢٠٦٨.

[٢] - راجع: الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠٩، بيروت، مؤسسة الرسالة.

جعلهم جميعا في درجة واحدة.

الإحسان الشامل و المعاملة الحسنة العامة:

وجه النبي – صلى الله عليه و سلم – كذلك إلى المعاملة الأخوية و اتخاذ الأخلاق الجميلة على الأسس الإنسانية مع غير المسلمين بالعموم، و إن لم يكونوا من الأقارب و الجيران، فقد قام – صلى الله عليه و سلم – بنفسه بعيادة شاب يهودي كان يخدمه، و عرض عليه الإسلام وقت حضوره الموت، فنظر الغلام إلى أبيه نظرة استفسار، و اعتنق الإسلام بإيعاز منه، فعن أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:"كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَمَرِضَ،فَأَتَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعُودُهُ،فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ:أَسْلِمْ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ:أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَسْلَمَ،فَخَرَجَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ". ([١]). و ثبت عنه – صلى الله عليه و سلم – عيادة المنافق، و حضوره في جنازة رأس المنافقين عَبْد اللَّهِ بْن أُبَيٍّ ابْن سَلُولَ. ([٢]). و قام بعيادة عمه الشفيق الرحيم المحسن الكافر أبي طالب، و عرض عليه الإسلام عند اقتراب أجله و احتضاره و دنو موته. ([٣]).

و قام بموجب الاحترام و التوقير الإنساني حين مر به جنازة يهودي، فقال الصحابة: هذه جنازة يهودي، فأجاب إجابة رائعة: أليس بإنسان؟، فقد " كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ:إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا". ([٤]). و عبر الخندق و جاوزه إلى

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ١٣٥٦.

[٢] - راجع: صحيح البخاري رقم ١٣٦٦، ٣ / ٣٥١، ط: ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

[٣] - المصدر السابق رقم ١٣٦٠، ٣ / ٣٤٢.

[٤] - أخرجه البخاري رقم ١٣١٢.

المسلمين بمناسبة " غزوة الخندق " جندي مشرك، و قتل بيد علي – رضي الله تعالى عنه -، و عرض كفارمكة قيمة الجثة للحصول عليها، و لكن رفض النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – ذلك العرض، وسلمها إليهم بدون عوض. ([1]). و قدم وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة، فأنزله – صلى الله عليه و سلم – بحفاوة بالغة في مسجده. ([2]). و ضافه شخص أسلم فيما بعد، و التهم كل ما في البيت، و اضطر – صلى الله عليه و سلم – و أهله للمجاعة، فلم يمتعض – صلى الله عليه و سلم – من ذلك شيئا. ([3]).

و كان من عادة اليهود أنهم لا يقصرون في إيذاء النبي – صلى الله عليه و سلم – و المسلمين بين آونة و أخرى، فكان يحتمل – صلى الله عليه و سلم – ذلك بالصبر و المثابرة، فقال يهودي لمسلم و هو يتحدث معه: بالله الذي فضل موسى على العالمين، فقال مسلم: على محمد – صلى الله عليه و سلم أيضا ؟فأجاب: نعم، فغضب المسلم على ذلك و لطمه، و مع أن المسلم كان على الصحة و الصواب بشأن هذا التنبيه؛ لأنه قد ثبت بالكتاب المقدس أيضا أن محمد – صلى الله عليه و سلم – أفضل الرسل أجمعين، و لكن وبخ – صلى الله عليه و سلم - صاحبه المسلم، و قال له: إن موسى – عليه السلام – لعله أول من يصحو يوم القيامة، فعن أبي سعيد الخدري قال:جاء رجلٌ من اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- قد لطم وجهه، وقال يا محمد:إن رجلاً من الأنصار من أصحابك لطم في وجهي، فقال:ادعوه فدعوه، قال:لم لطمت وجهه ؟قال يا رسول الله:إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، فقلت: وعلى محمد؟

---

[1] - راجع: المدخلي، مرويات غزوة الخندق،١ / ٣٠١، ط: ١، مكتبة المدينة الرقمية،١٤٢٤هـ، و المتقي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال رقم ٣٠١٠٦،ط: ٥، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

[2] - راجع: البيهقي، دلائل النبوة، رقم ٢١١٧، ٥ / ٣٨٢، بيروت، العلمية، ط: ١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

[3] - راجع: صحيح مسلم، رقم ٢٠٦٣ ،بيروت، دار الإحياء، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

فأخذتني غضبة، فلطمته،فقال:لا تخيروني من بين الأنبياء؛فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو جزي بصعقة الطور؟". ([1]). و دعته يهودية إلى الطعام، و دست فيه السم، و لكن صانه الله تعالى، و بالرغم أن الجريمة كانت جسيمة فادحة شنيعة، عفا عنها، غيرأن الصحابي الآخر لما توفي بسبب تسميم الطعام، اقتص منها، فعن جابر بن عبد الله يحدث أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية (هي المشوية بالصلاء أي النار) ثم أهدتها لرسول الله - صلى الله عليه و سلم - فأخذ رسول الله - صلى الله عليه و سلم -الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله - صلى الله عليه و سلم -:" ارفعوا أيديكم "، وأرسل رسول الله - صلى الله عليه و سلم إلى اليهودية، فدعاها، فقال لها: " أسممت هذه الشاة؟" قالت اليهودية: من أخبرك ؟قال: " أخبرتني هذه في يدي " للذراع، قالت:نعم،قال: " فما أردت إلى ذلك "؟قالت:قلت: إن كان نبيا فلن يضره،وإن لم يكن نبيا استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة ". ([2]). و في رواية أبي سلمة: " أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم- أهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية نحو حديث جابر، قال: فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري فأرسل إلى اليهودية " ما حملك على الذي صنعت ؟" فذكر نحو حديث جابر، فأمر بها رسول الله - صلى الله عليه و سلم – فقتلت". ([3]). وكان بعض اليهود لشقاوتهم يخاطبون النبي – صلى الله عليه و سلم – بـ"السام عليكم "، التي هي كلمة الدعاء عليه، فكان الصحابة يستشيطون

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٤٦٣٨، ٦٩١٧، و مسلم رقم ٢٣٧٤، و راجع: الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، رقم ١٧٥٨، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ط: ٢.

[2] - أخرجه أبوداود رقم ٤٥١٠، و هو حديث صحيح لغيره.

[3] - أخرجها أبوداود رقم ٤٥١١، و هذه رواية صحيحة.

غضبا، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – ما كان يبتعد عن دماثة الأخلاق وحسنها و نبلها في حال ما، و كان في الرد يكتفي بـ " و عليكم ". ([1]).

المساعدة المالية:

لم يهمل النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – غير المسلمين في باب دعم الفقراء و مساعدة المفلسين البائسين المعوزين المنكوبين، فقد وجه القرآن الكريم في أماكن شتى إلى المعاملة الحسنة مع الأسارى و الإنفاق عليهم، و لا يخفى أن هؤلاء الأسراء كانوا من غير المسلمين، و قد ثبت عن النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – نفسه التصدق على عائلة غير مسلمة. و من هنا ذهب الإمام أبوحنيفة و كثير من الفقهاء الآخرين إلى جواز إعطاء غير المسلمين من صدقة الفطر. ([2]). و كان بعض المشاهير من أهل العلم كأبي ميسرة، و عمرو بن ميمون، و عمرو بن شرحبيل يساعدون الرهبان النصارى بزكاة الفطر. ([3]).و رأى عمر – رضي الله عنه – يهوديا يتسول، فسأل عن السبب، فأجاب بقوله: إني أتكفف لأدفع الجزية و أقضي حاجاتي، فاصطحبه عمر – رضي الله عنه -، و أعانه من " بيت المال " إعانة كبيرة، و قال: ليس من الإنصاف أن نستفيد من كسبه في حالة الشباب، و نتركه يستجدي في الشيخوخة و كبر السن. ([4]). و يجوز كذلك إعانة الإخوة غير المسلمين بلحوم الأضاحي و الصدقات الأخرى غير الزكاة. ([5]).

---

[1] - راجع: صحيح البخاري رقم ٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٤٠١،و صحيح مسلم رقم ٢١٦٥.

[2] - راجع: الكاساني، بدائع الصنائع ٢ / ٧٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢.

[3] - راجع: عبد الله بن أحمد بن حنبل، مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله ص ١٧١، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

[4] - راجع: المتقي، كنز العمال رقم ١١٤٧٧، و أبا عبيد، كتاب الأموال رقم ١١٩، و حميد بن زنجويه، كتاب الأموال رقم ١٦٥، ١٧٩.

[5] - راجع: ابن قدامة، المغني ١١١/١١, ط: المكتبة التجارية, مكة المكرمة، و الهندية، كتاب الزكاة، الباب السابع في المصارف ١٨٨/١، ط: بولاق، مصر ١٣١٠هـ، و برهان الدين مازه، محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد البخاري المرغيناني (ت: ٦١٦هـ) " المحيط البرهاني " كتاب الأضحية، الفصل السادس الانتفاع بالأضحية ٥ / ٦٧٠، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

سلامة النفس و صيانة الحياة و حمايتها:

إن غير المسلمين الذين لا يحاربون المسلمين و لا يقصدون القتال والعراك معهم، لا تقل قيمة دمائهم و أنفسهم في نظر الإسلام من قيمة أنفس المسلمين، و قد أمر القرآن الكريم بالقصاص بدون التفريق بين الديانات، حيث قال سبحانه: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى). [٢ / البقرة: ١٧٨]. أي يقتل القاتل في مقابل المقتول، حتى تتهيأ أسباب حماية الإنسانية. و قال الله تعالى في موضع آخر: (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ). [٥ / المائدة: ٤٥]. أي تستحق نفس القاتل القتل بعوض إهلاكه النفس الإنسانية. و قتل مسلم شخصا غير مسلم، فأمر- صلى الله عليه و سلم - بقتله قصاصا، و قال: من وفى بعهده من غير المسلمين أنا أفي بعهده، فعن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قَتَلَ مُسْلِمًا بِمُعَاهَدٍ وَقَالَ:" أَنَا أَكْرَمُ مَنْ وَفَى بِذِمَّتِهِ ". ([1]). و قتل مسلم من قبيلة بكر بن وائل في عهد عمر – رضي الله عنه – شخصا غير مسلم من " الْحِيرَةَ ". فقال عمر – رضي الله تعالى عنه –: إن لم يرض أولياء المقتول فليقتل القاتل. ([2]). و حدث مثل هذه الحادثة في عهد خلافة علي – رضي الله تعالى عنه – فأمر بقتل مسلم قاتل. ([3]). و هذه محاسبة و مؤاخذة دنيوية، و لكن المسلم ينظر في كل شأن من شؤون الحياة بنظر الآخرة، و يقدره بالنظر إليها، و لذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم: من قتل ذميا أي شخصا عائشا في دار الإسلام بعقد الذمة لم يجد ريح الجنة الزكية، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا ". ([4]).

---

[1] - أخرجه الدارقطني رقم ٣٣٠٧، و البيهقي في الكبرى رقم ١٥٦٩٥، بإسناد فيه مقال.

[2] - راجع: السرخسي، المبسوط ٢٦ / ٢٣٩، ط: ١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

[3] - مسند الشافعي ٣٤٤/١

[4] - أخرجه البخاري رقم ٣١٦٦، ٦٩١٤.

و لا يخفى أن التفريق بين دم و دم مازال مستمرا، حتى في عصرنا الذي يمتاز بالجمهورية و الديموقراطية، ففي الهند إذا أهلك هندوسي في ولاية " بنجاب " أو " كاشمير " فقيمة دمه ألف مائة ربية هندية أو ألف مأتي ربية هندية، و إذا أهلك مسلم في الاضطرابات الطائفية، فقيمة دمه خمسون أو ستون ألف ربية هندية، فلم يفرق رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – مثل هذا االتفريق، بل وضع مبدأ و هو أن أهمية أنفس المسلمين و غير المسلمين مماثلة. و قَالَ عَلِىٌّ- رضى الله عنه -:"مَنْ كَانَتْ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدِمَائِنَا". ([1]). ودفع النبي – صلى الله عليه و سلم – دية غير مسلم مماثلة لدية المسلمين. فقد روى أسامة بن زيد – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه و سلم – وضع دية المعاهد كدية المسلم الحر، فعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَعَلَ دِيَةَ الْمُعَاهَدِ كَدِيَةِ الْمُسْلِمِ ". ([2]). و عن أبي هريرة – رضي الله عنه - قال: " كانت دية اليهودي والنصراني في زمن رسول الله – صلى الله عليه و سلم - مثل دية المسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان و علي". و روي مثل ذلك عن الزهري. ([3]). و يمكنك أن تقدر بذلك أهمية و قيمة النفس الإنسانية و الحياة الإنسانية في نظر الإسلام بدون التفريق بين الديانات.

صيانة الأموال و الممتلكات:

تحتل أموال غير المسلمين الحرمة و الأهمية نفسهما اللتين تحتلهما أموال المسلمين في نظر الإسلام و نبي الإسلام – صلى الله عليه و سلم -، فقد قال النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم -: " ألا لا تحلُّ أموال المُعاهَدِين إلا بحقِّها ". ([4]). و صدر هذا الكلام من النبي – صلى الله عليه و سلم – يوم خيبر

---

[1] - أخرجه الدارقطني رقم ٣٣٤٤، بإسناد فيه مقال.

[2] - أخرجه الدارقطني رقم ٣٣٣٦، بإسناد فيه مقال.

[3] - راجع: الحراني،كتاب الأوائل ص ١٤٨، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

[4] - أخرجه أبوداود رقم ٣٨٠٦، و إسناده حسن لغيره.

بعد الصلح الذي جرى بين المسلمين و اليهود، لما اعتدى بعض المتحمسين على أموال اليهود و أسرعوا إلى حظائرهم. و لا يفرق الإسلام كذلك في قطع يد السارق، سواء سرق من المسلمين أو غير المسلمين. و كان على ابن حدردٍ دين ليهودي فتقاضاه و اشتد عليه في التقاضي، و شكاه إلى النبي – صلى الله عليه و سلم – فأمره بقضاء الدين، فاعتذر ابن حدرد – رضي الله عنه -، و قال: ليس عندي إلا هذان الرداءان، و لكن لما قال له – صلى الله عليه وسلم – مؤكدا ثلاث مرات، ذهب إلى السوق، و اتخذ واحدا منه مئزرا، و باع رداءه الآخر وقضى دينه. و أراد النبي – صلى الله عليه و سلم – بهذا التأكيد توجيه المسلمين إلى عدم إهمال أمر ديون غير المسلمين.

تعتبر الشريعة بعض الأموال محرمة و غير متقومة كالخمر و الخنزير، فلو كانت الخمر أو الخنزير عند مسلم، و أتلفهما مسلم آخر فلَا يَضْمَنُ متلفهما، و لو كانتا لذمي عائش في بلاد المسلمين غير محرمتين في ديانته، و أتلفهما مسلم، فإنه يضمن قيمتهما. ([1]). و هذا يدل على أن الإسلام يولي عناية بالغة بحماية أموال المسلمين و غير المسلمين وحقوقهم المالية على حد سواء.

التسامح الديني:

تعتبر قضية موقف الاحترام مع الديانات الأخرى، و التسامح مع أربابها من أهم القضايا. و من البين الجلي أن الإسلام لا يسع في نظره قطعا أن يتم التعامل بالاستفادة و الأخذ و اللقاء بين الكفر والإيمان مع الأمم الأخرى في الشؤون الدينية، فلا يمكن لمسلم أن يقبل في باب عقيدته، و باب الأفعال الدينية، و الحضارة و الثقافة مثل هذه المساومة. و مثل هذه المعاملة لا تعتبر من باب التسامح، بل إنها مساومة على الضمير و الإيمان، و إنما المراد من

[1] - الكاساني، البدائع ٥ / ١١٣.

التسامح هو مراعاة العواطف الدينية للآخرين، و عدم التدخل في شؤونهم الدينية، و يمكن بهذا المعنى أن يقال: إن الإسلام وجه البشرية إلى غاية من التسامح الديني، و التحمل و الاحترام المتبادل، و علم طريقة العيش على أساس و مبدأ " التعايش السلمي، فقد أعلن القرآن الكريم بصفاء و وضوح بأنه يمنع الإكراه على الدين، حيث قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). [٢ / التوبة: ٢٥٦]. و خير مثال للتسامح الديني " الاتفاقية " التي قام – صلى الله عليه وسلم - بعقدها بين المسلمين و اليهود و المشركين بعد قدومه إلى " المدينة المنورة "، و التي يطلق عليها " ميثاق المدينة "، و التي بموجبها كان يتمتع كل الأطراف بالحرية التامة لاتباع دينها ([١]). و نهى القرآن الكريم عن سب الأصنام والأوثان و الآلهة التي يعبدها الأمم الأخرى. و جاء في الكتاب المجيد أيضا: أن الله تعالى أرسل إلى كل قوم نبيا هاديا، و نزل على كل قوم كلام الله تعالى بلسانه. و يدفع هذا الاعتقاد و التوجيه القرآني المسلمين إلى أن يقفوا موقف الاحترام و التوقير و التبجيل مع الأئمة و الهداة الدينيين و زعماء الإصلاح في العالم، و أن لا يصونوا ألسنتهم بشأنهم فحسب بل أذهانهم و مخيلتهم وخواطرهم و أفكارهم كذلك، فلا يستغرب أن الشخصيات التي تعبد اليوم أن تكونوا رسلا و أنبياء و حملة الدعوة إلى التوحيد.

و لقد اعترف الفقهاء بالنظر إلى هذه التعليمات النبوية – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم – بحق الإخوة غير المسلمين أن لهم الحرية في أن يتبعوا قوانينهم الدينية في أحوالهم و شؤونهم الشخصية و الاجتماعية إن عاشوا في بلد إسلامي كرعية. فقد كتب صاحب " الهداية " الفقيه الحنفي الشهير: إن كان المجوس يسع عندهم أن ينكحوا أمهاتهم أو أخواتهم، و نكح مجوسي محرما من المحارم، فلا يسع لدولة إسلامية أن تتدخل في قضايا

[١] - راجع: ابن هشام، سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٦ – ١٠٨، تحقيق: طه سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

حياته الشخصية. حتى إذا قام طرف بالمرافعة إلى محكمتنا، فلا نتدخل في مثل هذه الشؤون، إلا أن يترافع الطرفان إلى محكمتنا. ([1]).و من هنا تم الحفاظ في العهد الإسلامي و في مملكة سلاطين بلادنا على الأحوال الشخصية للأقليات العائشة في ظلها.

معابد غير المسلمين:

سلك رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – بشأن المعابد سلوك السماحة و سعة الصدر كذلك، فقد نهى عن قتل الشخصيات الدينية المرتبطة بالمعابد بمناسبة الغزوة. و كان أبو بكر يوصي أميره: "ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له..... ([2]). و أصدر عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – أوامر إلى ولاته، يرشد كل واحد منهم إلى أن لا يهدم بِيعَةً، وَلاَ كَنِيسَةً، وَلاَ بَيْتَ نَارٍ صُولِحُوا عَلَيْهِ ". ([3]). و لما قدم عمر – رضي الله عنه – إلى فلسطين بمناسبة فتح بيت المقدس، و صلى في كنيسة بإذن القائم بأمرها، بل برغبته، فتكرم على تلك الكنيسة بوثيقة خاصة حتى لا يحاول المسلمون لتحويلها إلى المسجد. ثم لم يصل بعد في الكنائس رغم رغبات قيميها، حتى لا يحاول المسلمون لتحويلها إلى المساجد بسبب صلاة أميرهم فيها. و لما بنى معاوية – رضي الله عنه - المسجد الجامع في "دمشق"، واجه قضية الكنيسة الصغيرة المتصلة به، فعرض على النصارى أن يمنحوها المسجد بأي ثمن طلبوه، حتى يوسع فناء المسجد، و لكنهم رفضوه. و عرض كذلك مروان في عهد حكمه، و لكن النصارى لم يقبلوا هذا الاقتراح، و حاول عبد الملك في عهد حكمه إرضاء النصارى،

---

[1] - راجع: المرغيناني، الهداية ١ / ٢١٩، المكتبة الإسلامية.

[2] - أخرجه مالك في "الموطأ" رقم ٩٦٥، والبيهقي في الكبرى رقم ١٧٩٢٧.

[3] - أخرجه ابن أبي شيبة رقم ٣٣٦٥٤.

ولكنهم أصروا على رأيهم، و لما كان عهد حكم عبدالله الوليد أمير المؤمنين بن عبد الملك ثار و غضب بسبب رفض النصارى، و أخذ المعول و بدأ يهدم الكنيسة، و ضمت أرضها إلى الجامع، و لما تولى عمر بن عبد العزيز الحكم و أداره حسب منهج الخلافة، و قام بتدارك المظالم و الاعتداءات و الاضطهدات و الظلامة، فالتمس منه نصارى دمشق كذلك إعادة الكنيسة؛ لأنها هدمت قهرا و جبرا، فكتب عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – إلى واليه على الشام أن يعيد ذلك الجزء الذي كان فيه الكنيسة إلى النصارى، حتى أقنع المسلمون إخوتهم النصارى بالتنازل عنه بصورة ما، فتم صيانة المسجد من الهدم. ([1]).

و قد بلغ من تسامح النبي – صلى الله عليه و سلم – الديني أنه سمح للوفد النصراني المكون من ستين عضوا بالصلاة حسب عقيدته في ناحية من المسجد النبوي – على صاحبه أفضل صلاة و تسليم -، الذي حضر إليه – صلى الله عليه و سلم – برئاسة الأسقف أبي الحارث اليمني الحبر الكبير من النصارى، فصلوا حسب دينهم. ([2]).

و لقد بين الفقهاء أحكام التسامح الديني و الحرية الدينية لغير المسلمين بالنظر إلى تعليمات و توجيهات رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – و قدوة الخلفاء الراشدين و الأمثلة الفعلية في حياتهم. و لم يروا جواز أن يصلي المسلمون في الأرض المغصوبة، أو يبنوا المسجد فيها. ([3]). ولذا يعتبر قول من يقولون عن المسلمين بأنهم استولوا على معابد غير المسلمين و احتلوها بالجبر و الإكراه، و بنوا عليها المساجد من سوء الفهم

---

[1] - راجع: عبد القادر الدمشقي (ت: ٩٢٧ هـ)، الدارس في تاريخ المدارس ٢ /٢٩٠، ط: ١، بيروت، العلمية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، و أبا القاسم الشافعي (ت: ٥٧١٢ هـ)، تاريخ مدينة دمشق ٢ / ٢٥٤، ٢٧٣ بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥ م.

[2] - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة رقم ٢١١٧، و راجع: ابن القيم، زاد المعاد ٣ / ٦٣٧، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ – ١٩٨٦م.

[3] - راجع: ابن عابدين، رد المحتار ١ / ٣٨١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

و التصريحات الخاطئة.

الجهاد محاولة لإيقاف الظلم و إنهائه:

يعتبر تصور الجهاد في الإسلام قضية يشك لأجلها كثير من الناس في موقف الإسلام مع غير المسلمين، و تنشر الدعاية بكل قوة على نطاق واسع باسمه ضد الإسلام، و قد جعله وسائل الإعلام في الوقت الحاضر في معنى "الإرهاب" و الغارة و السلب و النهب. و لكن الحقيقة بالعكس من ذلك، فالجهاد ليس ظلما، بل هو محاولة لإيقاف الظلم، و عبارة عن بذل الجهد لنزع السيف و السلاح من أيدي الظالمين. و الواقع أن الموضع الذي لا يؤثر فيه سلاح الأخلاق و النصح و الموعظة، يلزم هناك اللجوء إلى الحرب، فإن فلسفة عدم القتل و عدم العنف لا تنفع في كل مكان. ولقد تصاعد اتجاه الانفصال في الوقت الحاضر في الولايات المختلفة لبلادنا، كما تتعرض حدود بلادنا للمخاطر من قبل الدول و الأقطار المختلفة المجاورة الشقيقة، فهل يمكن لمواطن مخلص محب للبلد أن يسمح في الأوضاع الراهنة للدولة بأن تهمل التجهيزات الدفاعية، و لا تستعد للرد على هجمات الأعداء. و مما لا شك فيه أن الأمم التي تصف نفسها بحملة لواء الحضارة و المدنية و الحقوق الإنسانية اليوم، هي التي تقوم بتجارة كبيرة للأسلحة المهلكة المدمرة، و لقد حرمت عداوتها و تهديداتها و تدميراتها للإنسانية في نصف القرن الماضي ملايين من الأبرياء من الحياة.

اليهود و الحرب:

السؤال الذي يطرح نفسه هو أن الحرب هل كانت محظورة تماما في ديانة ما من ديانات العالم ؟و الجواب: لا، فنجد تصورا قاسيا ضاريا جدا للحرب عند اليهود، ففي الأناجيل: " إذا جاوزتم " اليرون " و دخلتم في أرض الكنعان، فاطردوا كل من هو من سكانها من بين أيديكم، و حطموا تماثيلهم

و اكسروا أصنامهم المنحوتة، و اهدموا مساكنهم و منازلهم الرفيعة، وأخرجوا سكانها الأصليين، و اسكنوا أنتم فيها ". ([١]).

و وزعت الأناجيل غير الإسرائيليين في جزئين من ناحية الحرب. ١ – المنطقة التي ورثها الله تعالى إسرائيل حسب العقيدة اليهودية. و من القانون الحربي المتعلق بهذه المنطقة أن يقتل الرجال و النساء المتزوجات، و تتخذ العذارى جوار. ٢ – المنطقة التي ليست تراثا لبني إسرائيل، و من القانون الحربي المتعلق بها أن يهلك الرجال و النساء و الأطفال حتى الحيوانات.

المسيحية و الحرب:

يرى النصارى أن ديانتهم ليست ديانة حرب و قتال، و إن كانت الأمم المسيحية في الوقت الحاضر هي المسؤولة في الحقيقة عن التدمير و التهديم و التخريب و الإهلاك في العالم كله، و لكن كيف يقول النصارى هذا ؟و قد تم الترغيب إلى الحرب بكل قوة في " التوراة " في مواضع شتى، و قال المسيح – عليه و على نبينا السلام -: " لا تظن أني جئت لنسخ التوراة أو كتب الأنبياء، بل الواقع أني ما جئت لنسخها و لكن جئت لإتمامها ". ([٢]).

بل توجد إشارات في كلام المسيح – عليه السلام – إلى الجهاد، فقد قال: " لا تحسبوا أني جئت لإيجاد الصلح و المسالمة و التفاهم، فما جئت للمصالحة بل جئت للمهاجمة و المضاربة بالسيوف ". ([٣]). و قد نصح المسيح – عليه السلام – أتباعه بمناسبة بأن يشتروا السيوف ببيع الملابس ". ([٤]).

و إن كان – عليه السلام – لم يعش في هذه الدنيا إلا ثلاث سنين بعد البعثة و الإكرام بالنبوة، ثم رفع إلى السماء، و لذا لم يجد فرصة الجهاد

---

[١] - الاستثناء ٣٣ / ٥٠ – ٥٤.
[٢] - متى ٥/ ٧، لوقا: ١٦ / ١٧.
[٣] - متى ١٠ / ٣٤ – ٣٦.
[٤] - لوقا ٢٢ / ٣٦.

بسبب قصر مدة دعوته و قلة عدد أتباعه.

الديانة الهندوسية و الحرب:

تعتبر الهندوسية نفسها ديانة اللا عنف، بحيث لا يباح فيها قتل أحد، فقد كان "غاندي" من زعماء الهندوسية يجعله أكبر ميزة للديانة الهندوسية، و لكن تاريخ الهندوسية مليء بالحروب، فـ "رامائن" (الكتاب المقدس لدى الهندوس) يحكي أحوال "راما"، و أخبار الحرب الطاحنة بين "راما" و بين "راون". و "غيتا" الذي يحتل مكانة عظيمة من القداسة لدى إخواننا الهندوس، - و الذي كان يطلق عليه "غاندي" بنفسه لقب أمه -، ليس إلا حكاية للحرب التي جرت بين "الكورويين" و "الباندبين"، و لا يخفى أن "كورو" و "باندو" فرعان من أسرة واحدة، تحاربا لأجل الحصول على السلطة، و حين رأى "أرجن" الرئيس الأعظم للباندبين أقربائه للمبارزة أخذ قلبه يضيق و يشعر بالملل، و أراد التنازل عن الحرب، فطعن عليه "كرشنا" (الذي يعتبره الهندوس الشخص الذي حل فيه الإله)، و حرضه على الحرب، و خطب خطبة طويلة على فلسفة الحرب، مفادها أن الشخص يولد مرة ثانية بعد موته بالتناسخ، فلا حرج في قتل البشر. و قال: الجسم للروح بمثابة الثوب، فكأن القتل ليس إلا إلباسا للباس الجديد بتمزيق اللباس القديم، فمن البين أن هذا ليس من السيئات. و قال "كرشنا" أيضا: إذا كان كل إنسان يموت يوما، فما القبح في قتله؟ و قال أيضا: "إذا حصل المرء على عرفان الحق، فيتساوى له الحسنة و السيئة، و يباح له جميع الأعمال و الأفعال.

فكيف يصح الادعاء في ضوء التعاليم المتقدمة بأن الديانة الهندوسية تخلو من تصور الحرب. وتتوفر الأدعية و الأحكام في كتب " الويد " غير " رامائن " و " غيتا " التي تحرض على القتال، و تعبر عن أماني الانتصار. وبهذه المناسبة يجدر بي أن أكتفي بنقل مقتطف موجزاً: " يا " إندر" (يا إله)

ائت بالثروة التي تسر، ثروة الانتصار للظافر المنتصر التي تنصرنا نصرا مؤزرا، و التي نستطيع بها أن نطرد أعدائنا وقت المبارزة و الحرب القائمة ". ([1]).

تصور الجهاد في الإسلام:

لا بد لنا أن نلقي النظر على ثلاثة أمور لنفهم تصور الجهاد في الإسلام، و هي كما يلي:

الأول: ما هي غاية الجهاد؟و الثاني:مع من يسمح بالجهاد؟ و الثالث: ما هي الأصول و المبادئ والآداب للجهاد التي وضعها رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم؟

فليعلم أن الجهاد في الإسلام لا يرمي إلى الاستيلاء على البلاد و احتلال الأقطار، و تذليل الأمم الأخرى و قهرها، بل إنما يرمي إلى تغليب دين الله و صيانته، حيث يقول الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ). [٤ / النساء: ٧٦]. و من غاية الجهاد أيضا تخليص المضطهدين المظلومين من الظلم و الجور، و الأخذ على أيدي الظالمين و منعهم عما يريدون أن يفعلوه، حيث يقول سبحانه: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا). [٢٢ / الحج: ٣٩]. فليس الجهاد عبارة عن الظلم و العنف و الإرهاب، بل هو آخر وسيلة لمنع الظلم و تبعيد الإرهابيين عن إهلاك البشرية، و التدمير و التخريب، و لذا قال القرآن مخاطبا للمسلمين: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ). [٤ / النساء: ٧٥]. فلا مجال لمقارنة الجهاد الذي جاء به رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – مع الحروب الأخرى. و الحروب التي تشتعل نيرانها اليوم في العالم لا ترمي إلى غاية صحيحة مشروعة، بل إنها لاتهدف إلا إلى الاستيلاء على بلاد الأمم الأخرى وأجهزتها و وسائلها و إمكانياتها. و تقود هذه الحرب

[1] - رك ويد ١/ ٢، ١ / ٨.

المروعة اللامعقولة (Irrational) أوربا (Europe). وهل الحربان العالميتان العظيمتان اللتان ارتكب فيهما نهابو و مهاجمو (Assailants) أوربا الوحشية والضراوة أكثر من الوحوش و السباع، أدتا إلى انقلاب يجدي البشرية شيئا من النفع ؟و لكن جهاد رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – أنهك قوى الظالمين في ذلك العهد، و أنشأ انقلابا صالحا اضطر إلى الاعتراف بتأثيره ونفعه الأشخاص الذين لم يسلموا كذلك.

المعاملة مع الأقلية غير المسلمة:

ثم الجهاد في الإسلام لا يرمي إلى ضرب رقبة كل من يبدو من غير المسلمين، بل وزع الفقهاء في ضوء تعليمات و توجيهات الكتاب و السنة، غير المسلمين إلى ثلاث طبقات: الذميين ، و المعاهدين، و الحربيين.

فالذمي يطلق على كل من هو غير مسلم، و لكن يعيش في بلد إسلامي، و قد يحسب بعض الناس أن في إطلاق كلمة " الذميين " عليهم تذليلا و تحقيرا لهم، مع أن الأمر بالعكس من ذلك، فكلمة " الذمة " تطلق في اللغة العربية على " العهد "، فالذمي هو الشخص الذي تعاهد مع المسلمين للتعايش السلمي و قضاء الحياة فيما بينهم بطريقة سلمية، و مراعاة حقوق بعضهم بعضا، فكأن إطلاق الذميين على أولئك الأشخاص يذكر المسلمين بالمسؤوليات التي تعود عليهم بشأنهم، فالغاية من ذلك أن يعتني المسلمون بحفظهم و حمايتهم و سلامة أنفسهم و مراعاة حقوقهم الكاملة. فالذمييون يتمتعون في البلاد الإسلامية بحفظ النفس و المال و العرض و الكرامة و كافة الحقوق الإنسانية التي يتمتع بها المسلمون.

و لا شك أن الإسلام يفرض عليهم ضريبة دفاعية باسم " الجزية "، وليس المقصد من ذلك تذليلهم و تحقيرهم و إهانتهم و الإساءة إليهم كذلك، بل الهدف منه تهيئة أسباب حمايتهم. فقد أوصى عمر – رضي الله تعالى عنه

– عند احتضاره، الخليفة الذي يأتي بعده: " أُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُوفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لاَ يُكَلَّفُوا إِلاَّ طَاقَتَهُمْ ". ([1]).

حقيقة " الجزية ":

لقد بذلت جهود جبارة لإنشاء سوء الفهم العديد بشأن الجزية، بل أثيرت عاصفة من الفهم الخاطئ و سوء الفهم و سوء الظن حولها. و لا يغيبن عن البال بهذا الخصوص شيئان: الأول: أن الإسلام حمل المسلمين واجبات و مسؤوليات مالية مختلفة، و من أهمها: الزكاة و العشر، و قرر العشر على المحاصيل الزراعية، و فرضت الزكاة على الذهب و الفضة و غيرهما من أوعية الزكاة، ثم جعلت الشريعة هذه الواجبات المالية في درجة العبادة في حق المسلمين، لكيلا يعتبروها منة على خليقة الله تعالى، بل يعتقدوا بأنهم قدموا هداياهم إلى الله تعالى. فكان هناك وجهان محتملان: الأول: أن لا يفرض أية ضريبة على الإخوة غير المسلمين، و من الطبيعي أن هذا أمر صعب؛ لأنه يؤدي إلى تعذر إدارة الدولة، و لأن الحكومة قد تقع في الصعوبات بشأن سد الحاجات المالية بسبب حرمانها من مساعدة جزء كبير من الرعية.

و الوجه الثاني: أن يفرض الزكاة و العشر على الرعايا غير المسلمة كذلك، و هذا يفضي إلى إكراههم على العمل الإسلامي و العبادة، و هو ينافي مقتضيات (Requirements) الحرية الدينية، و لذا سلك الإسلام مسلكا ثالثا: و هو أن تفرض عليهم ضريبة مستقلة غير دينية باسم " الجزية " و " الخراج "، فالجزية ليست عبارة عن الظلم و العنف الديني (Religious violence)، بل هي دليل على الحرية الدينية، و على الابتعاد عن الإكراه و الضغط في الأمور و

---

[1] - أخرجه ابن أبي شيبة رقم ٣٨٢١٤،و البيهقي في الكبرى رقم ١٦٣٥٦، و ابن حبان في صحيحه رقم ٦٩١٧.

الشؤون الدينية.

مقدار الجزية:

ثم تدبر- أيها القارئ -: ما أيسر مقدارا للجزية ؟فعلى الشخص الذي يقل دخله، يفرض اثناعشر درهما سنويا، و على الذي يتوسط دخله يفرض أربعة و عشرون درهما في السنة، و على الأغنياء الذين يكثر دخلهم يفرض ثمانية و أربعون درهما، و لا يخفى أن اثني عشر درهما عبارة عن ثلاث تولجات بشيء من النقصان، و بالسعر الحالي يساوي اثنا عشر درهما: ٢٧٥ ربية هندية (Indian Rupees) تقريبا. فليفكر كل منا بنفسه، هل يعتبر عدوانا أن تأخذ دولة مثل هذا التعويض التافه في طول السنة على حماية و سلامة (Safety) مواطنها و توفير الأمن (Security) له ؟و الواقع أن حكومتنا الهندية الحالية إن دبرت و نظمت لحماية المسلمين، و قبلت الضمان بوقايتهم و سلامتهم، بأخذ مثل هذا المبلغ (Amount)، نعرب عن شكرنا و امتناننا لها. فهذه هي حقيقة الجزية التي أثار العاصفة باسمها الإعلام الغربي (Western media)، وعنونها بالظلم و الجور، و العنف و عدم التسامح (Intolerance) لتشويه سمعة الإسلام.

المعاهدون غير المسلمين:

القسم الثاني من غير المسلمين يطلق عليهم لقب" المعاهدين "، أي: غير المسلمين الذين هم مواطنون لبلد غير إسلامي، بينه و بين المسلمين اتفاقية الأمن و السلام و التعايش السلمي. فهؤلاء الحلفاء و المعاهدون في حكم الذميين كذلك، يجب مراعاة حرمة أنفسهم و أموالهم و أعراضهم، كما تجب رعاية حرمة أنفس المسلمين و أموالهم و أعراضهم، و لا يجوز خرق و انتهاك المعاهدة التي تمت بينهم و بين المسلمين.

رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم– و القوانين الحربية الحضارية:

لم يسمح الإسلام بسل السيف و رفع السلاح إلا على من أصبحوا مغيرين ضد الإسلام و مدمرين للبشرية. ثم الإسلام لعله هو أول دين منح العالم قوانين و آدابا حربية حضارية أخلاقية في التاريخ البشري، و أكد النبي – صلى الله عليه و سلم – لجنوده تأكيدا بالغا على التقيد بتلك الأصول و المبادئ و الآداب، فقد أمر – صلى الله عليه و سلم – بأن لا يجعل الشيوخ المسنون و الأطفال و النساء أهدافا أثناء الحرب، فعن نافع أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَخْبَرَهُ أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ". ([١]). و عنه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ". ([٢]). و جاء في رواية أن النبي – صلى الله عليه و سلم – نهى عن قتل الأجراء كذلك، فعن رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ، فَبَعَثَ رَجُلاً، فَقَالَ: انْظُرْ عَلاَمَ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ ؟فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ. فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلاً. فَقَالَ: قُلْ لِخَالِدٍ: "لاَ يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ عَسِيفًا". ([٣]). و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أَنَّ رسولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم -كانَ إذا بعثَ جيشا قال:"انطلقوا باسمِ اللهِ، لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طِفلا صغيرا، ولا امْرأة، ولا تَغُلُّوا، وضمُّوا غَنائمَكم، وأَصلِحُوا وأحْسِنُوا، إن اللَّهَ يُحِبُّ المحْسِنِينَ ". ([٤]). ولا يقتل راهب

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٣٠١٤، و مسلم رقم ١٧٤٤.

[٢] - أخرجه البخاري رقم ٣٠١٤.

[٣] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦٦٩، و الروياني في مسنده رقم ١٤٨٩، و إسناده حسن.

[٤] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦١٤، و البيهقي في الكبرى رقم ١٧٩٣٢، و ابن أبي شيبة رقم ٣٣١١٨، و إسناده حسن.

ولا خدام الكنيسة (Church) و لا من يتصل بها في نظر الإسلام، فقد أوصى أبوبكر يزيد بن أبي سفيان أحد قواده إلى الشام، فقال: " إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له.... وقال: " إني موصيك بعشر لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن ". ([١]). و بَعَثَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حنين، وكانوا بأسفل مكة من ناحية يلملم، فقتل رجالا منهم، فوداهم – صلى الله عليه و سلم – بيد علي – رضي الله تعالى عنه -. ([٢]).

و كان من عادته – صلى الله عليه و سلم – أنه لا يتحين غفلة قوم للهجوم عليهم، بل كان إذا أراد الغزو ينتظر الصباح. فعن أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهَا لَيْلًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَوْمًا بِلَيْلٍ لَا يُغِيرُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ ". ([٣]). و كان ينهى عن جدع أنوف المقتولين أو قطع آذانهم أو غيرهما من الأعضاء، وتشويه خلقهم، فعن الهياج بن عمران أن عمران أبق له غلام فجعل لله عليه لئن قدر عليه ليقطعن يده، فأرسلني لأسأل له: فأتيت سمرة بن جندب فسألته فقال: كان رسول- الله صلى الله عليه و سلم- يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة ". ([٤]). و نهى عن قتل الصبر كذلك، فعن أبي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ – رضي الله تعالى عنه – قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم- يَنْهَى عَنْ قَتْلِ الصَّبْرِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ

---

[١] - أخرجه مالك في الموطأ رقم ٩٦٥.

[٢] - أخرجه البخاري رقم ٤٣٣٩،٧١٨٩، و أحمد رقم ٦٣٨٢، و راجع: فتح الباري ٨ / ٥٧ – ٥٨، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

[٣] - أخرجه البخاري رقم٢٩٤٥.

[٤] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦٦٧، و هو حديث صحيح.

مَا صَبَرْتُهَا ". ([1]). و القتل صبرا: أن يحبس شخصا حتى يموت، أو يقتله مشدودا. و أعلن النبي – صلى الله عليه و سلم – بمناسبة فتح مكة: أن لا يهجم على جريح، و لا يتعقب فار، و لا يقتل أسير، فقد نَادَى مُنَادِيهِ "أَلَا لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَتَّبِعُنَّ مُدْبِرًا، وَلَا تَقْتُلُنَّ أَسِيرًا، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ". ([2]). و نهى عن إحراق الناس، و قال: لا يستحق التعذيب بالنار إلا رب النار، فعن حمزة بن عمرو الأسلمى – رضي الله تعالى عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: "إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا فَاقْتُلُوهُ وَلاَ تُحْرِقُوهُ، فَإِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ ". ([3]). و هذا يدل على أنه لا يجوز في نظر الإسلام استخدام الأسلحة النارية (Firearms) و الأسلحة النووية (Nuclear weapons) و المتفجرات (Explosives) إلا في حالة ضرورة ماسة ملحة؛ لأن المدنيين (Civilians) الأبرياء السلميين الذين ليس لهم علاقة بالحرب، يتعرضون لها كذلك مع الجنود.

و مما يسود بمناسبة الحرب هو النهب و السلب و التخاطف، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – نهى عنه كذلك، فلما لم يصبر بعض المتحمسين بمناسبة غزوة خيبر رغم أن تم الصلح، و اقتحموا بيوت اليهود، و ضربوا النساء، و أكلوا بعض الفواكه (fruits)، و علم به النبي – صلى الله عليه و سلم – فغضب على ذلك، و قال: لا يحل لكم بتاتا الدخول عنوة في بيوت أهل الكتاب، و ارتكاب مثل هذه الأمور، فعن خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَالَ غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- خَيْبَرَ فَأَتَتِ الْيَهُودُ فَشَكَوْا أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْرَعُوا إِلَى حَظَائِرِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-:" أَلاَ لاَ تَحِلُّ

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦٨٧، و أحمد رقم ٢٣٥٩٠، وسعيد بن منصور رقم٢٦٦٧، و هو حديث صحيح لغيره.

[2] - راجع: ابن زنجويه، الأموال رقم ٤٥٠، ١/ ٢٩٣، مركز فيصل للبحوث، تحقيق: شاكر ذيب فياض.

[3] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦٧٣، وسعيد بن منصور في "سننه" (٢٦٤٣)، والطبراني في "الكبير" (٢٩٩٠)، و هو حديث صحيح.

أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ إِلاَّ بِحَقِّهَا ". ([1]). و نهب الجنود بمناسبة غزوة أغناما , و ذبحوها و بدأوا طبخها، فسخط النبي – صلى الله عليه و سلم – على ذلك سخطا عظيما، و أمر بقلب و كفأ القدور، فعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِذِي الْحُلَيْفَةِ فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ فَأَصَابُوا إِبِلًا وَغَنَمًا، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أُخْرَيَاتِ الْقَوْمِ، فَعَجِلُوا وَذَبَحُوا وَنَصَبُوا الْقُدُورَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ ". ([2]). و استنكر القرآن الكريم على أن يتم إهلاك الحرث والزرع من قبل المهاجمين على قوم، و جعله من عادة المفسدين (Spoilers)، حيث قال تعالى: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ). [٢ / البقرة: ٢٠٥].

و قد بين النبي – صلى الله عليه و سلم – أخلاقيات و آداب تحرك الجنود و سيرهم و انطلاقهم، و نهى عن إحداث الضجيج و الصخب و الضجة، و أن يسيروا و ينزلوا بمكان بحيث لا يشعر المسافرون بالأذى، و منع بشدة عن إلحاق الضرر بالمارة و تخويفهم و تهديدهم، و نبه على أن جهاد هؤلاء غير مقبول، فعن سهل بن معاذ الجهني - رحمه الله - عن أبيه قال: "غزوتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضيَّق الناسُ المنازلَ، وقطعوا الطريق، فبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مُناديا يُنادي في الناس: من ضَيَّق منزلا أو قطع طريقا فلا جِهادَ له ". ([3]).

و قام بمراعاة تامة لأخلاقيات و آداب دبلوماسية (Diplomatic)، فقد

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٣٨٠٦، و أحمد الشيباني في " الآحاد و المثاني " رقم ٧٠٣،و الطبراني في الكبير رقم ٣٨٢٧، بإسناد فيه مقال.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٢٤٨٨، ٢٥٠٧، ٣٠٧٥،٥٤٩٨، و مسلم رقم ١٩٦٨.

[3] - أخرجه أبوداود رقم ٢٦٢٩،و سعيد بن منصور في سننه رقم ٢٤٦٨، و الطحاوي في " شرح مشكل الآثار " رقم ٤٥، و أبويعلى في مسنده رقم ١٤٨٣، و أحمد في مسنده رقم ١٥٦٤٨، و إسناده حسن.

حضر سفيران مسيلمة الكذاب عبادة بن الحارث و الآخر و تظاهرا بالوقاحة و سوء الأدب و قلة الاحترام، فقال لهما النبي – صلى الله عليه و سلم - لو لم تكونا سفيرين لضربت أعناقكما، فعن سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمِ بن مسعود الأشجعي -رحمه الله -: عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم يقول - حين قرأكتابَ مُسَيْلمة - للِرُّسُلِ: "ماتقولان أنتما ؟قالا: نقولُ كما قال، قال: "أمَا واللهِ لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضَرَبْتُ أعناقَكُما ". ([1]). و جاء أبورافع – رضي الله عنه – سفيرا لأهل مكة، ووفق للإيمان و سعد به، و لم يرض بالعودة إلى مكة، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – أرجعه بإصرار إلى مكة، حتى لا ينافي الأصول الدبلوماسية، فعنه – رضي الله تعالى عنه - قَالَ: بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: "إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ، فَارْجِعْ ". ([2]).

ولا يخفى أن القوانين الحربية يقوم دعامتها في الوقت الحاضر على مؤتمر " هيغ " (Hague) المنعقد في ١٨٩٩م، و لكن الواقع أن النبي العربي – صلى الله عليه و سلم – هو الذي منح العالم أولا أخلاقيات الحرب و آدابها الرفيعة، و لقنه درس احترام الإنسانية، و ما نسمع من صوت متعلق بقانون الحرب في الشرق و الغرب، و الذي ينتهكه أكثر ما ينتهكه الأمم الراقية بنفسها، ليس هو إلا صدى لتعاليمه – صلى الله عليه و سلم -. و ما أحسن ما قال الشاعر الأردي " حالي ": الربيع الذي حل في العالم الآن، ليس إلا من غرسه – صلى الله عليه و سلم - الذي غرسه.

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٢٧٦١، و الطحاوي في " شرح معاني الآثار " رقم ٥٤٤٩، و في " شرح مشكل الآثار " ٢٨٦٣، و أحمد رقم ١٥٩٨٩، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه أبو داود رقم ٢٧٥٨، و النسائي في الكبرى رقم٨٦٧٤، و أحمد رقم ٢٣٨٥٧،و ابن حبان في صحيحه رقم ٤٨٧٧، و هو حديث صحيح.

موقف السماحة مع المفتوحين:

الأحكام التي تكلمنا عنها هي تتعلق بمعاملة الجنود المسلمين مع الأعداء في حالة الحرب، و لكن إن منحهم الله تعالى انتصارا على الأعداء (Enemies)، فقد وجههم النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – إلى السلوك الكريم معهم، و التزام الصفح و العفو، و خير مثال بهذا الصدد هو قصة فتح مكة، فقد كان عشرة آلاف من المغامرين المخلصين طوع إشارته، و الناس الذين لم يدخروا الوسع و لم يألوا جهدا في إيذاء النبي – صلى الله عليه و سلم –، و الذين طرحوا الأشواك في طريقه – صلى الله عليه و سلم -، و ألقوا الكروش على ظهره، و حاولوا خنقه و عصر حلقه، و وضعوا خراطة (خرقة) في رقبته – صلى الله عليه و سلم -، و دبروا لقتله، و قاطعوه و قاطعوا أسرته، و حرموا أطفال بني هاشم حتى عن حبة و لقمة، و تسببوا في تطليق بنته، و شقوا بطن عمه الحبيب و قلبه، و جروا الضعفاء من المسلمين على الرمال الحامية، و أضجعوهم على جمرات ملتهبة، و بذلوا كل جهودهم و مساعيهم الفاشلة لتدمير مستوطنة صغيرة (المدينة) للمسلمين، و فيهم أبوسفيان الذي قاد الحرب ضد المسلمين دائما، و فيهم هند بنت عتبة التي أكلت كبد عمه – صلى الله عليه و سلم -، و فيهم عكرمة ابن أبي جهل ألد أعداء الإسلام و لاعب لدور فرعون، الذين لم يخضعوا للإسلام حتى وقت فتح مكة، هم واقفون أمامه سامدين مبهوتين متحيرين مشدوهين حيارى.

و لكنه – صلى الله عليه و سلم – لم ينتقم اليوم من هؤلاء جميعا، و لما سألهم – صلى الله عليه و سلم -: أي سلوك ترجونه مني ؟فقالوا فورا بدون تفكير و روية: نرجو سلوك أخ كريم مع أخ كريم، و ابن عم مع عمه،فأنت أخ كريم و ابن أخ كريم، فأعلن النبي – صلى الله عليه و سلم – بهذه المناسبة بالأمن العام، و قال: لا لوم عليكم، فعن أبي

هريرة – رضي الله عنه – قال: إن النبي – صلى الله عليه و سلم - أَتَى الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيِ الْبَابِ فَقَالَ:مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟, فَقَالُوا: نَقُولُ: أَخٌ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ , فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَقُولُ:كَمَا قَالَ يُوسُفُ:(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ). [١٢ / يوسف: ٩٢]. ([1]). و لم يقتصر على العفو فحسب، بل راعى حرمتهم و كرامتهم و شرفهم كذلك، فقد كان أبو سفيان سيد قريش، فقال عنه: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ". ([2]). و وفق الله تعالى عكرمة للإيمان، فرحب به قائما ترحيبا حارا بسعة الصدر، و قال للصحابة أيضا: لا تشتموا أبا جهل؛ لأنه ليس بمناسب أن يصاب ابن مسلم بالأذى (Hurt) بسبب أب كافر. و مثل هذا قاله – صلى الله عليه و سلم – حين تشرفت دُرَّة بِنْت أَبِي لَهَبٍ بالإسلام. ([3]).

تقلب صفحات التأريخ الإنساني و تصفح كل كتاب يتصل به، هل ترى في وقت من الأوقات أن سحابة الرحمة مع طبل الحرب أظلت مثل هذا الإظلال؟

سلوكه – صلى الله عليه و سلم – مع أسراء الحرب:

كانت طبقة أسارى الحرب أشد اضطهادا قبل الإسلام، بل بعد الإسلام كذلك، و كانت " روما " (Rome) و فارس (Persia) و العرب أنفسهم يستعبدون الأسراء، و كانوا يتخذون معهم سلوكا أسوأ و أشنع من الحيوانات. و أسست في " أوربا " (Europe) ملاعب (Stadiums) كبيرة و خاصة لهذا

---

[1] - أخرجه النسائي في الكبرى رقم ١١٢٩٨، و الطحاوي في شرح معاني الآثار رقم ٥٤٥٤، و البيهقي في " دلائل النبوة " رقم ١٧٨٥.

[2] - أخرجه مسلم رقم ١٧٨٠.

[3] - راجع: أحمد الشيباني، الآحاد والمثاني ٥ / ٣٣٠، رقم ٣١٦٥، ط: ١، الرياض، دار الراية، ١٤١١ – ١٩٩١.

الغرض، و كان يجري فيها لعب خاص باسم " سيافي "، يتم فيه المباراة بين العبيد و الوحوش (Wild beasts)، و المشاهدون كانوا يتفرجون على موت العبد في المباراة. و لكن رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – أثبت مثالا لا نظير له للمعاملة الجميلة مع الأسارى، فقد أطلق سراح ستة آلاف أسير أخذوا في غزوة " حنين " بدون أخذ شيء. و أسر في غزوة بدر سبعون من كفار مكة، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – ودعهم بتكريم بالغ، فقد وفر لهم حللا جديدة (New suits)، و قد كان وزعهم على الصحابة – رضي الله تعالى عنهم -، و الصحابة بلغ من شأنهم أنهم جاعوا، و لكنهم أطعموهم، و حاولوا أن لا يصيبهم أي نوع من أنواع الأذى. فهذا أبو عزيز بن عمير -وهو ممن أسر في بدر، وهو أخو مصعب بن عمير- يقول: "كنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم، أكلوا التمر وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله - صلى الله عليه و سلم - إياهم بنا". ([1]).

فتدبر هذه الرحمة على البشرية والمعاملة الجميلة مع الأسراء التي سلكها رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – من ناحية، و انظر من ناحية أخرى إلى كرم أوربا و شفقتها على البشرية، فقد أمر " نابليون بونابارت" بقتل أربعة آلاف أسير تركي؛ لأنه كان يعتبر تنظيم الطعام و الشراب لهم ثقلا و حملا.

عدد قتلى غزوات النبي –صلى الله عليه و سلم– و مقارنته مع حروب الأمم الأخرى:

إن تصور الجهاد الذي قدمه – صلى الله عليه و سلم – سيبقى إيضاحه ناقصا غير تام، و محتاجا إلى مزيد من البحث، إن لم نقم بتوضيح أن الانقلاب العظيم الفريد الذي أقامه – صلى الله عليه و سلم – بجهاده

[1] - راجع: ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٩٥، بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ.

وغزواته، ما أقل فيه الخسائر في الأرواح، فعدد جميع غزواته و سراياه اثنان و ثمانون، استشهد فيه من المسلمين مائتا و تسعة و خمسون (٢٥٩) شخصا، و قتل من الكفار سبعمائة و تسعة و خمسون (٧٥٩) شخصا، فعدد مجموع الهلكى بلغ إلى ألف و ثمانية عشر (١٠١٨)، فكأن معدل القتلى في كل حرب مرتفع قليلا من أحد عشر (١١).

و قارن ذلك مع الخسائر البشرية التي تمت في الأمم الأخرى، فقد هلك ملايين في حرب " مهابهارت " وحدها، حسب التأريخ الهندوسي، و بلغ عدد القتلى الذين أعدموا بحكم المحاكم الدينية في عهد ازدهار نظام الكنيسة اثني عشر مليونا، منهم ثلاثمائة ألف و أربعون ألفا ينتمون إلى "أسبانيا" (Spain) ، و فيهم اثنان و ثلاثون أحرقوا و هم أحياء بسوء حظهم، وكان صدور أوامر الإحراق حيا من المحاكم المسيحية عاما، و لعل الزعماء الدينيين المسيحيين كانوا يتلذذون به تلذذا خاصا. و لما احتل النصارى بيت المقدس، قتلوا سبعين ألف مسلم، بدون تفريق بين الرجال و النساء، و الشيوخ و الأطفال، و المقاتلين و غير المقاتلين. و قد حكى المؤرخون النصارى بأنفسهم أنه كان يتراءى في كل ناحية من نواحي بيت المقدس، أ رجل مقطوعة و أعضاء إنسانية مبتورة، و أحرقوا اليهود معا في مذبحهم المقدس، و لكن لما تمت سيطرة المسلمين مرة ثانية على بيت المقدس، أعلن السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي بالعفو العام، و بما أن النصارى لم يرضوا بالمعايشة مع اليهود، و لذا فصل مستوطنهم عن مستوطن اليهود ([1]).

و بلغ كذلك عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى حسب تقدير دقيق إلى سبعة ملايين و أربعمائة ألف.

[1] - راجع: العليمي الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٣٣٠ – ٣٣٢، عمان، مكتبة دنديس، هـ - ١٩٩٩م، و الذهبي، تاريخ الإسلام ٤١ / ٢٤ – ٢٥، بيروت، دار الكتاب العربي، ط: ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

فتدبر – أيها القارئ -، كم مزق الإنسانية، و كيف و بأي طريق دمرها، الناس الذين يدعون الحضارة و المدنية، و يعتبرون أنفسهم حملة لواء الإنسانية، و الأدهى من ذلك أنهم كتبوا بحروف جلية لستر عيوبهم قصص الدماء في تاريخ المسلمين: "تبدو رائحة الدم من قصص هذه الأمة ".

غفلتنا و تقصيرنا و إهمالنا:

هذه الإيضاحات تدلنا قطعا على حقيقة الدعاية التي تنشر بدوام في العالم كله ضد تصور الجهاد في الإسلام، و جهاد رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم -. و مما يؤسف له بأننا عجزنا بسبب غفلتنا و تقصيرنا عن تقديم صورة حقيقية للإسلام، و جوانب نيرة من سيرة رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم – المحتوية على الرأفة و الرحمة و العطف على البشرية، و الشفقة على خلق الله تعالى، و لم نحاول تجلية الغبار الذي ألصق بسيرته الزكية الطاهرة.

و من أعاجيب التاريخ أن النبي الذي لقب بـ " رحمة للعالمين "، والذي نزل عليه أول آية محتوية على العلم و القراءة، و الذي نادى من جبل " الصفا " بالتوحيد النقي الخالص، و الذي خر ساجدا متضرعا إلى الله تعالى في معركة بدر، بدلا من أن يأخذ السيف بيده، و الذي دخل في مكة بمناسبة فتحها متواضعا متذللا ومتخاشعا مطرقا رأسه حتى كان جبينه الطاهر النقي يلصق مرارا بسنام الناقة، و الذي ودع أسراء بدر الذين كانوا في طليعة المخرجين له من بيته و مدينته الحبيبة، بتكريم بالغ لابسين حللا (suits) جديدة، و الذي لم ير من المناسب بعد فتح مكة أن ينظر نظرة غضب على الأعداء الألداء السفاحين المتعطشين إلى دمه – صلى الله عليه و سلم -، و أعلن بعفو عام، أن يقدم في صورة شخصية تقسو على مخالفيه قساوة بالغة، و لم يقترب من التسامح

أبدا، و أن يصنع تمثاله [1] على منوال يبدو فيه كأنه رجل في طبيعته تطرف، و هوآخذ بيده السيف. هذه كذبة عظيمة، ولعل التاريخ البشري يخلو من كذبة أكبر منها. و الذنب يعود بهذا الشأن إلينا كذلك؛ لأننا لم نحاول لتقديم صورة صحيحة صادقة للإسلام محاولة جادة إيجابية مستمرة. و لا شك أننا نعقد حفلات تقليدية بصفة دائمة و بطريقة بديعة، و ليس لنا نظير في إقامة مواكب و عقد المؤتمرات، و لكن ما حاولنا الوصول إلى إخواننا غير المسلمين، و الجيل الجديد من أمتنا، الذي درس و فهم الإسلام و رسوله – صلى الله عليه و سلم – في كتب المستشرقين، و لذا أصبحت أذهانهم بشأن الإسلام و سيرة النبي – صلى الله عليه و سلم – الزكية الطاهرة حائرة و سيئة الظن للغاية. فليتنا نتوجه إلى هذا العمل الهام و نعيره اهتماما، و نقدم صورة صحيحة صادقة للإسلام و رسول الإسلام إلى العالم.

▼ ▼ ▼

[1] - إشارة إلى التماثيل التي صنعتها المحكمة العليا بأمريكا (Supreme Court of America) للمقننين المشاهير في العالم، و أقيم تمثاله – صلى الله عليه و سلم – على منوال يبدو فيه آخذا السيف بيده، و مع تحريم التمثال، تدل هيئته هذه على النفسية الغربية و عصبيتها ضد الإسلام.

الأسئلة و الأجوبة

تقديم العزاء إلى غير المسلمين:

السؤال الأول: ما حكم تقديم العزاء إلى غير المسلمين إذا مات واحد منهم، و إن كان تقديم خالص العزاء مباحا، فما هي طريقته؟

الجواب: يصح أن نشاطر غير المسلمين الفرح، كما يصح أن نشارك في أحزانهم و همومهم بسبب القرابة الإنسانية و الاجتماعية (Humanitarian and social relationship)، بل يعتبر ذلك أفضل لكي يرسخ في أذهانهم سعة صدر المسلمين و دماثة أخلاقهم و نبلهم، فلا مانع من تقديم العزاء إلى غير المسلمين. و الفرق بين عزاء المسلمين و غيرهم، أن المتوفى يدعى له بالمغفرة إذا كان مسلما، و لا يدعى له بالمغفرة إذا كان من غير المسلمين، بل إنما يعبرالمعزي لذوي الميت غير المسلم عن حبه و مودته وصلته. و كتب أهل العلم كلمات العزاء بالنسبة لغير المسلم، و هي: " أصلح الله بالك و أخلفك ".

الحضور في جنازة غير المسلمين:

السؤال الثاني: هل يجوز الحضور في جنازة غير المسلمين أم لا يجوز؟ و قد يضطر المسلمون في بعض الأحيان إلى الخروج إلى المراسيم النهائية للهندوس، فما حكمه ؟

الجواب: لا يجوز حتما الاستغفار لغير المسلمين أو إيصال الثواب إليهم، و لا يسع ذلك بتاتا لمسلم أن يفعله، و لا يحسن الحضور بدون ذلك أيضا فيها، غير أن المسلم إن أحس بأن غيابه بمناسبة مخصوصة في موضع ما يؤثر في علاقة المسلمين بغيرهم، و خشي أن تمتد الفجوة فيما بين المسلمين و غير المسلمين، فيسعه أن يذهب إليها بنية مؤاساة

ذوي الميت و تعزيتهم و تسليتهم؛ لأن النبي – صلى الله عليه و سلم – أمر عليا – رضي الله تعالى عنه – بالقيام بمسؤولية دفن أبي طالب بعد وفاته، فعن علي قال: لما توفي أبو طالب أتيت النبي فقلت: إن عمك الشيخ قد مات قال: اذهب فواره،ولا تحدث شيئا حتى تأتيني قال: فواريته ثم أتيته فقال: اذهب فاغتسل ولا تحدث شيئا حتى تأتيني،قال: فاغتسلت ثم أتيته،فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حمر النعم أوسودها قال: وكان علي إذا غسل ميتا اغتسل ". ([1]).

إعطاء الزكاة لغير المسلمين و التصدق عليهم:

السؤال الثالث: هل يجوز إعطاء غير المسلمين من أموال الزكاة وهل يباح التصدق عليهم ؟

لا يصح إعطاء الزكاة إلا للمسلمين؛ لأن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: تؤخذ الزكاة من أغنياء المسلمين و تؤتى لفقراءهم، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعَثَ مُعَاذًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ.....: "فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ". ([2]). غير أن الإمام أبا حنيفة – رحمه الله – يرى أنه يجوز صرف الصدقات الواجبة بما فيها صدقة الفطر إلى غير المسلمين، أما الصدقات النافلة فيجوز إعطاءها لغير المسلمين عند جميع الفقهاء.

حكم حلاوى العبادة الهندوسية:

السؤال الرابع: يعطينا بعض أصدقائنا من غير المسلمين الحلاوى المقدمة إلى المعبد الهندوكي، لنشاطرهم فرحهم، فهل يجوز أكل هذه

---

[1] - أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم ٤٢٤، و الطبراني في الأوسط رقم ٦٣٢٢، و البزار (٥٩٢)، و أحمد رقم ٨٠٧، ١٠٧٤، و إسناده لا بأس به، و ضعفه شعيب الأرناؤوط في تخريجه على المسند.

[2] - أخرجه البخاري رقم ١٣٩٥، ٧٣٧٢، و مسلم رقم ١٩.

الحلاوى المقدمة إلى المعبد الهندوسي؟

الجواب: يجوز قبول الهدايا المقدمة من قبل غير المسلمين، التي لا صلة لها بالأعياد و الطقوس الدينية، كأن يقدموا الحلاوى أو الهدايا بمناسبة الزواج، أو ولادة الأولاد، أو وقت الفرح، و يجوز أكلها كذلك. و لكن الحلاوى التي قدمت إلى الأصنام و الأوثان، و يطلق عليها فيما يغلب على الظن " حلاوى العبادة الهندوسية "، لا يجوز أكلها، و إن لم تكن من الذبائح، و لكن السبب الذي لأجله حرم القرآن الكريم ما ذبح على النصب أو ما ذبح باسم الأصنام هو: أنه تم بها تعظيم الشرك، و هذا السبب موجود في الحلاوى و القرابين والنذور المقدمة إلى الأصنام و الأوثان و التماثيل.

مأدبة غير المسلمين:

السؤال الخامس: إن دعا غير المسلم أحدا إلى المأدبة، و قدم الطعام أو الحلوى، و لا يعرف بيقين أنه طعام أو حلوى مما قدم للعبادة الهندوسية، و لكن ينشأ الشك بشأنه، فهل يجوز الحضور في مثل هذه الدعوة؟

الجواب: إن لم يعرف أن هذا الطعام أو الحلوى مما تم عليه العبادة الهندوسية، و لم تقم قرينة صريحة تثبت الظن، ففي مثل هذه الحالة يصح الحضور في الدعوة؛ لأن مبنى الأحكام في الشريعة الإسلامية على اليقين أو غلبة الظن التي تقترب من اليقين، و لا يتخذ الحكم في القضايا العامة بمجرد الظن، و إنما العبرة بغلبة الظن؛ لأن الشبهات بدرجة بسيطة موجودة في كل مكان، و قد قبل النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – و الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – دعوة غير المسلمين، و أكلوا الطعام بدون تجسس.

الحضور في أعياد غير المسلمين:

السؤال السادس: يحضر بعض غير المسلمين في أعياد المسلمين، فهل يجوز للمسلمين أن يحضروا في أعيادهم و طقوسهم؟

الجواب: تتأصل جذور الأعياد الدينية في العقيدة و النظريات الدينية، و لاتخلو طقوس غير المسلمين من تصور و أفكار شركية بوجه من الوجوه، و لذا لا يجوز الحضور فيها، ثم فيه التشبه بالأمم غير المسلمة، و لقد استأذن المسلمون الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلم – في الاحتفال بحلول فصل الربيع وانصرامه بطريقة الإيرانيين (أي: النيروز و المهرجان، و النيروز: عيد رأس السنة الفارسية ويصادف أول فصل الربيع.والمهرجان: عيد فارسي أيضا، و يصادف أول الخريف)، ولكنه – صلى الله عليه و سلم – لم يأذن به، و نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن الصلاة وقت طلوع الشمس و غروبها و استوائها؛ لأن ذلك الوقت وقت خاص للعبادة في الأمة التي تعبد الشمس و في الأمم الأخرى كذلك، فعن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " لَا تُصَلُّوا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَيَسْجُدُ لَهَا كُلُّ كَافِرٍ، وَلَا عِنْدَ غُرُوبِهَا؛ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَيَسْجُدُ لَهَا كُلُّ كَافِرٍ وَلَا نِصْفَ النَّهَارِ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَ سَجْرِ جَهَنَّمَ ". ([١]). فإذا لم يحتمل الإسلام التشبه بأعياد غير المسلمين، و أوقات عبادتهم، فكيف يجوز الحضور في أعيادهم؟

و قد يعتبره بعض الناس من باب التسامح الديني (Religious tolerance)، و لكن هذا نشأ من قصور الفهم؛ لأن التسامح لا يعني المساومة على الدين، بل هو من قلة الغيرة، و إنما التسامح أن يحتمل الآخرين و يستمر على سياسة عدم التدخل في الشؤون الدينية للأمم الأخرى، مع الثبات على عقيدته و الصمود على دينه.

دعوة غير المسلمين:

السؤال السابع: هل يجوز دعوة غير المسلمين إلى بيوت المسلمين، و هل

---

[١] - أخرجه أبو يعلى كما في "إتحاف الخيرة" للبوصيري (١٢٧٢)، والطبراني في "الكبير" (٨١٠٥)، و (٨١٠٧)، و أحمد رقم ٢٢٢٤٥، و هو حديث صحيح.

يصح تنقلهم و اختلافهم إليها؟

الجواب: لا تجوز دعوة غير المسلمين فحسب، بل تعتبر أفضل، إن نوى أن ذلك يؤنسهم بالإسلام، و إن لم يعتنقوا به، فيلين موقفهم مع الإسلام و المسلمين على الأقل . ولما أمر الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلم – بلفت انتباه أقربائه الأقربين إلى الإسلام، بقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). [٢٦ / الشعراء: ٢١٤] جمع – صلى الله عليه وسلم – بني هاشم و نظم لهم الطعام. و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن دعوة غير المسلمين بنية حسنة من السنة النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم -.

أما اختلاف غير المسلمين إلى بيوت المسلمين، فإن لم يخش منه الضرر الديني و الدنيوي ، و تمت مراعاة الحدود الشرعية، فيسع ذلك.

إعطاء غير المسلمين التمر و ماء " زمزم ":

السؤال الثامن: ما حكم إعطاء إخواننا غير المسلمين التمر و ماء "زمزم"؟

فإن بعض غير المسلمين يطلبون ذلك، و يأخذونه ويأكلونه بحب و ثقة روحية.

الجواب: ماء " زمزم " ماء مبارك، و تمور الحرمين الشريفين مباركة بسبب علاقتها بهما، و لكنهما من المطعومات و المشروبات (Kinds of food and drinks). وإن الضيوف من غير المسلمين الذين كانوا يقدمون على النبي – صلى الله عليه و سلم – في المدينة، كان يطعمهم من تمورها، فليس هناك دليل يدل على عدم جوازه.

و أرى أن ينوي المقدم وقت تقديم التمور و ماء " زمزم " و يتمنى و يدعو الله تعالى بأن يشرح صدر الأخ غير المسلم هذا للإيمان ببركة هذه الأشياء المباركة. و بما أنه قد ثبت بالحديث الصحيح أن في ماء " زمزم " شفاء، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله - صلى الله

عليه و سلم -: ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته تستشفي به شفاك الله، و إن شربته مستعيذا به شفاك الله، و إن شربته مستعيذا عاذك الله، و إن شربته ليقطع ظمأك قطعه ". ([1])، و لا مرض روحي أشد و أخطر من الكفر يستشفى منه، و لذا ينبغي للمعطي أن يدعو له بالشفاء الروحي. فأنا أرجو أنه يستحق المزيد من الأجر بهذه النية و الرغبة.

الذهاب إلى الكنيسة (Church) بدعوة من صديق مسيحي:

السؤال التاسع: هل يباح أن يذهب إلى الكنيسة (Church) بدعوة من صديق مسيحي، كفرحه بولادة الولد ؟

الجواب: لا يجوز الدخول في معابد غير المسلمين بقصد احترام شعائر الكفر، أو لم ينو ذلك، و لكن المناسبة مناسبة طقوسهم الدينية و نحو ذلك، التي يدخل فيها الناس للعبادة و تعظيم غير الله تعالى. غير أنه يسع أن يذهب لمشاهدة المبنى أو لزيارة أحد، أو لحاجة مثلها، فقد ثبت أنه دخل عمر – رضي الله تعالى – في بعض كنائس بيت المقدس، و صلى فيها. و ورد في بعض الروايات أن أم سلمة و أم حبيبة – رضي الله تعالى عنهما – قصتا على النبي – صلى الله عليه و سلم – أحوال بعض الكنائس في الحبشة، فعن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا –قَالَتْ: لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا: "مَارِيَةُ "،وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَتَتَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ،فَقَالَ: أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ ". ([2]). وهذا يدل على رؤيتهما المنظر الداخلي للكنيسة، و بالتالي حكايتهما إياه للنبي – صلى الله عليه و سلم -.

---

[1] - أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ١٧٣٩، و أحمد عَنْ جَابِرٍ رقم ١٤٨٤٩مختصرا، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه البخاري رقم ١٣٤١.

إن وجه الاعتراض على الأذان من قبل غير المسلم:

السؤال العاشر: يعترض بعض غير المسلمين على الأذان، فهل يحق لنا أن نعترض على ترنيمتهم الدينية ؟

الجواب: هذا بلد ديموقراطي (Democratic country)، و تمت لنا الاتفاقية (Agreement) مع فئات دينية مختلفة (Various religious groups) في ضوء الدستور الهندي على أننا نعايش فيما بيننا بالأمن والسلام متمسكين بأدياننا. و لذا يعتبر المنهج الأصح الأفضل أن لا يعترض غير المسلمين على الأذان، و لا المسلمون يعارضون الترنيمة الدينية للهندوس، بل يعمل كلتا الفئتين بمنهجهما، و تستخدمان التسامح و الحلم و ضبط النفس بالنسبة للطرف الآخر. و مع ذلك فالمعول بهذا الشأن على القانون البلدي إلى حد كبير، فليجتنب كلا الطرفين من استخدام مكبر الصوت (Loudspeaker) إن حظر عليهما استعماله من حيث القانون، و ليتخذا خطوة مناسبة في نطاق القانون. وعلى كل، فينبغي لنا أن نتشبث بالحكمة و المصلحة و التدبر و التعقل في مثل هذه القضايا؛ لأن الابتعاد عنه يجرنا إلى أضرار أكثر من النفع.

لن يكون الكفار أولياء للمسلمين:

السؤال الحادي عشر: ما معنى قول الله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ). [٣ / آل عمران: ٢٨]. فإنه يدل على أن الكفار لن يكونوا أولياء للمسلمين؟

الجواب: يعني القرآن الكريم بذلك أن الكافر من حيث الديانة لن يكون صديقا حقيقيا و ناصحا مخلصا. أما الصداقة الشخصية بين المسلمين و غير المسلمين بعضهم مع بعض فيمكن أن تتم؛ لأن مناطها ومعولها على الانسجام بين الطبيعة، و التوافق بين المصالح الاقتصادية

أو الاجتماعية، و وحدة اللغة و المنطقة، و لكن مبادئ الإيمان و الكفر المختلفة التي تحول بين المسلم و غير المسلم لتحول دون صداقة بعض مع بعض على المستوى الديني و الفكري. و لذا ينبغي للمسلمين أن يجتنبوا الاقتراب الأكبر من غير المسلمين من الناحية الاعتقادية والحضارية، و إلا فيخشى عليهم الضرر. و من هنا فرق أهل العلم بين المواساة و الموالاة، فالمعاملة الجميلة مع غير المسلمين هي " المواساة "، وهي مطلوبة في الشريعة، و أما العلاقة القوية مع غير المسلمين بحيث يتأثر بهم المرء، فإنها تسمى " الموالاة "، و هي لا تجوز.

الجهاد في الدول الغربية:

السؤال الثاني عشر: يتظاهر أهل الغرب بالصداقة من حيث الظاهر، و لكنهم شركاء في الباطن في كل مؤامرة تحاك ضد المسلمين، فهل يجوز الجهاد معهم؟

الجواب: يعتمد نظام الحكم في معظم دول العالم في الوقت الحاضر على الجمهورية و الديموقراطية، و في النظام الديموقراطي يعتبر غير المسلمين المعايشين مع المسلمين " معاهدين "، أي: عقدنا معهم الاتفاقية للمكث و السكنى في البلد على أساس التعايش السلمي، و لا يجوز الجهاد مع المعاهدين مبدئيا، إلا أن يقوم هؤلاء بإلغاء " الاتفاقية " دستوريا. و يجدر بنا أن نتدبر في هذا الموضع: كم كان المنافقون يدبرون الدسائس ضد المسلمين، و لكن مؤامراتهم كانت من وراء الستار، و لذا اختار النبي – صلى الله عليه و سلم – دائما طريق الحلم و ضبط النفس و السلوك الحسن معهم. و لم تكن مؤامرات اليهود قليلة كذلك، و مع ذلك لم يزل يحتمل النبي – صلى الله عليه و سلم – دسائسهم إلى مدة مديدة، حتى وقفوا ضد المسلمين جهرا و علنا، و نقضوا العهد، ففي ذلك

الوقت هجم عليهم. ثم للجهاد شروط كثيرة أخرى كذلك. و أرى أن تلك الشروط لا تتحقق في تلك البلاد.

متى يجوز الجهاد؟

السؤال الثالث عشر: إذا كان لا يقع ظلم على المسلمين في بلد ما، و لكن لا يسمح بالدعوة إلى الإسلام، و تقام العوائق و العقبات و تحدث العراقيل في طريق نشر الإسلام، فهل يجوز الجهاد معهم في ذلك الوقت؟

الجواب: أولا أرى أن مثل هذا البلد غير موجود في خريطة العالم في الوقت الحاضر فيما يغلب على الظن، و خاصة بعد تمزق " الاتحاد السوفيتي "، فليس هناك بلد حظر فيه على تغيير الديانة، و أغلقت الأبواب أمام الدعوة إلى الإسلام.

ثانيا: ما الجهاد في الواقع إلا تتمة للدعوة، فإذا دعي قوم إلى الإسلام، و تمت الحجة عليه، و مع ذلك لم يؤمن، و استمر في موقف الحقد و المعاندة مع الإسلام، فيسع الجهاد معه، و لكن ليست في العالم اليوم منطقة حاول فيها المسلمون إيصال الدين إلى الإخوة غير المسلمين محاولة جادة، فإذا لم تتم مرحلة الدعوة، فكيف يبرر الجهاد الهجومي معهم؟

إبادة اليهود بعد غزوة الخندق:

السؤال الرابع عشر: وقعت المجزرة في اليهود بعد غزوة الخندق، فكيف نقنع المعترضين بهذا الصدد؟

الجواب: قتل أربعمائة رجل قدير على المحاربة زهاء بعد غزوة الخندق، و ما قتل غير المحتلمين و النساء، فليس هذا إبادة. و يجب علينا أن نراعي بعض الأمور بهذا الشأن.

أولا: نقض اليهود العهد بمناسبة غزوة الخندق علنا، و برهنوا على

غدرهم و عدم مروءتهم، و كانوا مستعدين استعدادا تاما بالانضمام إلى كفار مكة أن يدمروا المدينة تدميرا لايبقى معه فيها مسلم حيا، و لم يدخروا لأجل ذلك ما في وسعهم و لم يألوا أي جهد، و من الطبيعي أن الذين صرفوا كل قواهم لقمع المسلمين و استئصالهم من وجه الأرض، كان قتلهم على وجه الدفاع موافقا للعدل.

ثانيا: لم يحكم – صلى الله عليه و سلم – بقتل اليهود، و لم يرض اليهود بأنفسهم بأن يحكموه – صلى الله عليه و سلم -، بل حكموا سعد بن معاذ، و قتلوا بقضاء حكمهم، فلا تحمل مسؤوليته الإسلام أو رسوله – صلى الله عليه و سلم -.

ثالثا: لم يحكم سعد بن معاذ بهذا القضاء برأيه أو بإشارة منه – صلى الله عليه و سلم -، بل إنما قضى وفق قانون الحرب في التوراة نفسها، فكان هذا تطبيقا لقانونهم عليهم، فلا يقال بحال إن هذا خلاف العدل.

إعطاء غير المسلمين من لحوم الأضاحي:

السؤال الخامس عشر: ما حكم إعطاء غير المسلمين من لحوم الأضاحي؟

الجواب: يجوز إعطاء غير المسلمين من لحوم الأضاحي، و أرى أن مثل هذا السلوك يستحسن و يستحب في الأوضاع الراهنة؛ لأن ذلك يقلل الغربة و البعد بينهم و بين المسلمين، و يؤنسهم، و به يشعرون بأن المسلمين يتمتعون دينيا برحابة الصدر و المودة و الرخاء، حيث يشركون في أفراحهم الإخوة غير المسلمين، و لا ينسونهم.

▼ ▼ ▼

الخطبة الثالثة:

رسول الإسلام –صلى الله عليه و سلم– و النساء

ألقيت في ٥ / من ذي الحجة عام ١٤١٧ هـ
الموافق ١٣/ من أبريل سنة ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد شتت الغرب شمل النظام الاجتماعي (Social system) بالثورة على قانون الفطرة، و من هنا يكاد نظام الأسرة فيه أن ينتهي، و يكاد أن يحرم الإنسان من نسبه. حتى وصل الأمر إلى حد أنه يكتب اسم " الأم " بدلا عن اسم " الأب " للهوية (Identification) في الدول الغربية. و هذا وضع مخز معير يندى له جبين الإنسانية، و لعل الشيطان أيضا يستحي برؤية هؤلاء الإنسان، و لو كانت الحيوانات تنطق لعيرت الإنسان فيما يغلب على الظن.

و لقد أضر انهيار نظام الأسرة بالنساء أكثر، فقد دفعهن ذلك إلى الخروج من البيوت لاكتساب المعاش، و القيام بالكد و الكدح، و إنجاز أعمالهن، و أداء واجبات و مسؤوليات الرجال كذلك، و صيرورتهن أداة لبيع أشياء التجارة في المتاجر، و القيام بأعمال المحلات التجارية و المكاتب و النوادي و الفنادق بالتضحية بأنوثتهن. و مما يؤسف له أن النساء لعلهن لم يكن مضطهدات بمثل هذا الاضطهاد في الجاهلية و عهد الانحطاط الحضاري، الذي واجهنه في عهد الحضارة الغربية باسم الحرية.

أهمية موضوع النساء:

يعتبر موضوع " النساء " في الوقت الحاضر هاما للغاية، فقد أصبح هذا الموضوع موضوع حديث و نقاش في العالم كله، و هو يحتل مرتبة الأساس في النظام الاجتماعي، و قد قال الشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال – رحمه الله تعالى -: " تزدان صورة الكون و تتلون بوجود النساء ".

فلم تلون اليوم قضية حقوق المرأة و واجباتها صورة الكون المادي فحسب، بل لونت صورة كون العلم و الفكر كذلك. أما حياة رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – فهي بأكملها سحابة مطر الرحمة، و أنت تعرف –

أيها القارئ - أن الغيم و الريح لا أسرة لهما و لا لغة و لا وطن، و السحابة بنبعها الفياض تمطر على صالح و طالح، و أسود و أبيض، و الشرقيين و الغربيين، و من أية أسرة كانوا، و بأية لغة كانوا ينطقون بها و يعبرون عن آرائهم و أفكارهم.

و هذا هو حال الرحمة العامة التي بعث بها النبي – صلى الله عليه و سلم -، فقد وجدت جميع طبقات البشرية ملجأ في ظلها الوارف، و لم يرجع أحد من مجلس عدله – صلى الله عليه و سلم - خائبا و خاسرا. و لكن الطبقة التي كانت أشد اضطهادا و هضما لحقوقها هما طبقتان: طبقة النساء و طبقة العبيد و الجواري، و لذا سلك النبي – صلى الله عليه و سلم – معهما سلوك كرم خاص و رعاية مخصوصة. و سنتحدث عن العبيد فيما بعد. و لكن الآن يجدر بي أن أذكر تعاليمه و أسوته و قدوته بشأن النساء. و مما يكفي للشهادة لمعاملته – صلى الله عليه و سلم – الجميلة مع النساء أنهن كن يعتبرن أبواب الذنوب و وسائل العار و السبة و العيب و الوصمة، فأعزهن الإسلام و كرمهن و أحلهن محل إكرام و احترام، حيث نسبت سورة مستقلة إليهن في الصحيفة المقدسة: " القرآن الكريم "، و سميت بسورة النساء، مع أن سورة ما لا توجد في القرآن باسم " الرجال " تنسب إلى طبقة الذكور، و سميت سورة أخرى في القرآن باسم امرأة عفيفة خيرة، و هي " مريم ". و يمكن لنا أن نقدر بهذا مدى احترام و تكريم هذه الطبقة في نظر الإسلام و رسوله – صلى الله عليه و سلم -.

المرأة في الديانة الهندوسية:

لإدراك المعاملة الجميلة التي قام بها رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – مع النساء، لا بد لنا أن نرجع إلى الماضي، و لنشاهد الوضع الذي كانت النساء فيه في المجتمع البشري.

و من هذه الناحية حين نطالع التاريخ نجد أنه لا بد للابن أن يقوم بمراسيم و تقاليد دينية لنجاة الوالدين في الديانة الهندوكية، و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن النساء يعتبرن أحط شأنا و منزلة من ناحية الدين و الحظوة عند الله تعالى. و في الديانة الهندوسية يشجع على حياة العزوبة، و تعتبر الحياة المثالية أن ينكح الرجل إذا بلغ زهاء خمسين سنة من عمره، و لا حق للمرأة في الميراث لا في ميراث الأب و لا الزوج، و ليس فيها تصور للطلاق، و بما أن الرجل و المرأة ما كانا يعتبران طرفين في العقد، بل كان الرجل مالكا، و المرأة مملوكة، و لذا سد جميع طرق الانفصال و الرجوع و التخلص بعد الزواج تماما، و مع أن بعض المفكرين من الهندوس اليوم يعترضون على إباحة تعدد الزواج في الإسلام، و لكن أثبت " مالك راما " أن الديانة الهندوسية تبيح تعدد الزوجات، بل فوق ذلك جاء في " مهابهارتا " ذكر عدة أزواج للمرأة الهندوسية الشهيرة " دروفدي " في وقت واحد، و من الطبيعي أن ذلك تذليل للمرأة و تحقير لها و إساءة إليها.

و من الممكن أن لا يكون في الديانة الهندوسية أمر بـ " ستي " (إحراق الزوجة نفسها مع جثة الزوج بعد موته)، و لكن المرأة بما كانت تعتبر ملكا للزوج، فقد تسرب إلى الحضارة الهندوسية فكرة " ستي "، و بدأت الزوجات يحرقن و هن حيات مع جثمان الأزواج؛ لأنهن من أملاك الأزواج التي لا بد أن تنتقل من هذه الدنيا معهم.

و في الحقيقة ينبغي لإخواننا الهندوس أن يشكروا الحكام المسلمين بهذا الشأن أنهم بالرغم من أن اتخذوا سياسة عدم التدخل في الأمور الدينية، و عملوا بها كليا، و لكنهم رأوا إنهاء هذا التقليد الجائر حتما، و بذلك هيأوا أسباب الحفاظ على الجيل الهندوسي.

و حسب القانون الهندوسي تواجه النساء الأيامى صعوبات و مشاكل رئيسية؛ لأنهن لا يؤذن لهن بالزواج الثاني. فلنتدبر أن المرأة الشابة توفي زوجها و خلف أولادا، كم تصبح حياتها ثقلا و عبئا، و كيف تحمل على كواهلها الضعيفة حمل الأولاد؟ و قد أوجد حله بعض المفكرين من الهندوس في صورة " نيوك "، فما " نيوك " ؟، فقد سلط عليه الضوء الكامل الكاهن الهندوسي " ديانند سرسوتي " في كتابه: " ستيارته بركاش "، و ذكر مصادره في الكتب الدينية الهندوسية. و حسب ذلك التفصيل يعني " نيوك " أن تتصل المرأة جنسيا (Sexually) بحموها أو رجل أجنبي. و يجوز للمحصنات من النساء كذلك إذا كن محرومات من الأولاد أن يعملن بهذا العمل بإذن من الأزواج للحصول على الأولاد. و لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: أن قانون " نيوك " هذا هل يقبل في ميزان الأخلاق و الشرف إلى حد ما ؟و الجواب لا يحتاج إلى البيان. و مع ذلك فإنني أعتقد بأن هذه القوانين الاجتماعية و العائلية الجائرة اللاأخلاقية (Immoral) ليست تعاليم الديانة الهندوسية الحقيقية، و ليست مما قاله ولاة الأمور و الزعماء الحقيقيون من الهندوس، و ما هي إلا نتيجة و ثمرة من ثمرات التحريفات و التصحيفات و التلبيسات و التخليطات التي تسربت إلى الكتب الدينية.

و لذا يختلف القانون الاجتماعي للهندوس الذي تم تشكيل في الهند عام ١٩٥٦م، عن القانون العائلي الذي ثبت بكتب الأحكام و القوانين الهندوسية الأصيلة، والذي تمت فيه الاستفادة من القانون الاجتماعي الإسلامي إلى حد كبير.

المرأة في الديانة اليهودية:

جاء في التوراة أن المرأة تتنجس إلى سبعة أيام بولادة الذكر (Male)،و تحيض إلى ثلاثة و عشرين يوما، و تتنجس إلى خمسة عشر يوما

بولادة الأنثى (Female) ، و تحيض إلى ستة و ستين يوما، و هذا التصور يدل بصفاء على أن النساء أشد نجاسة و أحط شأنا و مرتبة في الديانة اليهودية. و لا تستحق البنت الميراث حسب الديانة اليهودية إلا إذا لم يكن للميت ابن، و الأبناء المتقدمون الذين ولدوا أولا يستحقون أربعة أضعاف (fourfold) من الآخرين. و يباح تعدد الزوجات، و ليس له حد في التوراة، فكانت لداود – عليه و على نبينا الصلاة و السلام – ست زوجات، و كانت لموسى – عليه و على نبينا الصلاة والسلام – زوجتان، و لم تحظر التوراة على التطليق. و لكن ما هي طريقة التطليق، و متى يباح التطليق ؟فالذي ورد في "الإنجيل " (Bible): " أنه إذا لم يبق للرجل التفات إلى المرأة، فليكتب على ورقة طلاقها، و ليسلمها، و ليخرجها من بيته ".

المرأة في الديانة المسيحية:

يحتل العهد القديم (Old Testament) من الأناجيل (Bibles)مرتبة الشريعة في الأصل في الديانة المسيحية، فقانون التوراة في الحقيقة هو القانون للمسيحية. و مع ذلك واجهت المرأة في المسيحية ذلا و هوانا أكثر من الديانة اليهودية؛ لأن المسيحية تدلنا على أن آدم – عليه و على نبينا الصلاة و السلام – لم ينخدع، بل المرأة انخدعت و اغترت و وقعت في الإثم، و على هذا الأساس تقوم عندهم عقيدة " الكفارة "، و هي أن " حواء " ارتكبت الإثم، فانتقل ذلك إلى البشرية جيلا بعد جيل، و لذا ترى المسيحية أن الابتعاد عن الزواج أفضل. فيقول القديس " بولس " (Saint Paul): إن الأفضل للرجل أن لا يمس المرأة، و من هنا غلبت الرهبانية و ساد الزهد في المرأة و الدنيا في جزء كبير من التأريخ المسيحي الديني، فكانت المرأة في تلك العهود شيئا مكروها للغاية للمجتمع البشري، حتى الأولاد كانوا يكرهون أمهاتهم. ثم لم يكن للمرأة سبيل النجاة من الرجل،

و لم يكن التفريق بممكن إلا أن تكون المرأة قد ارتكبت فجورا، أو ارتدت عن المسيحية، و كانوا يطلقون على الارتداد زنى روحيا.

المرأة في إيران:

وقع الفلاسفة الإيرانيون و المجتمع الإيراني بين إفراط و تفريط غريبين، ففي جانب، ولد في أرضها مفكر خليع متهتك مستهتر شارد الذهن: " مزدك" (Muzdak)، الذي جعل النساء متاعا مشتركا للرجال، فانحطت مكانتها و أصبحت في مرتبة الممتلكات (Properties) و العقارات، و قد أثرت هذه الفكرة السخيفة في المجتمع الإيراني، حتى انهارت الحدود بين المحارم و غير المحارم، و انتهى الفارق بين الأم و الأخت. وفي جانب آخر، نهضت حركة مفكر آخر:" ماني " كرد فعل لمقاومة هذه الفحشاء والخلاعة، فأفرطت وجاوزت الحد وجعلت العلاقات الزوجية التي هي حلال في كل الديانات محرمة و محظورة، فكان مغالاة أخرى، فحيث كانت حركة " مزدك " مناقضة للحياء الإنساني، كانت حركة " ماني " ثورة ضد الفطرة البشرية و غريزة الإنسان.

المرأة في الروم و اليونان:

كانت النساء تباع في اليونان، و تسربت إلى المجتمع البشري لعنة المطالبة بجهاز العروس بسبب الحضارة اليونانية. و كان الرجل متقيدا بصفة قانونية أن لا ينكح أكثر من امرأة، و لكن لم يكن قيد و لا اعتراض على اتخاذ أخدان و إنشاء علاقات غير قانونية، و كانت المرأة تتمتع بحق التطليق، و من هنا كثر الطلاق في المجتمع اليوناني. و حسب ما حكى مصنف كتاب: " تاريخ أخلاق أوربا " الأستاذ " ليكي " أن اليونان في تأريخها مرت بعهد عم فيه سيل الفحشاء و الوقاحة و الخلاعة والاجتراء على اقتراف القبائح، بحيث لم تكن فيه طبقة أشد خلابة و إعجابا و استهواء من العاهرات، حتى كان كبار

الحكام و زعماء القوم معجبين بهن.

و تفرعت من الحضارة اليونانية الحضارة الرومية التي يصل إليها شجرة نسب الحضارة الغربية الحالية، فكانت المرأة عند الرومان تعتبر ملكا للأب قبل الزواج، و ملكا للزوج بعد الزواج. و كان جهاز المرأة كذلك يعتبر ملكا للزوج. و كان الطلاق محظورا، و حسب ما حكى بعض الناس أن أحدا لم يسمع كلمة الطلاق منذ أكثر من خمسمائة سنة. و كثر الزنى و الفواحش، و أصبحت طبقة العواهر مركزا للخليقة، و حدث رد فعل عنيف ضد هذه الوقاحة و الخلاعة، وتجاوز حده كذلك، و أصبحت العزوبة مقياسا للشرف و المجد، فقضى البعض عمره كله في العزوبة، و كتب " ليكي " أن امرأة معروفة باسم " هابيشيا " لم تمكن الزوج من نفسها مدى الحياة.

المرأة في الجاهلية:

الأرض التي أشرقت عليها شمس الإسلام، بلغ بها الوضع أن البنت كانت توأد وتدفن و هي حية ترزق، و كانت المرأة ملكا لورثة الرجل بعد الوفاة، و لم يكن في الميراث نصيب للنساء، و توفي أوس بن ثابت، و كانت زوجته و بناته و أبنائه الصغار الأيتام أحياء، و لكن أبناء العم استولوا على العقارات و الممتلكات كلها، فنزلت بهذه المناسبة آية الميراث: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) [٤ / النساء: ٧]. يكتب القرطبي رحمه الله تعالى -: " نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة يقال لها: أم كجة وثلاث بنات له منها؛ فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة؛ فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئا، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة. فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- فدعاهما، فقالا: يا رسول الله،

ولدها لا يركب فرسا، ولا يحمل كلا ولا ينكأ عدوا. فقال - عليه السلام -: " انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن". فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم، وإبطالا لقولهم وتصرفهم بجهلهم ". ([1]). وكان تعدد الزوجات سائدا فيهم على النطاق الواسع، ولم يكن بشأن عدد الزوجات حد، وأسلم غيلان بن سلمة وكان في عصمته عشر زوجات، فعن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتخير أربعا منهن ". ([2]). ولم يكن عند العرب قانون العدل والقسم والتسوية بين المنكوحات، وقد جرحت كرامة المرأة بحيث كان يمكن أن تكون لامرأة عدة أزواج، وكان يطلق على مثل هذا النكاح " نكاح الرهط "، فعن عائشة – رضي الله تعالى عنها -: " نكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة،كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع منهم أحد أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان - تسمي من أحبت - باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ". ([3]). وكان الرجال يتبادلون بعضهم مع بعض الزوجات، ولم يكن للتطليق حد، فإذا طلق الرجل زوجته مرارا وتكرارا، كان له حق المراجعة، وإذا لم يشأ الرجل لم يكن للمرأة سبيل النجاة منه.

الرأي المبدئي (Principled) للإسلام بشأن المرأة:

هذا هو السلوك الذي كان يبرر مع النساء وقت ظهورالنبي – صلى الله عليه وسلم - الميمون في العالم، وبعثته – صلى الله عليه وسلم -، فكانت منحته – صلى الله عليه وسلم – على هذا الصنف أن

---

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٤٦، الرياض، دار عالم الكتب، تحقيق: هشام البخاري، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

[2] - أخرجه الترمذي رقم ١١٢٨، وهو حديث صحيح.

[3] - أخرجه البخاري رقم ٥١٢٧.

أحل النساء محل إكرام و تقدير و إعزاز، و منحهن الحقوق المشروعة، و خول البشرية قانونا اجتماعيا عائليا تمت فيه المراعاة الكاملة لكرامة المرأة و حرمتها. و – قبل أن أذكر تلك الحقوق التي منحها الإسلام النساء - يجدر بي أن أبين الرأي المبدئي للإسلام بشأن المنزلة الاجتماعية التي تحتلها النساء، و مكانتهن و دورهن في الحياة العائلية. فقد قال الله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ). [٤ / النساء: ٣٤].

ما المراد من قوامية الرجل؟:

هذه الآية تعني أن الرجال يحتلون مرتبة " القوامين " في الحياة الاجتماعية ((Social life)، و القوام في اللغة العربية: ما يقوم به الشيء، و يمكن أن نعبر عنه بـ " الراعي و الحامي و المنظم ". فالرّجل قيّم على المرأة أي هو رئيسها وكبيرها وهو القائم عليها بالحماية والرعاية و الحراسة، و يبدو أن فيه رفع درجة الرجال، و لكن إذا تدبرنا وجدنا أن فيه تكثير مسؤوليات الرجال، و لفت انتباههم إلى أن يتحملوا عبء الإدارة لنظام الأسرة (Family system) و تقويته و استقراره و إدامته، فمن واجباتهم حماية نساء الأسرة و أولادها، و من مسؤولياتهم تهيئة أسباب الراحة والارتياح و الرخاء لنساء الأسرة و الأفراد الآخرين بكسب المعيشة و الكد و الكدح و السعي والاشتداد في العمل وطلب الرزق، و من وظائفهم أن يستخدموا الحلم و الصبر و ضبط النفس، إذا وقعت المكاره. و قد يعترض بعض الناس و يقولون: إن القرآن الكريم حط من شأن النساء في هذه الآية، و لكن أرى أن الشخص الذي يتدبر في هذه الآية ليدرك أن القرآن الكريم و إن كان خوّل – من حيث الظاهر – الرجال تكريما و شرفا، و لكنه يرمي بذلك في الحقيقة إلى تكثير مسؤولياتهم، و تخليص النساء من المسؤوليات الشاقة المتعبة.

المطلوب هو العدل لا المساواة:

يفهم الناس عامة أن الإسلام أمر بالمساواة بين الرجال و النساء، و لكن أرى أن هذا لا يصح، فقد أمر الإسلام بالعدل، و العدل لا يعني التسوية، بل يعني إعطاء الشخص ما يناسبه و بقدر يحسن به. و لا شك أن الرجال و النساء يختلفون في المؤهلات و المواهب طبعا (Naturally)، فليس من المعقول إهمال هذا الفرق، و التسوية بينهما في الواجبات و الحقوق، و هذا هو نظام الفطرة. و على سبيل المثال: الصانع يريد أن يصنع " بفرياني " (Biryani): نوع من الطعام)، و هو يحتاج إلى الأرز و اللحم و السمن و الملح، فإذا عمل بفلسفة " المساواة "، و سوى بين الرز و اللحم و الملح و التوابل، فهل يكون ذلك الطعام " فريانيا "، و هل يمكن ذوقه ؟و الأمر لا يختلف بالنسبة إلى حقوق و مسؤوليات الطبقات و الفئات المختلفة في الحياة الاجتماعية، فلا بد في ذلك من مراعاة للموهبة و الكفاءة الفطرية لكل طبقة، فإذا تم توحيد المقياس لمسؤوليات الجميع، سواء كانوا رجالا أو نساء، أو أطفالا أو كبار السن، أو شبابا أو شيوخا، أو مثقفين أو أميين، أو فقراء أو أغنياء، فهذا ينافي الفطرة البشرية، و لذا أمر الإسلام و رسوله – صلى الله عليه و سلم – بإقامة العدل بين الرجال و النساء، لا المساواة.

الروح في الرجال و النساء واحدة:

في العهد الذي بعث النبي – صلى الله عليه و سلم -، كان فيه أهل العلم و الفكر و أرباب العقل و الحكمة و رجال القلم يناقشون فيما بينهم أن الروح التي تسري في الرجال، هي التي تجري في النساء، أم روح النساء مغايرة لروح الرجال، فكان يرى بعض فلاسفة اليونان أن الروح التي تجري في النساء هي أدنى و أحط من روح الرجال و أرفع من روح الحيوانات، فكأن هؤلاء كانوا يعتبرون النساء خلقا مستقلا أحط شأنا من الرجال، فنفى

القرآن الكريم ذلك، و بين أن مصدر الخلق في الرجال و النساء واحد، و ليس مغايرا، فقد قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا). [٤ / النساء: ١]. و الآية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الله خلق المرأة الأولى من نفس الرجل الأول، فالروح التي تسري في الرجل هي التي تسري في المرأة.

الرجال و النساء زملاء فيما بينهم، و ليسوا خصماء:

أشارت هذه الآية إلى دقيقة و لطيفة هامة، فقد تم جعل الرجال و النساء في العالم كله في الوقت الحاضر طرفين متخاصمين فيما بينهما، فأسست عدة منظمات للنساء و ما زالت تؤسس في كل بلد باسم حقوق النساء، و الغرب يؤيد مثل هذه الحركات، و بدأ الرجال كذلك إنشاء مثل هذه المنظمات، فقد جعلت هذه الحركات هاتين الطبقتين الهامتين من المجتمع خصمين منافسين فيما بينهما، و لكن القرآن الكريم رفض طريقة التفكير هذه، و قال: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)، أي أن الله تعالى خلق من الرجل زوجه، فالمرأة جزء من الرجل، فهما يتكاملان بانضمام البعض مع البعض، فليسا خصمين متحاربين، بل هما تتمتان بعضهما لبعض، و ذلك أن الإنسان إذا جعل أحدا منافسا له، فمن الطبيعي أن تنشأ عواطف الكراهية و التنكر ضده، و الذي يعتبره جزءا منه و تتمة لكيانه، فتنشأ له عواطف الحب و المودة و النصح والإخلاص و الإيثار.

المرأة ليست بابا للذنوب و الآثام:

أشار القرآن المجيد إلى أمر هام آخر، يرشدنا إرشادا مبدئيا إلى مكانة المرأة، فقد كانت تسود فكرة بين الديانات المختلفة وقت ولادة النبي – صلى الله عليه و سلم، و هي: أن النساء أبواب للذنوب و الآثام، و كان يعم مثل هذا القول في الهند و الصين (China)، و أما الديانات الإسرائيلية فحل فيها هذا

القول محل العقيدة؛ فقد اعتبرت " التوراة " السيدة " حواء " مذنبة حقيقية بشأن أكل الثمرة من الشجرة المنهية عنها، و قامت عقيدة هامة: " الكفارة " على هذا الأساس في الديانة المسيحية، و هو أن الإثم الذي لا يزال ينتقل من " حواء " إلى البشرية جيلا بعد جيل، لمحوه وأداء كفارته أرسل الله تعالى ابنه إلى العالم، حتى يصلب فيصبح كفارة لذنوب بني آدم.

فقام الإسلام بمحووإزالة هذه الوصمة التاريخية من سيرتها، فقد قال القرآن الكريم: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى). [٢٠ / طه: ١٢١]، فقد نسب القرآن المجيد هذه الزلة إلى آدم، و لم ينسبها إلى " حواء "، مع أنهما كانا شريكين فيها، فقد قال الله تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ). [٢ / البقرة: ٣٦]. و من هنا أخرج آدم و حواء كلاهما من الجنة، و لكن حمل القرآن مسؤوليتها آدم أكثر من حواء. و يعتبر هذا إصلاحا فكريا أكبر، قام به القرآن الكريم بشأن المرأة.

المرأة لها شخصية مستقلة:

بعد ما بينا موقف الإسلام المبدئي بشأن المرأة، ننتقل إلى بيان الحقوق التي منحها الإسلام، و إلى بيان نصيب النساء في الحقوق الإنسانية العامة.

و الأمر الأهم هنا أن الإسلام أقر شخصية مستقلة للمرأة، فليست ذيلا للرجال، بل إنها تحمل شخصية مستقلة من ناحية أفعالها و حقوقها، فقد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا). [٤ / النساء: ١٢٤].

١ – حق الملك و التصرف فيه:

للمرأة حق الملك في العقارات و الممتلكات، و لها الاختصاص التام و الاختيار الكامل في التصرف فيها، فعلى المرأة إخراج الزكاة الواجبة في مالها

بنفسها، و في هذا اعتراف بالصفة الملكية لها، و لها حق الميراث في أملاك أقربائها، و لها أن تتصرف في مالها كيف تشاء، و الرجل و إن كان زوجا لها ليس له حق أن يتصرف في أملاكها بدون إذنها، فقد قال الله تعالى: (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا). [٤ / النساء: ٤].

٢ – حق الانتقاد:

تملك النساء كالرجال حق الانتقاد، فقد كان من هذا الباب رفع السيدة عائشة لواء الاختلاف، و المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان – رضي الله عنه – أمام علي – رضي الله تعالى عنه -. و أراد سيدنا عمر الفاروق – رضي الله تعالى عنه – في عهد خلافته تحديدا لأكثر المقدار للمهر بالنظر إلى مغالاة الناس في المهور، فانتقدت امرأة عليه على مرأى و مسمع من الناس، و قالت: إذا أذن القرآن الكريم بإعطاء القنطار و هو: المال الكثير الوزن، فمن أين لك أن تحدده ؟و بما أن الله تعالى وفقه توفيقا خاصا لقبول الحق و الاعتراف به بدون تردد فيه، فقد رجع عن رأيه، و قال: رجل أخطأ و امرأة أصابت، و كل الناس أفقه منك يا عمر، فعن أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ:

قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: أَلا لَا تُغْلُوا صُدُقَ النِّسَاءِ، أَلا لَا تُغْلُوا صُدُقَ النِّسَاءِ، قَالَ: فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللهِ، كَانَ أَوْلاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلا أُصْدِقَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ". ([1]).

٣ – حق الاجتماع:

منح النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – النساء حق الاجتماع،

---

[1] - أخرجه الطيالسي (٦٤)، وعبد الرزاق (١٠٤٠٠) و (١٠٤٠١) والدارمي (٢٢٠٠)، وابنُ ماجه (١٨٨٧) وابن حبان (٤٦٢٠)و أحمد رقم ٢٨٥، و أبوداود رقم ٢١٠٦، و الترمذي رقم ١١١٤، و هو حديث صحيح، و راجع: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٩٩.

فقد التمسن منه – صلى الله عليه و سلم – و قلن له – صلى الله عليه و سلم -: غلبنا الرجال، فقد تتوفر لهم فرصة الحضور في مجالسك المباركة و الاستفادة من فيوضك الكريمة، فعين لنا وقتا، فعين لهن يوما في الأسبوع، فكن يجتمعن في ذلك اليوم، و يخطبهن – صلى الله عليه و سلم -، و يلفت انتباههن إلى الأمور اللازمة، و كن إن أردن توجيه الأسئلة، فيقمن به، و يرد – صلى الله عليه و سلم – عليها. فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَتْ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ؛ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا، لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنْ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَتَيْنِ ". ([1]).

و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن للنساء حق الاجتماع في الحدود الشرعية للأغراض النبيلة الصالحة.

قضية ذهاب النساء إلى المساجد:

إن الإسلام لا يحب بدون شك الاجتماع المختلط بالرجال و النساء؛ فإن ذلك يفضي إلى فتح طرق الفتن في معظم الأوقات، و قد بدأ اليوم بعض الناس حركة لأداء النساء الصلاة في المساجد، وتم الاعتراض على العلماء بأنهم عقبات و عراقيل في هذا الباب، و تؤيده بعض الجرائد الإنجليزية، و يناصره إعلامنا الوطني (Our National media). و السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما المقصد من الإتيان إلى المساجد ؟و الجواب واضح و هو: أن المقصد منه العبادة و الحصول على الأجر و الثواب بالقيام بها. و قد قال النبي – صلى الله عليه و سلم -: صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، فعن عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -، قَالَ: صَلاَةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا

---

[1] - أخرجه البخاري، رقم: ١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠، و مسلم، رقم: ٢٦٣٣.

أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاَتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي بَيْتِهَا". ([1]). و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن صلاتها في البيت أعظم أجرا و أكثر مثوبة، فإذا كان الهدف من الصلاة هو الحصول على الأجر، و أجرها يكثر بالصلاة في البيت، فأية امرأة عاقلة تفضل الآن أن تتجشم المشقة الكثيرة للحصول على الأجر القليل ؟

ثم لنتدبر أنه كم كان من الحيطة و الحذر في عهد النبي – صلى الله عليه و سلم -، فقد كن يحضرن عادة في المغرب و العشاء و الفجر؛ لأن نظاما طبيعيا للحجاب كان حاصلا بسبب الظلام، و كن يحضرن في الأخير، و يقمن في الصفوف المتأخرة، و يرجعن بعد انتهاء الصلاة قبل انصراف الرجال، فعن أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا سَلَّمَ قَامَ النِّسَاءُ حِينَ يَقْضِي تَسْلِيمَهُ، وَيَمْكُثُ هُوَ فِي مَقَامِهِ يَسِيرًا قَبْلَ أَنْ يَقُومَ. قَالَ: نَرَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِكَيْ يَنْصَرِفَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الرِّجَالِ ". ([2]). و كن مأمورات أن لا يرفعن رؤوسهن من السجود قبل رفع الرجال تماما، و كن يشددن النقاب و يستخدمنه بالالتزام، و كان كثيفا مصنوعا من الثياب الصفيقة الخشنة، و فضفاضا و لا يشف عما تحته، و لم يكن خلابا، بل كان عاديا خشنا.

و زد إلى ذلك أن العهد كان عهد خير، و كل شخص حاضر في المسجد إلا أن يكون صاحب عذر، و لم يكن يقف على الشوارع و الأزقة و الأسواق و مفترق الطرق جماعة من شراد الفكر و الخيال، و الخلعاء و المتهتكين، و العشاق المجبولين المطبوعين، و كانت عقوبة الزنى شديدة، و حدث في الطبيعة و المذاق انقلاب بتأثير مصاحبة النبي – صلى الله عليه و سلم -، حتى إذا وقع أحد في سوء النظر، كان يتردد في الحضور في مجلسه – صلى

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٥٧٠، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٨٧٠، ٨٧٥.

الله عليه و سلم -، و يقول في نفسه: كيف نرى و ننظر إلى رسول الله – صلى الله عليه و سلم – بالعين التي تم اقتراف المعصية بها ؟و لم يكن عهد السيدة عائشة – رضي الله عنها – يختلف كثيرا عن عهده – صلى الله عليه و سلم -، و مع ذلك قالت: لو رأى النبي – صلى الله عليه و سلم – أحوال نساء اليوم لما أذنهن بالإتيان إلى المسجد، فعن عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ:لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ،كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.قُلْتُ لِعَمْرَةَ: أَوَمُنِعْنَ ؟قَالَتْ: نَعَمْ ". ([1]). فلنتدبر: ما ذا يكون انطباع السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها – لو رأت أحوال اليوم ؟

و لا يعقل رفع مثل هذا الصوت و الاحتجاج من قبل المنظمات النسائية، و لو رخص للرجال، و لم يحتم عليهم الذهاب إلى المساجد، لكنا شاكرين، و كان بشيء من المعقول أن يرفع الرجال عقيرتهم ضد ترخيص النساء في عدم الإتيان إلى المساجد، و تقييدهم بالصلاة فيها؛ لأن أداء الصلاة في البيت سهل، و الذهاب إلى المسجد لا يخلو من المشقة و لو كانت يسيرة. فينبغي لأمهاتنا و أخواتنا أن يشكرن الله تعالى، فكم من مراعاة و تسهيلات و إعفاءات وفرها الله و رسوله – صلى الله عليه و سلم – لهن.

٤ – حق الزواج:

قام النبي – صلى الله عليه و سلم – بحماية الحرية الشخصية للنساء، فلا توجد في معظم الديانات فكرة الاستئذان من النساء في الزواج، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – قال: يؤخذ من الفتاة أولا الإذن بالزواج، فإن قبلت، فتزوج، و إلا فلا، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٨٦٩، و مسلم رقم ٤٤٥.

حَتَّى تُسْتَأْذَنَ ". ([1]). و عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألت رسول الله - صلى الله عليه و سلم - عن الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا ؟فقال لها رسول الله - صلى الله عليه و سلم-: نعم تستأمر، فقالت عائشة: فقلت له: فإنها تستحي، فقال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: فذلك إذنها إذا هي سكتت ". ([2]). و زوج شخص بنته بدون رضاها، فرفعت الأمر إلى النبي – صلى الله عليه و سلم -، فجعله – صلى الله عليه و سلم – غير صحيح، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ: " أَنَّ جَارِيَةً بِكْرًا أَتَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَذَكَرَتْ أَنَّ أَبَاهَا زَوَّجَهَا وَهِيَ كَارِهَةٌ، فَخَيَّرَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ". ([3]). و عن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله تعالى عنه - أَنَّ خَنْسَاءَ بنتَ خِدَامٍ زَوَّجَهَا أَبُوهَا وَهِيَ كارهه، فَأَتَتِ النبي - صلى اللَّهُ عليه وسلم - فَرَدَّ نِكَاحَهَا ". ([4]). و قد اعترف القائد الشهير في وطننا " أتل بهاري فاجبائي " بأنه يعجبه لزوم الاستئذان من الفتاة قبل النكاح في الإسلام.

بل يمكن لفتاة بالغة أن تزوج نفسها من وجهة النظر الإسلامية، و لذا نسب القرآن الكريم النكاح إلى النساء في مواضع عديدة، و جاء في القرآن الكريم نفسه: (فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ). [٢ / البقرة: ٢٣٢]. و قال تعالى في موضع آخر: (حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ). [٢ / البقرة: ٢٣٠]. و نكح النبي – صلى الله عليه و سلم – أم سلمة – رضي الله تعالى عنها – مباشرة، فلم يكن لها ولي. ([5]). و إن اختارت الفتاة لنفسها زوجا يناسب أسرتها و لا ينافي تقاليد أسرتها، فليس للأولياء حق الاعتراض على ذلك، غير أنه لا ينبغي للفتيات أن

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٥١٣٦، ٦٩٦٨، ٦٩٧٠، و مسلم رقم ١٤١٩.

[2] - أخرجه البخاري (٦٩٤٦) و (٦٩٧١) ومسلم رقم ١٤٢٠.

[3] - أخرجه أبو داود (٢٠٩٦)، وابن ماجه (١٨٧٥)، والنسائي في "الكبرى" (٥٣٨٧)، وأبو يعلى (٢٥٢٦) والنسائي في الصغرى (٥٣٨٩)، و أحمد رقم ٢٤٦٩، و إسناده صحيح.

[4] - أخرجه الدارمي في سننه رقم ٢١٩٢، و الطبراني في الكبير ٢٤ / ٢٥٢، رقم ٦٤٤، و إسناده صحيح.

[5] - راجع: صحيح مسلم رقم ١٤٦٠.

يقررن مثل هذه القضايا الدقيقة للحياة بنفسها بدون الاستفادة من تجارب الأولياء والتشاورمعهم بشأن اختيار الزوج المناسب، فمن الممكن أن الذي دفع إلى ذلك هو الميول الطارئة و الحماسة العابرة الخاطفة السطحية، لا مراعاة المصالح و الصواب و الحكم بالوعي و العقل، و من هنا وجه النبي – صلى الله عليه و سلم – الفتيات إلى النكاح عن طريق الأولياء، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " لا نكاح إلا بولي ". ([1]).

٥ – حق حماية الحياة و سلامتها و صيانتها:

لم يهمل الإسلام حماية حياة النساء كحماية حياة الرجال، فإذا قتل رجل امرأة فيقتل الرجل القاتل حسب قانون القصاص، بل راعى الإسلام حماية حياة النساء أكثر من الرجال، و من هنا حملهم مسؤولية الحرب و القتال و صيانة الثغورو سدها دون النساء، حتى نهى النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الهجوم على نساء الأعداء. و إذا ارتد شخص عن الإسلام فعقوبته القتل، و لكن المرأة إذا ارتدت فعقوبتها الحبس إلى أن تتوب.

غير أن دية المرأة النصف من دية الرجل، و الأمر في ذلك يعود إلى أن الرجل عادة هو الذي يكون وسيلة للاكتساب و الحصول على الدخل في الأسرة، و هو الذي يتولى شأن الاكتساب، و هو الذي يكدح للمعيشة، و به تتم كفالة الأسرة كلها من حيث الظاهر. و الأمر لا يعود إلى أن نفس المرأة أقل أهمية من نفس الرجل؛ بل المرأة ملكة البيت، و هي التي تقوم بالإدارة الداخلية، فموت الرجل يتسبب الخسائر المالية للبيت أكثر من موت المرأة، حيث تقع الأسرة في المشاكل الاقتصادية، و لذا جعلت دية الرجل أكثر من دية المرأة، لتتم مؤاساة الأسرة الكئيبة، و تقل أعبائها الاقتصادية إلى حد ما.

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٢٠٨٥، و الترمذي رقم ١١٠١، و الدارمي رقم ٢١٨٨، و ابن ماجه رقم ١٨٨١، و أحمد رقم ١٩٧١٠، و هو حديث صحيح.

٦ – حق حماية العرض و الكرامة:

تم الاعتناء الكامل بصيانة أعراض النساء و كرامتهن و حرمتهن، فقذف المرأة العفيفة بالفاحشة يعتبر في نظر القرآن الكريم جريمة شنيعة يستحق عليها القاذف ثمانين جلدة. و وضعت الأصول و القواعد الصارمة لإثبات الزنى، التي لا يسهل توفيرها، حتى لا يتجاسر الوقاح على التلاعب بأعراض الكرماء و النبلاء و مجدهم و كرامتهم. ثم حمل الأزواج بجعلهم القوامين مسؤوليات المراعاة الكاملة لصيانة أعراض الزوجات، حتى إن احتاجوا إلى المخاطرة بأنفسهم، فلا يترددوا في ذلك، فعن سعيد بن زيد - رضي الله عنه -: قال سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم – يقول: من قُتلَ دُونَ أهْلهِ فِهو شهيد ". ([1]).

٧ – حق الأمان للنساء:

يعتبر قانون " الأمان " من القانون الهام في الإسلام، و يمكن أن نطلق عليه قانون " التأشيرة " (visa). و يعني الأمان " إعطاء الأمن "، و قد منح النبي – صلى الله عليه و سلم – كل مواطن مسلم حق التأمين، فله أن يعطي الأمان شخصا ما من الجيش المعادي حالة الحرب، و لا يجوز لأحد الهجوم على الشخص الذي أعطي الأمان. و إذا أعطي مواطن من البلاد الأخرى الأمان في عامة الأحوال، فله حق الدخول في المملكة الإسلامية (أي: دار الإسلام)، و هذا الحق حاصل للنساء كالرجال، فقد أمنت أخت علي – رضي الله عنه -: أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- بمناسبة فتح مكة حموا لها، و لكن لم يرض به علي – رضي الله عنه -، فرفعت أم هانئ الأمر إلى النبي – صلى الله عليه و سلم -، فصوب تأمينها، و قال – صلى الله عليه و سلم -: أمنت من أمنته، فعن أَبَي مُرَّةَ

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٤٧٧٢، و النسائي رقم ٤٠٩٤، ٤٠٩٥، و الترمذي رقم ١٤٢١، و هو حديث صحيح.

مَوْلَى أُمّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ تَقُولُ: ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَامَ الْفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ ؟فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِأُمّ هَانِئٍ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ، قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ. قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَاكَ ضُحًى ". ([1]).

فلنتدبر في مدى دقة هذه القضية الهامة من وجهة النظر السياسية، ثم لنفكر في رضى الإسلام بسلطة المرأة و حقها فيها، أليس ذلك دليلا على سعة صدر الإسلام بشأن المرأة ؟

٨ – حق التعلم و التعليم:

للمرأة حق التعلم و التعليم في نظر الإسلام بدون شك.

النساء و التعليم الديني:

العلم حلية البشرية، و هو السرالحقيقي الرئيسي للعظمة و الكرامة الإنسانية، و مما يكفي للدلالة على أهمية العلم في الإسلام أن أول وحي نزل على النبي – صلى الله عليه و سلم – فيه ذكر العلم. و قد رغب – صلى الله عليه و سلم – في تعليم الجواري و الإماء و تربيتهن، و جعل ذلك موجبا للأجرو الثواب و الجزاء والعطاء الإلهي الكثير، فعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ

[1] - أخرجه البخاري رقم ٣٥٧، و ٣١٧١، ٦١٥٨، و مسلم رقم ٣٣٦.

فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ ". ([1]). فإذا كانت أهمية تعليم الجارية و الخادمة في نظره – صلى الله عليه و سلم – إلى هذا الحد، فكم تكون أهمية تعليم البنات و فتيات أسرته؟

وقد قامت النساء في التأريخ الإسلامي بأعمال و مآثرعلمية بارزة بشكل ملموس، و السيدة عائشة من أولئك السبعة الذين تشرفوا برواية أكثر من ألف حديث، فقد بلغت مروياته إلى ٢٢١٠، و رويت أحاديث كثيرة عن السيدة حفصة، و السيدة أم سلمة كذلك. و هن معدودات في فقهاء الصحابة.

و بلغت مكانة السيدة عائشة العلمية و براعتها و مقدرتها إلى حد، استطاعت معها أن تقوم بالملاحظة و المحاسبة العلمية على كبار الصحابة، و عرفت هذه المحاسبات العلمية في دنيا العلوم الإسلامية بـ " استدراكات عائشة ". و على سبيل المثال: بلغها أن بعض الصحابة يروون أن الشؤم في ثلاثة أشياء: المرأة، والمركب، و الدار، فقامت بإزالة سوء التفاهم، و قالت: إن النبي – صلى الله عليه و سلم – في الحقيقة حكى عن بني إسرائيل أنهم كانوا يقولون: الشؤم في ثلاث، و أثناء كلامه – صلى الله عليه و سلم – جاء بعض من سمعه و ظنه من كلامه – صلى الله عليه و سلم -. فعن مكحول قيل لعائشة:إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " الشؤم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس "، فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة؛لأنه دخل رسول الله - صلى الله عليه و سلم- يقول: قاتل الله اليهود، يقولون:إن الشوم في ثلاث: في الدار والمرأة والفرس، فسمع آخره ولم يسمع أوله ". ([2]). فلنتدبر، لو لم يكن هذا الإيضاح من قبل السيدة عائشة، لكان سلاحا كبيرا ضد الإسلام للاعتراض و الانتقاد عليه، و لقيل: إن الإسلام كبعض الديانات

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٩٧، ٢٥٤٧.

[2] - أخرجه الطيالسي في مسنده رقم ١٥٣٧، و الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" رقم ٧٨٦، و أحمد رقم ٢٦٠٣٤، و إسناده صحيح.

الأخرى يعتبر المرأة مشؤومة كذلك.

و هناك عدة ملاحظات أخرى من قبل السيدة عائشة – رضي الله عنها – صوبها أهل العلم.

و اعتبرت السيدة عائشة – رضي الله عنها – في الصحابة من الفقهاء المكثرين في مجال الفقه و الإفتاء كذلك، الذين كثر عدد فتاواهم، و من المفتيات المتوسطات السيدة أم سلمة – رضي الله عنها -، و من المفتيات المقلات السيدة حفصة و السيدة أم عطية – رضي الله عنهما -.

و قد اتفق أهل العلم على جواز أن تكون المرأة مفتية، و على أن لها أن تقوم بمهام الإفتاء و واجباته.

النساء و العلوم الأخرى:

للنساء الدخول في العلوم العصرية غير العلم الديني، التي تنسجم مع موهبتها الفطرية، فقد كانت الشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية - رضي الله عنها – كاتبة، و علمت فن الكتابة حفصة – رضي الله عنها – على طلبه – صلى الله عليه و سلم -، فعنها قالت: دخل عليَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا عند حفصة، فقال: "ألا تُعلِّمينَ هذه رُقْيَةَ النَّملةِ كما علَّمْتِها الكتابة؟". ([1]).

و الروايات التي تنهى عن تعليم النساء الكتابة، هي موضوعة و لا أصل لها عند أهل هذا الشأن، فلنجتنب من الوقوع في سوء الفهم بناء على ذلك.

و كذا استحسن النبي – صلى الله عليه و سلم – الصناعة و الأعمال اليدوية المنزلية للنساء، و قام بالترغيب في غزل القطن، فعن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري أن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: " نعم لهو

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٣٨٨٧، و أحمد رقم ٢٧٠٩٥، و إسناده صحيح، و " النملة: قروح تخرج في الجنبين ".

المؤمنة في بيتها الغزل ". ([1]) . و عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: علموا أبناءكم السباحة و الرمي، و المرأة المغزل ". ([2]). و به كانت زينب زوجة عبد الله بن مسعود – رضي الله عنها – تقضي حاجاتها و حاجات أهلها و تغطي المواد و المستلزمات العائلية. و ثبت أن بعض النساء كن يقمن بصنع الخناجر فعن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرا فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه و سلم-: (ما هذا الخنجر؟) قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله - صلى الله عليه و سلم- يضحك، قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك، فقال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن ". ([3]). و من الفوائد الكبيرة لمثل هذه الصناعات و الأعمال المنزلية أن ذهن الإنسان يشتغل بها، و يستطيع أن يصون نفسه من الغيبة و البهتان و النميمة و التفوه بالفحش و الكلمات البذيئة.

و من اللازم أن تساهم النساء في التعليم الطبي، حتى يتم علاج النساء عن طريق النساء، و يسهل الاجتناب عن السفور و كشف العورة. و روى هشام بن عروة أن السيدة عائشة – رضي الله عنها – كان لها نظرة عميقة في الطب. ([4]). و سببه أنه – صلى الله عليه و سلم – لما ثقل و دنا أجله، جاءه أطباء من مناطق العرب المختلفة للعلاج، فحفظت السيدة عائشة – رضي الله عنها – وصفات الدواء لهم. و تدلنا كتب الحديث و السيرة على أن النساء كن يقمن بتضميد المجاهدين الجرحى،

---

[1] - أخرجه الديلمي (٢/ ٢٧٧)، و راجع: كنز العمال ١٦ / ٤٤٣، رقم ٤٥٣٤٣، بالعزو إلى ابن مندة في المعرفة وأبي موسى في الذيل، بإسناد فيه مقال.

[2] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٨٦٦٤، بإسناد فيه مقال.

[3] - أخرجه مسلم رقم ١٨٠٩.

[4] - راجع: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ١٢ / ٤٦١، بيروت، دار الفكر، ط: ١، ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤م.

ومن الطبيعي أنه لا يتيسر لهن ذلك إلا بالعثور على طريقة العلاج الابتدائية. فعن الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَسْقِي، وَنُدَاوِي الْجَرْحَى، وَنَرُدُّ الْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ ". ([١]). و عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله - صلى الله عليه و سلم - يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى ". ([٢]).

٩ – حق التوظف:

و للنساء حق التوظف في الإسلام بدون ريب، إذا مست الحاجة إلى ذلك.

النساء و الوظائف:

يرى الإسلام مبدئيا أن تمكث النساء و يقررن في البيت، و أن يتم طمئنتهن و تبعيدهن عن حمل أعباء اكتساب الرزق. و أرى أن فيه خيرا للمجتمع البشري. فقد تتقوى العلاقات و تتوطد الأواصر بسبب الحاجة، فالزوج يحتاج إلى الزوجة لحضانة أولاده و تربيتهم، و المرأة تحتاج إلى زوجها لمرافق الحياة و مستلزماتها، و إن خف الاحتياج من أحدهما إلى آخر يخف إحكام القرابة الزوجية الزوج إلى قرينته لحضانة الأولاد و تربيتهم، فتخف الحاجة إلى الزوجة في نظره، فقد أنشئت محاضن للصغار في الدول الغربية ، فأضعف ذلك العلاقة الزوجية، و إن بدأت المرأة بنفسها تكتسب المعاش، فتكاد تعتبر قرينها حملا، و تقل أهلية احتمال البعض للبعض.و هذا ما حدث في الغرب، فالزوج لا يشعر بالحاجة إلى حرمه، و لا تشعر الزوجة بالحاجة إلى قرينها، فضعفت لأجل ذلك العلاقات الزوجية. و من هنا يعتبر سكان الغرب الزواج قيدا لهم، و الذين يتزوجون، هم كذلك يطلقون بأسباب تافهة و

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٢٨٨٢، ٢٨٨٣.

[٢] - أخرجه مسلم رقم ١٨١٠.

أمور لا قيمة لها، فالإحصائيات الحالية في أمريكا تدلنا على أن سبعين في المائة (٧٠ %) من الزواج ينتهي على الطلاق.

و مع ذلك فالبعض من النساء قد لا يكون لهن مفر في بعض الأوقات من التوظف، حيث تصبح الوظيفة لهن حاجة ملحة، فأباحها الشريعة لهن في مثل تلك الحالات، غيرأنه لا يجوز لهن المساهمة في تلك الأعمال إلا بمراعاة الحدود و الآداب الشرعية، و هي كما يلي:

١ – أن يحصلن على الإذن من أولياء أمورهن، فمن الوالدين في حالة العزوبة، و من الأزواج في حالة كونهن متزوجات.

٢ – أن لا يسود في محل العمل جو الاختلاط، فالإسلام لا يسمح للنساء بالبقاء في بيئة يعم فيها الاختلاط بين الرجال و النساء، فإن مثل هذا المحيط يضر بالنساء ذواتها؛ لأنه يصعب عليهن فيها الحفاظ على أعراضهن و كرامتهن و حرمتهن، و تقع المرأة العفيفة الكريمة النبيلة في توتر ذهني مستمر، و من هنا قال النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم -: إذا خلا الرجل و المرأة، فالشيطان ثالثهما، فعن عمر – رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم -: أَلا لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا كانَ ثالثَهُمَا الشيطانُ ". ([1]).

٣ – أن تجتنب النساء من التزين و التطيب و التعطر إذا خرجن من بيوتهن، و لا يليق بهن أن يلبسن فيها ألبسة خشنة عادية صفيقة، و إذا خرجن فيلبسن ملابس فاخرة خلابة تجذب النظر، فإن ذلك يوفر الفرص للنظر غير المشروع لمرضى القلوب و فاسدي النية.

الحجاب ليس قيدا، لكنه صيانة للمرأة:

٤ – الحكم الرابع للنساء أنهن إذا خرجن من بيوتهن فليقمن

[1] - أخرجه الترمذي رقم ٢١٦٥، و ابن ماجه رقم ٢٣٦٣، و أبويعلى في مسنده رقم ١٤٣، و أحمد رقم ١٧٧، و هو حديث صحيح.

بالاحتجاب، و ليلبسن لباسا يغطي جميع أجسادهن و وجوههن. و قد يعتبر بعض الناس الحجاب ظلما في هذه الأيام، و يرون أن فيه تقييدا لحرية المرأة. وهذا شئ خاطئ لا أساس له من الصحة، و لا يمت إلى الواقع بصلة ما، بل هي مؤامرة من قبل الخلعاء و المستهترين، الذين يريدون إذلال المرأة بإخراجها إلى السوق، و الحجاب في الحقيقة ليس تقييدا لحرية المرأة؛ بل هو من وسائل صيانة المرأة، يتم به صيانتها، فهو يقيها من المتهتكين الخلعاء. و من هنا ترون أن المجتمع الذي يخلو من الالتزام بالحجاب، تحدث فيه الاعتداءات الجنسية على النساء أكثر من مجتمع آخر.

و قد يظن بعض الناس أن إباحة الوظيفة للنساء بهذه الشروط و مراعاة الحدود الكثيرة بهذا الشكل، من باب التسلية، و هي تؤدي إلى حرمان النساء تماما بالفعل من التوظف، و لكن هذا التفكير لا يصح، فالمجتمع الذي يراعي الأصول الإسلامية، تتوفر فيه فرص العمل و تكثر؛ لأنه يحتاج إلى إنشاء مدارس خاصة بالبنات، يتم فيها تعيين المعلمات و المحاضرات، و إلى إقامة المستشفيات التي تشتمل على هيئة الموظفات من النساء فحسب، و ما إلى ذلك. فمن الطبيعي أن تتزايد و تكثرفرص الوظائف للنساء المحتاجات في مثل هذه الأحوال.

إن محاولة فهم قضية ما بدون وضعها في النظام الكلي تؤدي إلى سوء التفاهم العديد، و هذا هو السبب الرئيسي لما ينشر من سوء الفهم ضد الإسلام اليوم.

البنت في نظر رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم -:

هذه حقوق عامة للنساء، و لكن القضية الأساسية هي قضية حقوقهن في الحياة الاجتماعية و العائلية؛ لأنهن أساس نظام الأسرة.

و المرأة عادة تمر بثلاث مراحل في الأسرة: ففي المرحلة الأولى هي بنت،

ثم في المرحلة الثانية هي زوجة، و في المرحلة الثالثة هي أم. و قد كانت البنات توئد و تدفن و هن حيات في العرب قبل الإسلام، و من هنا ركز النبي – صلى الله عليه و سلم – على فضائل كفالتهن و تنشئتهن و تربيتهن على وجه خاص، حيث جعلها سببا للاقتراب الشديد منه – صلى الله عليه و سلم – في الجنة، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: " مَنْ كان له ثلاثُ بَنَاتٍ، أو ثَلاثُ أخواتٍ، أو بِنْتانِ، أو أختان، فأحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ، واتَّقَى الله فيهنَّ، فله الجنة ". ([1]). و في رواية أخرى قال: " لا يكون لأحدكم ثَلاثُ بنات، أو ثلاثُ أخواتٍ فيُحْسِنَ إليهنَّ إلا دخل الجنة ". ([2]). وفي رواية أبي داود قال: " من عال ثلاث بناتٍ، أو ثلاثَ أخواتٍ، أو أختين، أو ابنتين، فأدَّبَهُنَّ وأحسن إليهن وزَوَّجَهُنَّ، فله الجنة". ([3]). و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: " مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا، - قَالَ: يَعْنِي الذُّكُورَ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ". ([4]). و عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه ". ([5]). و عنه – رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم –: " من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه – أي: السبابة و الوسطى أي: الأصبع الثالثة - ". ([6]). و يعسر نظير ما قام به النبي – صلى الله عليه و سلم – بنفسه من شفقة و عطف و معاملة جميلة و سلوك حسن مع بناته – صلى الله عليه و سلم – الطاهرات، و كان – صلى الله عليه و سلم – يقوم لفاطمة – رضي الله عنها

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٥١٤٨، و أحمد رقم ٢٣٩٩١، و هو حديث صحيح لغيره.
[2] - أخرجها الترمذي رقم ١٩١٦، و هو حديث صحيح لغيره.
[3] - أخرجها أبوداود رقم ٥١٤٧، و هو حديث صحيح لغيره.
[4] - أخرجه أبوداود رقم ٥١٤٦، و أحمد رقم ١٩٥٧، بإسناد فيه مقال.
[5] - أخرجه مسلم رقم ٢٦٣١.
[6] - أخرجه الترمذي رقم ١٩١٤، و هو حديث صحيح.

– حين تدخل عليه في بيته، و يقبل جبينها، و يجلسها في مكانه، و كانت فاطمة – رضي الله عنها – تعاملها المعاملة نفسها، فعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبي - صلى الله عليه و سلم - كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة. قالت: وكان النبي- صلى الله عليه و سلم - إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه. وكانت إذا أتاها النبي - صلى الله عليه و سلم- رحبت به ثم قامت إليه فقبلته ". ([1]). و كان آخر لقاءه بفاطمة – رضي الله تعالى عنها - إذا خرج من المدينة، و إذا رجع إليها بدأ بالمسجد، ثم دخل عليها، فعن ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا خَرَجَ فِي غَزَاةٍ كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ بِفَاطِمَةَ، وَإِذَا قَدِمَ مِنْ غَزَاةٍ كَانَ أَوَّلُ عَهْدِهِ بِفَاطِمَةَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا – ". ([2]).

و لقد حمل النبي – صلى الله عليه و سلم – الأب مسؤولية كفالة البنت و تعليمها. و إذا بلغ الابن الحلم و أصبح أهلا للاكتساب، جاز للأب أن يتخلى عن كفالته و الإنفاق عليه، و لكن البنت إذا بلغت الحنث، لم تزل مسؤولية تربيتها و كفالتها و الإنفاق عليها على الأب ما لم يتم تزويجها، بل إذا طلقت بعد الزواج أو تأيمت وفقدت زوجها – لا سمح الله تعالى بذلك – عادت مسؤولية الكفالة إلى الأبوين، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ، حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ " وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ". ([3]).

---

[1] - أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " رقم ٩٤٧، و النسائي في الكبرى رقم ٩٢٣٦، و إسحاق بن راهويه في مسنده رقم ٢١٠٣، و إسناده صحيح.

[2] - أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٦٩٦، و أبوداود رقم ٤١٤٩، و هو حديث صحيح.

[3] - أخرجه البخاري في "الأدب" رقم ٨٩٤، ومسلم (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤)، وعبد بن حميد رقم ١٣٧٨،، وابن أبي الدنيا في "العيال" (١١٠)، وابن حبان (٤٤٧، و أحمد رقم١٢٤٩٨.

و من واجباتهما كذلك اختيار زوج مناسب للبنت و القيام بمهمة التزويج. و قد منح الإسلام البنات كالأبناء حق الميراث، و هن من الأقرباء الذين لا يحرمون من الميراث أبدا.

لماذا يقل نصيب النساء في الميراث من الرجال؟:

قد جعل نصيب البنات بالنسبة إلى البنين نصفا بلا شك، و الأمر لا يقتصر عليهن فحسب، بل جعل نصيب الأم بالنسبة للأب نصفا، و نصيب الزوجة بالنسبة إلى الزوج نصفا، و نصيب الأخت بالنسبة للأخ نصفا كذلك، و أنصبة النساء في الميراث في معظم الحالات نصف. و قد يستشكل عليه بعض الناس، و يعتبرونه ظلما مع النساء، و يجعلونه من باب التفرقة على أساس " الجنس ". و لكن إن تدبرنا في هذه القضية على أساس خلفية النظام الاجتماعي الإسلامي ليتبين لنا بصفاء أن هذا القانون مبني على غاية من العدل و الاتزان، و ذلك أن الإسلام ألقى جميع المسؤوليات المالية على الرجال من مصاريف ذاتية، و مطالب الزوجة و حاجياتها، و كفالة الأولاد و نفقات تعليمهم و تربيتهم و تزويجهم، و كفالة الوالدين المسنين، و القيام بقضاء حاجات الأخت المطلقة و الأرملة في بعض الأحوال، بينما لم يحمل المرأة أية مسؤولية مالية، لا بالنسبة إلى ذاتها، و لا الزوج، و لا الأولاد. و هذا من حيث الظاهر يقتضي أن تتضاعف أنصباء الرجال عدة أضعاف، لا ضعفين فقط، و لكن الشريعة الإسلامية راعت الضعف الفطري للنساء، و حرمانهن من أهلية الاكتساب، و عواطفهن الطبعة من المرونة واللطف، فما ألقت عليهن مسؤوليات، و جعلت لهن في الميراث كذلك النصف بالنسبة إلى أنصبة الرجال. فهذه مراعاة خاصة عوملت النساء بها، و تم بها سلوك العطف و الرحمة معهن، و ليس فيه ظلم و جور، و لا تعتمد

هذه التفرقة على أساس " الجنس "، بل تم تحديد الحقوق و تعيينها بالنسبة إلى المسؤوليات.

نظرة على حقوق الزوجات:

التأكيد الذي قام به النبي – صلى الله عليه و سلم – على معاملة الزوجات معاملة جميلة، و التوجيه الذي تكرر منه – صلى الله عليه و سلم – يندر نظيره، فقد لفت – صلى الله عليه و سلم – انتباه الرجال إلى السلوك الجميل مع النساء إلى أن توفي – صلى الله عليه و سلم -، و استرعى انتباههم إليه حتى في خطبة حجة الوداع كذلك ([1])، و النصائح التي وجهها إلى أمته في مرض وفاته ركز فيها كذلك عليه ([2])، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ خلقا". ([3]). و عن عائشة - رضي الله عنها -: قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ المؤمنينَ إِيمَانا: أَحسَنَهُمْ خُلُقا، وَأَلْطَفهُمْ بِأَهْلِهِ ". ([4]). وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي ". ([5]). و حمل النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – الزوج مسؤولية قضاء جميع حاجات الزوجة و مطالبها من المطعم و المشرب و الملبس و الكسوة و العلاج و الدواء و أشياء الزينة و التجميليات و مواد التجميل ومستحضراته ؛ فإن النفقة التي أمرت الشريعة بها يدخل فيها جميع مستلزمات حياتها.

---

[1] مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: ١٢١٨

[2] بخاري كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم الحديث: ٤٨٩٠

[3] - أخرجه أحمد رقم ٧٤٠٢، و ابن حبان (٤٧٩)، والآجري في "الشريعة" ص ١١٥، والترمذي (١١٦٢)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (١٢٩١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٩٨١)، و هو حديث صحيح.

[4] - أخرجه الترمذي رقم ٢٦١٢، و أحمد رقم ٢٤٢٠٤، و النسائي في "الكبرى" (٩١٥٤)، و هوحديث صحيح لغيره.

[5] - أخرجه أبو داود رقم ٤٨٩٩، والترمذي رقم ٣٨٩٥، و هو حديث صحيح.

و للمرأة الأخذ من مال الزوج بقدر الحاجة بدون إذنه إذا كان يقتر و يبخل مع السعة، و إن كان أخذ مال الغير بدون طيب نفسه محرما و موجبا للإثم الكبير، فقد حضرت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان إلى النبي – صلى الله عليه و سلم – و اشتكت إليه أن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني من المصاريف و النفقات ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل يجوز لي ذلك ؟فعن عَائِشَةَ أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ:إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ ". ([١]).

و منح للمرأة حق زيارة المحارم، و إن كان الوالدان يعيشان في مدينتها أو قريتها التي تعيش فيها، فلها زيارتهما في الأسبوع مرة و إن لم يأذن الزوج بها ([٢]).و راعت الشريعة كذلك حاجات المرأة الفطرية، فقد كان الناس يؤلون قبل الإسلام لعدم القربان من الزوجة ([٣])، فقضى النبي – صلى الله عليه و سلم – على مثل هذا الظلم و العدوان، فإذا قال رجل لامرأته: والله لا أقربك، أو قال: والله لا أقربك أربعة أشهر، ولم يقربها حتى مضت أربعة أشهر بانت منه بتطليقة، وعن عثمان و علي والعبادلة الثلاثة أنهر قالوا: إذا الي فلم يفئ حتى إذا مضت أربعة أشهر فهي تطليقة بائنة (أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الطلاق، رقم: ١٨٥٤٥)، و هذا ما سمي في الفقه الإسلامي بـ " الإيلاء ".

و كان الناس يسبون ويشتمون زوجاتهم و يغتابونهن، فنهى الرسول – صلى الله عليه و سلم – عن كل ذلك، و كان " الظهار " طريقة من طرق الشتم، و الظهار يعني تشبيه الزوجة بالأم أو الأخت، فتم النهي عنه في الإسلام، و جاء في الشريعة أنه إذا قام شخص بتشبيه المحللة بالمحرمة، فلا

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٢٢١١، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٧١٨٠، و مسلم رقم ١٧١٤.

[٢] الهندية ٥٥٧/١

[٣] سوره بقره: ٢٢٧

يجوز له أن يقترب من زوجته حتى يؤدي كفارته، فحرم الوطء ودواعيه إلى أداء الكفارة، و شددت الشريعة فيها، فَجعلت كفارته صِيَام شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَام سِتّينَ مِسْكِينًا ([1]).

الأمر بالمعاشرة بالمعروف:

جاء تعبيردقيق جامع للغاية عن المعاملة الجميلة مع الزوجات في القرآن الكريم و الحديث الشريف، و هي معاشرتهن بالمعروف، حيث قال تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ). [٤ / النساء: ١٩]. و المعروف يعني الطريقة الحسنة التي تألفه الطباع السليمة ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة، فقد دخل فيها كل خير مع الزوجة، فليقم الزوج بالإجمال و التحسين و التطييب في الطعام و الشراب، و اللباس و الكسوة، و الحديث و الكلام، و أسلوب الخطاب و الحوار، و المعاملة مع أهلها و أقربائها و أسرتها، و احترام عواطفها و رعاية مشاعرها.

و جميع حقوق الزوجة التي وضعها الفقهاء تمت فيه مراعاة القول الإلهي المتقدم و التوجيه النبوي – على صاحبه ألف ألف صلاة و سلام – الوارد في مصادر السنة بصفة رئيسية. حتى حمل الزوج مسؤولية توفير الخادم للزوجة، إن كان يستطيع ذلك، بل رأى الإمام أبويوسف لزوم توفير خادمين: واحد منهما يعمل أعمال البيت، و الثاني منهما يعمل أعمال خارج البيت. جاء في الهداية في فروع الحنفية: " ولا تفرض لأكثر من نفقة خادم واحد، وهذا عند أبي حنيفة ومحمد - رحمهما الله- وقال أبو يوسف: - رحمه الله -: تفرض لخادمين؛ لأنها تحتاج إلى أحدهما لمصالح الداخل، وإلى الآخر لمصالح الخارج. ولهما أن الواحد يقوم بالأمرين، فلا ضرورة إلى اثنين ". ([2]). و جاء في " بدائع الصنائع ": " وَإِنْ كان لها خَادِمٌ يَجِبُ لِخَادِمِهَا أَيْضًا النَّفَقَةُ

[1] سوره مجادله: ٤-٣.

[2] - المرغيناني، الهداية ٢ / ٤١، المكتبة الإسلامية.

وَالْكِسْوَةُ إِذَا كانت مُتَفَرِّغَةً لِشُغْلِهَا وَلِخِدْمَتِهَا، لَا شُغْلَ لها غَيْرُهَا؛ لِأَنَّ أُمُورَ الْبَيْتِ لَا تَقُومُ بها وَحْدَهَا فَتَحْتَاجُ إِلَى خَادِمٍ، وَلَا يَجِبُ عليه لِأَكْثَرَ من خَادِمٍ وَاحِدٍ فِي قَوْلِ أبي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ، وعند أبي يُوسُفَ: يَجِبُ لِخَادِمَيْنِ، وَلَا يَجِبُ أَكْثَرُ من ذلك، وَرُوِيَ عنه رِوَايَةٌ أُخْرَى: أَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا كانت يَجِلُّ مِقْدَارُهَا عن خِدْمَةِ خَادِمٍ وَاحِدٍ، وَتَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ من ذلك يَجِبُ لِأَكْثَرَ من ذلك بِالْمَعْرُوفِ، وَبِهِ أَخَذَ الطَّحَاوِيُّ ". ([1]).

و قد كانت معاملة النبي – صلى الله عليه و سلم – العامة مع أزواجه الكريمات الطاهرات تتصف بالشفقة و العطف و المودة، و العفو و الصفح، و المباسطة و الملاطفة، و البعد عن الكلفة و ما يتجشم به من أنواع المجاملات، و كان لا يمتعض من الرد عليه من قبل الأزواج المطهرات في بعض الأحيان، و مما يدل على مباسطته و كون حياته مع الأزواج بعيدة عن الكلفة أنه – صلى الله عليه و سلم – قال للسيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها -: إنى لأعرف غضبك علي ورضاك عني، فعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟فَقَالَ:أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ ". ([2]). و يمكن لنا أن نقدر به أنه – صلى الله عليه و سلم - كم كان يعامل الأزواج المطهرات بلطف و فكاهة و ملاطفة.

فلنتدبر أنه – صلى الله عليه و سلم – قد أكرم بالنبوة، وملك زمام الحكم في جزيرة العرب كلها، وكان يتشرف بالحضور عليه وفود من بلاد

[1] - الكاساني، بدائع الصنائع ٤ / ٢٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢م.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٥٢٢٨، ٦٠٧٨، و مسلم رقم ٢٤٣٩ بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

مختلفة و قبائل شتى، و يحكم في القضايا التي ترفع إليه، و يقوم بتسوية الشكاوى، و يوزع بنفسه الغنائم و يجري العطايا من " بيت المال "، و يزين محافل الموعظة و النصيحة، و يقوم بواجب التعليم ليل نهار؛ لأن مهمته الرئيسية، و صفته الحقيقية بالنسبة للبشرية هي كونه معلما لها، فقد جاء عنه في القرآن الكريم: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ). [٦٢/ الجمعة: ٢]. و قد يضطر إلى الخوض في المعركة حينا لآخر، و لكن رغم هذه الأشغال الكثيرة المتنوعة لا يسعه أن يتخلى من الواجبات العائلية. و قد تعود على الذهاب إلى بيوت أزواجه المطهرات بعد العصر، و السؤال عن حاجياتهن و مطالبهن، و المشاركة في أعمالهن، و كان يقيم من المغرب إلى العشاء في بيت الزوجة التي لها نوبتها، و تجتمع الأزواج المطهرات الأخرى فيه، فكان يواصل معهن الحوار، و الموعظة و النصيحة و التذكير بالآخرة.

و كانت السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها – صغيرة السن حين أصبحت حرما للنبي – صلى الله عليه و سلم -، فراعى النبي – صلى الله عليه و سلم – صغر سنها هذا، حتى أراها لعب الحبشة، و هو – صلى الله عليه و سلم – قائم، و ما برح مكانه و مازال عنه حتى تعبت هي بنفسها، فعن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْوِ ". ([1]). و حين دخلت أم سلمة – رضي الله تعالى عنها – في نكاحه، جاءت بأطفال لها أيتام، فسلك معهم سلوك عطف و مودة، حتى لم يشعروا بيتم، و لم يدر بخلد أم سلمة في حين من الأحيان أن وجود هؤلاء الأيتام يؤدي إلى امتعاض النبي – صلى الله عليه و سلم – منهم. ([2]).

[1] - أخرجه البخاري رقم ٥٢٣٦، و مسلم رقم ٨٩٢.

[2] - أخرجه النسائي كتاب النكاح، رقم الحديث: ٣٢٥٤

و من الميسور لأهل الثروة و الغنى إعطاء البيسات (Paises) و الربيات (Rupees) و الدراهم و الدنانير و الأموال الطائلة للمرأة، و إغراقها في الحلي، و لكن ليس من السهل مراعاة العواطف و احترام المشاعر و الطبيعة و المذاق في كل خطوة مثل هذه المراعاة مع الأشغال في الحياة بهذا الحد، و التقيد بالأعمال و الأفعال المتنوعة خارج البيت. فالمعاشرة بالمعروف ليست في الحقيقة إلا عبارة عن سمو الأخلاق و السماحة و رحابة الصدر و الكرم، مثل ما قام به النبي – صلى الله عليه وسلم -.

حق الميراث و الحضانة:

منحت الشريعة الزوجة حق الميراث في تركة الزوج وما يتركه من مال و عقار و ممتلكات، و الزوجة من المستحقين الذين لا يحرمون أبدا، و إن حدثت تفرقة و انفصال بين الزوجين – لا قدر الله ذلك -، ففي هذه الحالة تعتبر قضية حضانة الأولاد من أهم القضايا، و نظرا إلى حنان الأمومة فضل النبي – صلى الله عليه و سلم – الأم في حق الحضانة، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ امْرَأَةً أَتَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً، وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً، وَزَعَمَ أَبُوهُ أَنَّهُ يَنْزِعُهُ مِنِّي ؟قَالَ: " أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي ". ([1]).

و رفعت قضية عمر – رضي الله عنه – ذاته في عهد خلافة أبي بكر – رضي الله تعالى عنه -، فقد طلق واحدة من زوجاته، كانت من منطقة " قباء"، و كانت الأولاد تحت حضانتها، ورأى عمر يوما ما ابنه، فجاء به إلى بيته، فاشتكت الأم إلى أبي بكر – رضي الله عنه -، فاستدعي عمر –رضي الله عنه -، و صدر الحكم ضده، و قال أبو بكر – رضي الله تعالى عنه – بهذه المناسبة كلاما جميلا هادفا مجديا جدا، و هو: " ريقها خير له من عسلك "، ففي " الهداية ": " وإليه أشار الصديق - رضي الله عنه - بقوله: " ريقها خير له

[1] - أخرجه وأبو داود رقم ٢٢٧٦، و عبد الرزاق (١٢٥٩٧)، و أحمد رقم ٦٧٠٧، و هو حديث حسن.

من شهد وعسل عندك يا عمر، قاله: حين وقعت الفرقة بينه وبين امرأته، والصحابة حاضرون متوافرون ". ([1]). و عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ طَلَّقَ أُمَّ عَاصِمٍ , ثُمَّ أَتى عَلَيْهَا , وَفِي حِجْرِهَا عَاصِمٌ , فَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْهَا , فَتَجَاذَبَاهُ بَيْنَهُمَا حَتَّى بَكَى الْغُلاَمُ , فَانْطَلَقَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ، مَسْحُهَا وَحِجْرُهَا وَرِيحُهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْك، حَتَّى يَشِبَّ الصَّبِيُّ فَيَخْتَارَ". ([2]).

فالبنت تبقى عند الأم حتى تحيض، والأم أحق بحضانة الغلام كذلك ما لم يصبح ابن سبع سنين، و بعد بلوغ هذا السن و إن يكن تحت رعاية الأب نظرا إلى تعليمه و تأديبه وتثقيفه، و لكن ما زالت علاقته بالأم باقية، و يحق له زيارة أمه،كما يحق للأم زيارته بكل حرية.

إباحة تعدد الزوجات:

قد يخالج صدر كثير من الناس بشأن القانون العائلي في الإسلام أنه – صلى الله عليه و سلم - أباح للرجل تعدد الزوجات و اتخاذ أكثر من واحدة من الزوجات، فله أن يتزوج أربع نساء في وقت واحد، فلماذا أباح هذا التعدد ؟فإنه يعتبر نوعا من الجور مع النساء. فأقول في جوابه بأنه لا شك أن الإسلام أباح تعدد المنكوحات؛ بل ثبت إذنه بالقرآن الكريم ذاته، و ثبت بالحديث كذلك، و قد اتخذ النبي – صلى الله عليه و سلم – نفسه أكثر من واحدة من الزوجات. و إذا تدبرنا بعين الحقيقة و الواقعية لأدركنا أن هذا من محاسن الإسلام، و ليس فيه عيب؛ فإنه من باب رعاية الفطرة البشرية، و القضاء بالحاجة الاجتماعية الكبرى، و لا يغيبن عن البال بهذا الشأن ما يلي:

١ – لا يوجد في العالم ديانة حظرت على تعدد الزوجات، فيما يغلب على الظن، فقد امتلأت الصحف الإسرائيلية بذكره، فقد جاء في الكتاب المقدس ذكر زوجات عديدات لموسى، و داود، و سليمان – على نبينا و عليهم

[1] - المرغيناني، الهداية ٢ / ٣٧.
[2] - أخرجه ابن أبي شيبة رقم ١٩٤٦٤.

السلام -. و جرت العادة بتعدد المنكوحات في الديانة الهندوسية كذلك، فقد اعترف " مالك راما " بذاته بهذا الأمر، بل تدل كتب الهندوسية على إباحة تعدد الأزواج أيضا، و قصة " دروفدي " مشهورة جدا بهذا الشأن. فينبغي عدم عد الإسلام بهذا الصدد وحيدا.

٢ – الأرض المباركة التي نبتت فيها شجرة الإسلام أول مرة هي شبه جزيرة العرب، والتي أبيح فيها تعدد الزوجات بدون حد، و جاء في الأحاديث الشريفة ذكر بعض الأشخاص الذين كانت لهم عشر زوجات وقت اعتناق الإسلام، فعن عبد الله بن عمر: " أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره النبي - صلى الله عليه و سلم - أن يتخير أربعا منهن ". ([1]). فقد حدده الإسلام مع الإباحة، وقيد الإباحة المطلقة، و عين أصولا و مبادئ و وضع شروطا لتعدد المنكوحات، و من أهمها أنه لا يستفيد من هذه الإباحة إلا من كان أهلا للتعدد و الإنفاق عليهن و أداء كل نوع من أنواع حقوقهن ، و كان مقتنعا بأنه يستطيع إقامة العدل و المساواة بينهن بعد النكاح، فإن لم يكن أهلا فلا يباح له التعدد، حيث قال تعالى: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً). [٤ / النساء: ٣].

ثم ركز النبي – صلى الله عليه و سلم – على العدل و المساواة بين الزوجات بعد النكاح تركيزا بالغا، و حققه في حياته العملية، فقد قال – صلى الله عليه و سلم – من لم يستخدم العدل بين الزوجات، يبعث يوم القيامة و جزء من بدنه مشلول، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أَنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " مَنْ كانت له امرأتان فلم يَعْدِلْ بينهما جاء يوم القيامة وشِقُّهُ ساقط ". ([2]). وعند أبي داود: "مَن كانت له امرأتان فمال إِلى إِحداهما جاء يوم القيامة وشِقُّهُ مائل". ([3]). وعند النسائي: " يميل

[1] - أخرجه الترمذي رقم ١١٢٨، و هو حديث صحيح. وتقدم تخريجه.
[2] - أخرجه الترمذي رقم ١١٤١، و هو حديث صحيح.
[3] - أخرجه أبوداود رقم ٢١٣٣.

لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شِقيه مائل". ([1]).

٣ – تعدد الزوجات للرجال يصبح حاجة اجتماعية عمرانية في بعض الأوقات، و ذلك أن الرجال هم الذين يذهبون ضحايا في الحرب، و هم الذين يقومون بالأعمال الشاقة الخطيرة في الغالب، فهم الذين يسقطون فرائس للحوادث و الكوارث في معظم الأحيان. و بالتالي تزداد نسبة النساء في العمران في كثير من الأوقات. و من هنا اختل التوازن بين السكان في الدول المختلفة المساهمة في الحرب بعد الحرب العالمية الأولى و الحرب العالمية الثانية، و انخفضت نسبة الرجال بالنسبة إلى النساء إلى الثلث في " ألمانيا ". فإن لم يبح التعدد في هذه الأوضاع، و أغلق القانون هذا الباب تماما، فكيف تنحل مشاكل هؤلاء النسوة اللائي ليس لهن رجال ؟فإباحة التعدد للرجال في بعض الأحوال حاجة من حاجات النساء أنفسهن.

و زد إلى ذلك أن التعدد قد يدعو إليه قوى بعض الرجال، و قد يستمر المرض بامرأة، و قد يميل شخص إلى امرأة بطريقة خاطئة، و لا يرضى بفراقها، فإن لم يبح التعدد في هذه الحالات، فينتج عنه أنه يطلق زوجته و يفارقها بدون سبب معقول، و يجعلها فاقدة لأسباب المعاش، و بدون ملجأ، فمن حيث الظاهر وإن كانت هذه الإباحة قد تشق على النساء، و لكنها رحمة في حقهن من حيث العواقب.

ثم من الحقيقة التي لا تجحد أن تعدد المنكوحات حيث حظر عليه بصفة قانونية، انتشر فيه تعدد الأخدان بحيث يخجل الشيطان كذلك بمشاهدة هذا المجون، فيما يغلب على الظن. و التاريخ الخلقي لروما و إيران و اليونان، و الحضارة الغربية المعاصرة مثال مكشوف له. و اعتراف المحقق الفرنسي الدكتور " ليبان " مبني على الحقيقة مائة في المائة: " بأن تعدد الزوجات قانونيا في الإسلام خير من تعدد الزوجات

---

[1] - أخرجه النسائي في الكبرى رقم ٨٨٩٠.

الغربي بصفة غير قانونية ". و من الحقيقة المكشوفة أن المجتمع الذي يعم فيه الاتصال الجنسي بين الرجل و المرأة بطريقة غير قانونية، فالمرأة هي التي تتحمل الخسارة فيه، و هي التي تقع في الاستغلال، و لذا لا يعتبر تعدد المنكوحات ظلما، و لكنه رحمة للمجتمع، و للنساء كذلك في كثير من المواضع و الأوقات، و منسجم مع الفطرة البشرية.

اختصاص الرجال بحق التطليق:

القضية الثانية التي تخالج صدر بعض الناس بشأن النظام الاجتماعي الذي جاء به النبي – صلى الله عليه و سلم – أن الإسلام منح الرجال وحدهم حق التطليق، و بذلك تتوسع اختصاصاتهم، و المرأة دائما يكون تحت سيف الطلاق. و لكن إن تدبرنا هذه القضية بطريقة غير عاطفية لأدركنا أن الإذن بالطلاق حاجة من حاجات المجتمع، و فيه صيانة حياة النساء و أعراضهن و حرمتهن بوجه خاص.

و مما لاشك فيه أن الإسلام أذن بالطلاق، و لكنه أكد كذلك أن لا يتم استخدامه إلا كوسيلة أخيرة، فقد جعله النبي – صلى الله عليه و سلم – أبغض المباحات، فعن ابن عمر عن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: " أبْغَضُ الحلال إلى اللَّه الطلاقُ". ([1]). و عن محارب بن دثار – رحمه الله تعالى - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " ما أحلَّ اللَّه شيئا أبغض إليه من الطلاق ". ([2]). و قال – صلى الله عليه و سلم -: إن المرأ إذا طلق زوجته اهتزت له دعائم عَرْش الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، فعن علي أن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش". ([3]). و قال – صلى

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٢١٧٨، وابن ماجة (٢٠١٨)، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه أبوداود رقم ٢١٧٧، و هو مرسل.

[3] - أخرجه الخطيب في " تاريخ بغداد" (١٢ / ١٩١) ومن طريقه ابن الجوزي (٢ / ٢٧٧)، بإسناد فيه مقال، و راجع: المتقي الهندي، كنز العمال رقم ٢٧٨٧٤.

الله عليه و سلم –: إن الشيطان لأشد فرحا بالفرقة بين الزوج و الزوجة، فعن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم-:" إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجئ أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجئ أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت، فيلتزمه ". ([1]).

ثم وضع القرآن الكريم مراحل قبل اختيار الطلاق، و هي: الوعظ و النصيحة، حيث جاء في القرآن الكريم: (فَعِظُوهُنَّ). [٤ / النساء: ٣٤]، فإن لم يجد ذلك، فليختر عدم الاقتراب منها لعدة أيام، فلعل ذلك يؤثر فيها، حيث قال سبحانه:(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ). [٤ / النساء: ٣٤]. فهجرها في المضجع يعني إبقائها في بيته، و عدم إخراجها من المضجع، حتى لا تقع في الذل بين الآخرين، بل يعيش معها و لكن يبتعد عن غشيانها لعدة أيام.

فإن لم يجد ذلك فيسعه التأديب القليل، حيث قال تعالى: (وَاضْرِبُوهُنَّ). [٤ / النساء: ٣٤]، و لكنه يلزم أن لا يتجاوز التأديب الحدود الشرعية، و يوضحه أقوال الرسول – صلى الله عليه و سلم – بأن لا يضرب على الوجه، و لا على الأعضاء الدقيقة من البدن، و لا يضرب بطريقة تؤدي إلى تورم الجسم وانتفاخه، و التأثير فيه، و تشقق الجلد، و تكسر العظم، فلا يؤذن بمثل هذا الضرب بحال، فعن عمرو بن الأحوص – رضي الله عنه – الذي شهدَ حجَّةً الوداع مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم – أنه مما قال في خطبته: " واستَوصوا بالنساء خيرًا، فإنَّهُنَّ عَوانٌ عندكم، ليس تملكون شيئًا غيرذلك، إلا أنْ يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلْنَ ذلك فاهجرُوهنَّ في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مُبَرِّحٍ، فإن أطعنكُم فلا تَبغوا عليهن سبيلاً، ألا وإن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأمَّا حقُّكُمْ على

---

[1] - أخرجه مسلم رقم ٢٨١٣.

نسائكم، فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُم مَن تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حَقَّهُنَّ عليكم: أنْ تُحْسِنُوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهن ". ([1]). و قد قال بعض الفقهاء إن الضرب المباح هو: أن يضربها بالسواك. ([2]). و يبدو لي أن الضرب غير مقصود، و إنما الهدف هو إيقاظ الشعور فيها بأن الأمر قد تجاوز عن الحد، فكأنها ضربت، ولا يجوز هذا أيضا إلا في وقت قامت فيه المرأة بالعدوان في الحقيقة، و على سبيل المثال: شتمت الزوج، أو لا تغتسل و هي تحتاج إليه، أو تتصل بالأشخاص الذين ليسوا بمحارم لها، أوتتحدث معهم، و الزوج لا يرضى به، أو لا تمكن الزوج من نفسها بدون عذر. و لا يجوز الضرب بسبب أنها قصرت في خدمة الزوج و أهله، أو لم تطبخ الطعام الشهي، و ما إلى ذلك. و رغم إباحة الضرب عند مساس الحاجة، جعله – صلى الله عليه و سلم – من صنيع الأشرار، فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب - رضي الله عنه -: قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لا تَضْرِبوا إماءَ الله، فجاء عمرُ إلى رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ذَئِرنَ النساءُ على أزواجهن، فرَخَّصَ في ضربهن، فأطاف بآلِ رسول الله نساء كثير يَشْكُون أَزواجهنّ، فقال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخيارِكم ". ([3]).

فإن لم تجد هذه الوسائل و التدابير، و لم تتحسن العلاقة بينهما، فيأمر القرآن في ذلك الوقت بإرسال رجلين فطينين: واحد من أسرته، و واحد من أسرتها كحكمين، ليسمعا أمورهما و يحاولا لإصلاح ذات بينهما، و يدبرا للوفاق و التأليف بين قلوبهما، فإن لم تجد هذه التدابير، و لم تترك المرأة العصيان، و لم يبق أمل في إصلاح ما بينهما، ففي ذلك الوقت أبيح الطلاق، و

---

[1] - أخرجه الترمذي رقم ١١٦٣، ٣٠٨٧، و إسناده صحيح.

[2] - راجع: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط ٣ / ١٩٦، بيروت، دار الفكر.

[3] - أخرجه الحميدي رقم ٨٧٦، والدارمي (٢٢٢٥)، وأبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجة (١٩٨٥)، و الحاكم في المستدرك رقم ٢٧٦٥، و هو حديث صحيح.

وضعت له طريقة خاصة، و هي: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه تطليقة واحدة، فتقع عليها طلقة رجعية، و تبقى الفرصة للتدبر و إعادة الأمر إلى مجراه إلى انقضاء العدة، فإن أحس الزوج بندم المرأة، أو أحسا بأن بقاء الرابطة الزوجية بينهما لازم لتربية الأولاد، فيسع الزوج أن يراجعها في حال العدة، و إن انقضت العدة، فليتم النكاح الجديد بينهما برضاهما.

فإن لم تظهر آثار الإصلاح و التحسن بعد ذلك، و لم تزل التقصيرات الموجبة للشكوى باقية، فليطلقها مرة ثانية في طهر لم يغشها فيه تطليقة واحدة، و يسع له الآن كذلك أن يراجعها قبل انقضاء العدة، و أن ينكحها من جديد بعد انقضاء العدة، فإن راجعها أو نكحها من جديد، و شعر في طبيعتها بكيفية سابقة و حالة متقدمة من عصيان و تمرد، فليلجأ إلى الموعظة، و هجرها لعدة أيام، و الضرب غير المبرح، و الردع، و محاولة الإصلاح عن طريق شيوخ و كبار السن في أسرتهما، فإن لم يجد تدبيرما، و لم ينجع دواء ما، و لم ينفع علاج ما، و لم ينبثق حل ما، فليطلقها التطليقة الثالثة بعد تفكر كامل و روية تامة و نظر وتفكير بالغين و استشارة مع أهل العلم، و بذلك تنتهي العلاقة الزوجية بينهما بتمام. فهذه هي مراحل أباح الشرع التطليقات الثلاث بعد المرور بها. فالذين لا يراعون هذه الأمور و يقدمون على التطليق بدونها، إنهم يسيئون في استخدام قانون الشريعة في الحقيقة، و لا تحمل القانون بذاته مساوي ومعايب ناتجة عن إساءة استعمال القانون.

الطلاق وسيلة للحفاظ على أنفس النساء و أعراضهن:

تم في الحقيقة عن طريق قانون الطلاق الحفاظ على أنفس النساء و أعراضهن و حرمتهن و كرامتهن، فإن نشأت الكراهية في قلب رجل ضد زوجته، و إن لم يكن لها أساس مشروع، و مع ذلك إذا لم يوفر له طريق

قانوني للنجاة و الخلاص من تلك المرأة، فإنه يلجأ إلى طريقة غير مشروعة، و يتعرض للعدوان على حياتها. و من الحقيقة أننا نرى في الوقت الحاضر أن القتل في بلادنا أسهل من الزنى و السرقة، و إن قتل رئيس الوزراء كذلك علانية على مرأى و مسمع من الناس، فيستغرق إثبات الدعوى العشرات من السنين،فإن حرم زوج في الأوضاع الراهنة زوجته من حياتها و قتلها في الخلوة، فمن يستطيع إمساك يده ؟فإباحة الطلاق في مثل هذه المرحلة تصبح وسيلة لسلامة المرأة. و من هنا نشاهد شيوع أحداث قتل الزوجات و إحراقهن في مجتمع هندوسي، رغم أنه في أحسن حال و أفضل وضع من حيث المادة والاقتصاد و التعليم العصري. و تدل الإحصائيات على أن عروسا تحرق في كل اثنتى عشرة ساعة. و المسلمون أفضل من هذه الناحية رغم فقرهم و أميتهم و تخلفهم، و لا تحدث مثل هذه الحوادث في مجتمع مسلم إلا نادرا، و ما هي إلا نتيجة للإباحة القانونية للطلاق.

وفي الطلاق صيانة أعراض المرأة و حرمتها و كرامتها كذلك، فلم يفوض حق الطلاق إلى المحكمة في مكان، و لم يجبر الرجل على تقديم جريمة تبرر جواز الطلاق، إلا كان أسهل أمر هناك للرجال أن يصموا سيرتهن، و أن يجرحوا عفتهن. و ليس وصم الأعراض إلا عبارة عن حرمان المرأة من الحياة الكريمة في كل مجتمع نبيل، و بالأخص في مجتمع المنطقة الشرقية، و إن كانت المرأة لم تقترف الفاحشة في الحقيقة، و مع ذلك تسقط من أعين الناس، ولا تعود لها مكانة. و اذهب إلى المحاكم، لتشاهد مثل هذه الحوادث كل يوم. فقد قام الإسلام بالحفاظ على أعراض النساء و حرمتهن و كرامتهن كذلك بمنح حق الطلاق للرجال. و لا يحب النبلاء الكرماء إخراج مثل هذه الأمور إلى حيز الظهور، و إن حدث مثل هذه الحوادث البغيضة عندهم، فإنهم لا يظهرونها بسبب حق الطلاق الممنوح لهم.

ثم لم يجعل الإسلام حق الطلاق للرجال فحسب؛ بل جعل

للنساء طريقا للنجاة كذلك، و هو إباحة الخلع، و هو: يعني أن المرأة إذا كرهت زوجها، فلترض زوجها بتطليقها بالعفو عن مهرها أو بإعطاء شيء من مالها. و إن كان الشقاق بين الزوجين شديدا، و أدرك القاضي أن من العسير معاشرتهما معا، فله أن يستخدم سلطته و يجبر الزوج على الخلع، فقد رفع إلى النبي – صلى الله عليه و سلم – أمر ثابت – رضي الله عنه – مثله، فأمر زوجته برد الحديقة التي أعطيت لها في المهر، و قال لثابت أن يطلقها، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: اقْبَلْ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً ". ([1]).

و يرى المجتهد الكبير و الفقيه الشهير الإمام مالك أن للقاضي إجبار الطرفين على الخلع، إن لم يمكن تسوية النزاع و إقامة الصلات الودية بين الزوجين، و تقوية العلاقات بينهما. و للمرأة رفع أمرها إلى القاضي، إن كان الاعتداء و التعنت و القسوة من الزوج، أو كان يقصر في حق مشروع لها، أو كان غير أهل لأداء الحقوق الزوجية من ناحية، أو يظلم على المرأة، و للقاضي إنهاء النكاح بعد تمام عملية التحقيق. حيث جاء في " الشرح الكبير " في فروع المالكية: " (ولها) أي للزوجة (التطليق) على الزوج (بالضرر) وهو: ما لا يجوز شرعا، كهجرها بلا موجب شرعي، وضربها كذلك، وسبها وسب أبيها نحو: يا بنت الكلب، يا بنت الكافر، يا بنت الملعون، كما يقع كثيرا من رعاع الناس، ويؤدب على ذلك زيادة على التطليق.... ومتى شهدت بينة بأصل الضرر فلها اختيار الفراق..... ويجري

[1] - أخرجه البخاري رقم ٥٢٧٣، و النسائي رقم ٣٤٦٣، و ابن ماجه رقم ٢٠٥٦.

هنا هل يطلق الحاكم أو يأمرها به، ثم يحكم ؟قولان ". ([1]).

و هذه القوانين مستفادة من أقوال النبي – صلى الله عليه و سلم – التي رويت عنه – صلى الله عليه و سلم – بشأن حقوق الزوجة.

فمما لا شك فيه أن قانون الطلاق في الإسلام رحمة و نعمة في حق النساء، و لم يكن فكرة الطلاق في الديانة الهندوسية و الديانة المسيحية، و كان النكاح حسب قانونهما غلا لا يمكن فكه، و إن تلطخت الحياة الزوجية بالدماء، و استعصت وتصعبت مسيرتها . فأرشدهم الإسلام إلى الطريق الصحيح، و تمت الاستفادة من قانون الطلاق في الإسلام في معظم قوانين الشرق و الغرب، و لكن مما يؤسف له أن الناس بدلا من الاعتراف بانسجام هذا القانون مع المصالح الاجتماعية و الحاجات و المستلزمات الفطرية، يجعلونه عرضة للطعن و الانتقاد، و ما أجمل ما قال الشاعرالأردي: " سمي العقل جنونا، و الجنون عقلا، و هذا من غرائب ما يصنعه جمالك ".

مرتبة الأم و مكانتها في نظر الرسول الكريم –صلى الله عليه و سلم-:

أهم الدور الذي تلعبه النساء في الحياة الاجتماعية هو دور الأم، و قد أحلها النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – في محل التكريم و الاحترام لا يمكن أرفع منه فيما يغلب على الظن، و كما فضل النبي – صلى الله عليه و سلم – الزوجة على البنت في الحضانة، فكذلك راعى الزوجة في الحقوق الزوجية أكثر من الزوج، و أكد على حقوقها تأكيدا بالغا، و وضع حقوق الأم كذلك أكثر من حقوق الأب، و بيّن فضل الأم أكثر من فضل الأب، فجعل الجنة تحت أقدام الأم، و قال عن الأب: إنه باب الجنة، فعن جاهمة السلمي أنه جاء إلى النبي - صلى الله عليه و

[1] - الدردير المالكي، الشرح الكبير، باب في النكاح، فصل إنما يجب القسم على الزوج البالغ للزوجات ٢ / ٣٤٥، بيروت، دار الفكر، تحقيق: محمد عليش.

سلم- فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك. فقال: هل لك من أم ؟قال: نعم، قال: فالزمها؛ فإن الجنة تحت رجلها ". ([1]). و عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى أَبَا الدَّرْدَاءِ، فقَالَ: إِنَّ أَبِي لَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى تَزَوَّجْتُ، وَإِنَّهُ الآنَ يَأْمُرُنِي بِطَلاَقِهَا، قَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تَعُقَّ وَالِدَكَ، وَلاَ أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تُطَلِّقَ امْرَأَتَكَ، غَيْرَ أَنَّكَ إِنْ شِئْتَ، حَدَّثْتُكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، سَمِعْتُهُ، يَقُولُ: الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَحَافِظْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ، أَوْ دَعْ ". ([2]). ورد – صلى الله عليه و سلم - على سؤال صحابي، فذكر برالأم ثلاث مرات، و بر الوالد مرة واحدة، و ذلك في المرة الرابعة، فعن معاوية بن حَيْدة القشيري – رضي الله عنه - قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَبَرُّ ؟قَالَ: " أُمَّكَ ". قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ ؟قَالَ: " ثُمَّ أُمَّكَ ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَنْ ؟قَالَ: " أُمَّكَ ". قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ ؟قَالَ: " ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ ". ([3]). و لذا ينبغي للمرء أن يحاول أن يقوم بكفالة الوالدين و الإنفاق عليهما، و قضاء ما يحتاجان إليه من طعام وكساء وغيرهما، مما تيسر له، و إن لم يكن في وضع يستطيع كفالتهما، فحسب ما كتب الفقهاء: يجب كفالة الأم، و تكون حاجاتها مقدمة.

و بلغت مراعاة حقوق الأم عند النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى حد أن آمن شخص، و لم تؤمن أمه، و سألت ابنه: بأية معاملة مع الأم يأمرها نبيك ؟فأجاب: أنه يأمر بأفضل سلوك مع الأم، فتركت الطعام

---

[1] - أخرجه النسائي رقم ٣١٠٤، و أحمد الشيباني في " لآحاد والمثاني" رقم ١٣٧١، و البيهقي في شعب الإيمان رقم ٧٨٣٣، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه ابن حبان رقم ٤٢٥، وابن ماجة رقم ٢٠٨٩، و الحميدي رقم ٣٩٥، والترمذي رقم ١٩٠٠، وأخرجه من غير قصة الطلاق: الطيالسي رقم ٩٨١، و هو حديث صحيح.

[3] - أخرجه البخاري في " الأدب المفرد" رقم٣، وأبو داود(٥١٣٩)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار"(١٦٦٧) و(١٦٦٨)، و الطبراني في "الكبير" ١٩/ (٩٦٢)، والحاكم ١٥٠/٤، والبيهقي في "الشعب" (٧٨٤٠)، و عبد الرزاق (٢٠١٢١)، وهناد في "الزهد" (٩٦٥)، و أحمد رقم ٢٠٠٢٨، و هو حديث صحيح.

و الشراب، و قالت: لن آكل الطعام حتى تبتعد عن الإيمان به – صلى الله عليه و سلم -، و كان الوضع مقلقا جدا للصحابي – رضي الله عنه -، فحضر إلى النبي – صلى الله عليه و سلم – و عرض عليه ما يواجهه من الصعوبة و المشكلة، فقال – صلى الله عليه و سلم -: لا بد من الاستمرار على الإيمان، و إطعام الأم، فكان يطعم والدته جبرا بعد ما جاعت مرة أو مرتين، و يحتمل كل نوع من أنواع غضبها، و المرارة الصادرة عنها، و فظاظتها و خشونتها و مهاجمتها بأقسى الكلمات، فعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال:" أُنزلت فيَّ أربعُ آيات من القرآن، قال: حَلَفَتْ أمُّ سَعْد أن لا تكلِّمَه أبدا حتى يَكفُر بدينه، ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زعمتَ أن الله وصَّاكَ بوالديك فأنا أمُّك، وأنا آمرُك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثا حتى غُشيَ عليها من الجَهد، فقام ابن لها يقال له: عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية (ووصينا الإنسان بوالديه حُسنا). [٢٩ / العنكبوت: ٨] و(وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا). [٣١ / لقمان:١٥]. ([1]).

الطاعة و الامتثال لأمر الأم:

لم يوجب الإسلام كفالة الأم فحسب، بل أمر بطاعتها و امتثال أمرها إذا لم تأمر بالمعصية، فقد قال – صلى الله عليه و سلم -: يلزم السلوك الجميل مع الوالدين و إن ظلما، فعن حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، كَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا فَقَالَ: طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَأَتَى عُمَرُ رَسُولَ

[1] - أخرجه مسلم رقم ١٧٤٨، و البخاري في " الأدب المفرد " رقم ٢٤، وأبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (٣٩٣٠)، و أبو يعلى في مسنده رقم ٧٨٢، و المروزي في " البر والصلة" رقم ٥٧، و عبد بن حميد الكسي في مسنده رقم ١٣٢، و البيهقي في " شعب الإيمان " رقم ٧٥٥٦، و البزار في مسنده رقم ١١٤٩، و أحمد في مسنده رقم ١٥٦٧.

اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: " أَطِعْ أَبَاكَ ". ([١]). و لكن طاعة الوالدين و طاعة شخص مباحة مادام لم يأمرا أو لم يأمر بمعصية، فإن أمرا بشيء يخالف الشرع، فلا تجوز طاعتهما؛ لأن طاعة مخلوق مع معصية الخالق لا تباح، فعَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: " لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ". ([٢]). و عنه – رضي الله تعالى عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: " لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ ". ([٣]). و من أمثلة المعصية: المطالبة بالمبلغ باسم " الدوطة لأجل الزواج، و الرغبة في النكاح بطريقة غير مشروعة، و إن أصر الوالدان على مثل هذه الأمور فلا يجوز طاعتهما. و إن قالت الأم للابن: عليك أن تطلق زوجتك بدون سبب شرعي، فلا يجب طاعتها، و ليحاول إفهام الأب أو الأم بمحبة و شفقة، و ينبغي للوالدين كذلك أن لا يأمرا الأبناء بما يدفعهم إلى الإنكار و الرفض.

النصيب في الميراث:

منحت الشريعة الأم النصيب في الميراث، كما جعلت الزوجة و البنت صاحبتي نصيب في الميراث، و إن توفي الأولاد و الأم حية، فلها نصيب في تركتهم، و هي أيضا من الوارثين الذين لا يحرمون بسبب وجود قريب آخر.

و ملخص القول أن الكرامة التي خولها الإسلام، ليس لها نظير في التاريخ البشري، والتأكيد البالغ الذي به لفت النبي – صلى الله عليه و سلم – انتباه الأولاد إلى حقوق الأم، لا يوجد ذلك التأكيد و الاهتمام في ذكر حقوق الأقرباء و المستحقين الآخرين.

---

[١] - أخرجه أبو داود رقم ٥١٣٨، والترمذي (١١٨٩)، وابن ماجه (٢٠٨٨)، والطيالسي (١٨٢٢)، وابن حبان (٤٢٦)، و أحمد رقم ٤٧١١، و هو حديث صحيح.

[٢] - أخرجه عبد الله في زوائد المسند رقم ١٠٩٥، و هو حديث صحيح.

[٣] - أخرجه البخاري رقم ٧٢٥٧، و مسلم رقم ١٨٤٠، و أبوداود رقم ٢٦٢٥، و ابن حبان رقم ٤٥٦٧، و أحمد رقم ٧٢٤.

الكلمة الأخيرة:

كل من يدرس هذه القوانين التي منحها النبي – صلى الله عليه و سلم – البشرية بعين العدل و الواقعية ، و الابتعاد عن العناد و الجحود و ضيق النظر و القلب، و يستعرض أقوال الرسول – صلى الله عليه و سلم – بذاته، و حياته العملية، ليعترف بأنه ليس هناك قانون أرفع من هذا القانون الذي يوافق قانون الفطرة، و ينسجم مع الحاجات و المصالح الاجتماعية. و المجال للعمل الذي وضعه – صلى الله عليه و سلم – لكلا الصنفين في الحياة العائلية، بالنظر إلى المواهب الفطرية للرجال و النساء، هو رحمة و نعمة عظيمة للمجتمع، و فيه بقاء نظام الأسرة. و لقد شتت الغرب شمل النظام الاجتماعي بالثورة على قانون الفطرة، و من هنا يكاد نظام الأسرة فيه أن ينتهي، و يكاد أن يحرم الإنسان من نسبه. حتى وصل الأمر إلى حد أنه يكتب اسم " الأم " بدلا عن اسم " الأب " للهوية في الدول الغربية. و هذا وضع مخز معير يندى له جبين الإنسانية، و لعل الشيطان أيضا يستحي برؤية هؤلاء الإنسان، و لو كانت الحيوانات تنطق لعيرت الإنسان فيما يغلب على الظن.

و لقد أضر انهيار نظام الأسرة بالنساء أكثر، فقد دفعهن ذلك إلى الخروج من البيوت لاكتساب المعاش، و القيام بالكد و الكدح، و إنجاز أعمالهن، و أداء واجبات و مسؤوليات الرجال كذلك، و صيرورتهن أداة لبيع أشياء التجارة في المتاجر، و القيام بأعمال المحلات التجارية و المكاتب و النوادي و الفنادق بالتضحية بأنوثتهن. و مما يؤسف له أن النساء لعلهن لم يكن مضطهدات بمثل هذا الاضطهاد في الجاهلية و عهد الانحطاط الحضاري، الذي واجهنه في عهد الحضارة الغربية باسم الحرية، فقد تم استعبادهن، و وقعت الاعتداءات المختلفة عليهن بطريقة ليس لها نظير في تأريخ البشرية.

فالإسلام في الحقيقة رحمة و نعمة إلهية للنساء، لا يجدن هدوء و

سكينة أعظم مما وفره الإسلام في أي مكان، و فيه كرامتهن و شرفهن، و فيه صيانة رقة أنثوية لهن، و رعاية لحاجاتهن الفطرية و مشاكلهن في كل خطوة، فجعلن ملكات البيوت بدلا عن خادمات البيت، و موظفات السوق، فلا ينخدعن بالسراب الذي زينه الجاهلية المعاصرة بحسن و سليقة و روعة عظيمة، ليتم خداعهن و استغلالهن.

الأسئلة و الأجوبة

أداء المهر بالأقساط:

السؤال الأول: هل يجوز للرجل أن يدفع المهر بأقساط (Installments):

الجواب: يجوز أداء المهر دفعة واحدة، كما يجوز بالأقساط، و هذا يتوقف على السعة المالية للرجل و تراضي الطرفين، غير أنه لا يناسب التأخير في أداء المهر بدون سبب معقول؛ لأنه من باب الدين على الرجل، و هو مسؤول عنه عند الله تعالى.

الزجر و التوبيخ على الطلاق غير المشروع:

السؤال الثاني: إذا طلق الرجل بدون سبب معقول و بدون عذر، فهل لمثل هذا الرجل عقوبة شرعا ؟

الجواب: يأثم الرجل إذا طلق بدون سبب معقول، و يمكن إجراء العقوبة على ذلك تعزيرا في ظل الدولة الإسلامية، فقد كان سيدنا عمر – رضي الله عنه – يضرب بالدرة أي السوط على من طلق ثلاثا في دفعة واحدة. و لكن لا يعطى هذا الحق الحكومة القائمة في الهند؛ لأنه يخشى أن يحدث إفراط و تفريط في تعيين أسباب الإذن بالطلاق، و لذا لسنا في صالح منح هذا الحق للحكومة، غير أنه ينبغي للمسلمين أن يحاولوا زجر مثل هؤلاء على المستوى الاجتماعي (Social level)، و أن يضغطوا عليهم ضغطا مناسبا.

هل الرجل مسؤول عن سفور الزوجة ؟

السؤال الثالث: لا تلتزم المرأة بالحجاب الشرعي، فهل الرجل مسؤول عنه؟

الجواب: جعل النبي – صلى الله عليه و سلم – كل شخص مسؤولا بالنسبة إلى بعض الأشخاص الذين هم تحت رعايته و إشرافه، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.... فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ". ([1]). و لذا إذا لم يأمر الزوج قرينته بالاحتجاب الشرعي، و لم يحاول محاولة مناسبة جادة لتغيير طبيعتها، فهو مسؤول عنه عند الله تعالى.

نظر النساء إلى الأجانب:

السؤال الرابع: تنظر إليك – أيها الشيخ الفاضل - النساء و تسمع من الأعلى، مع أن الالتزام مفروض على كلا الطرفين ؟

الجواب: يختلف حكم نظر الرجل إلى الأجنبيات عن حكم نظر المرأة إلى الأجانب، فالمرأة كلها عورة بالنسبة للرجل الأجنبي، فلا يجوز له أن ينظر و لو إلى وجهها بدون ضرورة، بينما يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل ما عدا ما بين سرته إلى ركبته، إذا لم تخف الفتنة، فإن خافت الفتنة فإنها مأمورة بغض البصر. و الدليل على جواز نظرها إلى الرجل ما عدا ما بين سرته إلى ركبته، ما يلي:

١ – أرى النبي – صلى الله عليه و سلم – السيدة عائشة – رضي الله عنها– لعب الحبشيين، فعن عائشة – رضي الله عنها -: والله، لقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه و سلم - يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله - صلى الله عليه و سلم - يسترني

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٣٨، و مسلم رقم ١٨٢٩.

بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو ". ([1]).

٢ – كانت النساء يأتين إلى المسجد في عهد النبي – صلى الله عليه و سلم – و الخلفاء الراشدين – رضوان الله تعالى عليهم – و يصلين، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كَانَتْ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ ؟قَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ ". ([2]). و من البين أن يقع نظرهن على الرجال بهذه المناسبات.

ذهاب المرأة إلى مصلى العيد:

السؤال الخامس: هل للمرأة أن تذهب إلى مصلى العيد ؟و إن كان لها ذلك، فهل يمكن لفضيلتكم أن توجه النداء إلى العامة للترتيبات للنساء في مصلى العيد ؟

الجواب: قد أبيح للنساء في عهد النبي – صلى الله عليه و سلم – الذهاب إلى مصلى العيد، وكن يحضرن في الصلوات العامة كذلك. ولا يؤذن بذلك في الأوضاع الراهنة؛ لأن الخير كان يغلب في عهد النبي – صلى الله عليه و سلم -، و كانت النساء يتصفن بغلبة الحياء، و كان الرجال يغضون أبصارهم كذلك، و قد وقع بعض الصحابة في خائنة الأعين أي في النظرة الخائنة واستراق النظر إلى المحرم بسبب الضعف البشري، فأثر ذلك فيه تأثيرا، بحيث كان لا يقدر على الحضور في مجلسه – صلى الله عليه و سلم -؛ لأن العين التي اقترفت الإثم، كيف تصلح لرؤيته – صلى الله عليه و سلم -؟ بينما لا يمكن اليوم أن نتصور مجرد التصور لتلك الحيطة في عهد الانحراف

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٤٥٤، و مسلم رقم ٨٩٢، و تقدم تخريجه.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٩٠٠، و مسلم رقم ٤٤٢.

هذا. و لا شك أن الغاية الأصلية هي الحصول على الأجر و الثواب، فالرجال ينالونه بالذهاب إلى مصلى العيد، و النساء بالقرار في البيوت و الإقامة فيها، و بالعمل بالحكم القرآني: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ). [٣٣ / الأحزاب: ٣٣] وقال رسول الله: صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها (أخرجه أبوداؤد برقم: ٥٧). و إن ذهبن إلى مصلى العيد، و حدثت حوادث مؤلمة، فإن ذلك يسيء إلى الدين و مقاماته و مواضعه المخصوصة.

النقب و البراقع ذات فتحتين للعيون:

السؤال السادس: تغطي النساء أجسادهن بالبرقع في الوقت الحاضر، وتبدو منه العينان، فما حكم الشريعة بهذا الشأن ؟

الجواب: الأفضل أن يتم استخدام البرقع ذي فتحة مشبكة، و مع ذلك يباح بدو العينين حسب ما نص عليه الفقهاء، حتى يسهل للمرأة المشي (المبسوط للسرخسي، كتاب الاستحسان: ١٥٢/١٠). و القضية الأساسية هي هيئة النقاب نفسها، فينبغي أن يكون صفيقا مصنوعا من القماش العادي، و لا يكون خلابا، بينما يصنع اليوم نقب جذابة بتصاميم (designs) حديثة مختلفة تسترعي النظر. و هذا يجرح غاية النقاب و هدفه.

الزيادة و النقصان في المهر:

السؤال السابع: هل يجوز الزيادة و النقصان في المبلغ المحدد للمهر بعد الزواج ؟

الجواب: إن عفت المرأة بطيب نفسها عن شيء من المهر، أو زاد الزوج شيئا في المهر، فهذا جائز. و إن دفع إلى ذلك الأوضاع الاقتصادية للزوجين، و على سبيل المثال: شعرت المرأة بأن الظروف الاقتصادية للزوج لا تسمح له بأن يؤدي المهر كله، فعفت عن شيء منه، فمن البين أنه من الطرق

الفاضلة، و داخل في صلة الأرحام.

قيام الفتاة بعقد النكاح بنفسها:

السؤال الثامن: هل يجوز للفتاة أن تنكح بدون رضى أهلها، و إن لم يكن لها أن تنكح بنفسها ، أفليس ذلك ينافي المساواة؟

الجواب: يحق للفتاة البالغة – كما تقدم – أن تنكح بنفسها، كما هو راي الحنفية من الفقهاء لان غير أن الأفضل لها أن تنكح بعد كسب الثقة من الولي. و من البين الجلي أن أحوال الرجال تختلف عن أحوال النساء، و بما أنهن يقمن في البيوت، و لا يقفن على أحوال خطيبهن جيدا، و لذا تزداد أهمية الولي بالنسبة إليهن ازديادا كبيرا. و ليس فيه جور على المرأة، بل فيه حماية مستقبلها أكثر فأكثر.

السيدة عائشة و وقعة " الجمل ":

السؤال التاسع: كانت السيدة عائشة – رضي الله عنها – تقود جماعة في وقعة الجمل، فهل يصح أن يستنتج منه أنه يجوز أن تكون المرأة قائدة (Commander) للقوات المسلحة ؟

الجواب: لم تكن شركة السيدة عائشة – رضي الله عنها – في حرب الجمل كقائدة للجيش، و لا كشرطي، بل كان هدفها هو المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان – رضي الله عنه -. و بالإضافة إلى ذلك أن معظم الصحابة و أزواج النبي- صلى الله عليه و سلم – الأخريات ما كانوا متفقين معها في اتخاذها هذه الخطوة، و قد أدركت السيدة عائشة – رضي الله عنها – بنفسها خطئها الاجتهادي هذا، و كانت تندم على الحضور في هذه المعركة، فعن قَيْس قَالَ: لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتِ الْكِلَابُ، قَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا ؟قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا أَنِّي رَاجِعَةٌ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا: بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: "كَيْفَ

بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ؟". ([1]). فلا يستدل بعملها هذا على جواز القيادة السياسية أو العسكرية للنساء.

زواج المسلمة بغير المسلم:

السؤال العاشر: هل يجوز لمسلمة أن تعيش مع هندوسي تزوجت به، و لم يسلم؟

الجواب: كلا، لا يصح نكاح مسلمة بغير مسلم أيا كان دينه، و لذا تقترف هذه المرأة الإثم باستمرار مادامت معه، فينبغي إفهام مثل هؤلاء النسوة و إقناعهن بالانفصال، أو بذل الجهد لكي يعتنق غير المسلم الإسلام، ثم يزوج مرة ثانية.

النكاح مع البكر أفضل أم مع الأرملة ؟

السؤال الحادي عشر: النكاح مع البكر أفضل في الإسلام أم مع الأرملة ؟

الجواب: هذا يتوقف في الحقيقة على الظروف الشخصية و الأوضاع الاجتماعية، فجابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – تزوج أرملة، و حين أخبرالنبي – صلى الله عليه و سلم – به، فقال له نظرا إلى سنه: كان يناسبك أن تتزوج عذراء، فأجاب أن أباه توفي، و خلف بنات، فأحببت أن آتي بامرأة إلى بيتي، تقوم عليهن و تتولى أمرهن، فاستحسنه – صلى الله عليه و سلم -، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – سألني رسول الله – صلى الله عليه و سلم – فقال: " تَزَوَّجْتَ ؟قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا ؟قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ: أَفَلَا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ؟ قُلْتُ: إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تَجْمَعُهُنَّ وَتَمْشُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ ". ([2]). و لكن قلت نسبة النكاح مع الأرامل و المطلقات في المسلمين تحت

---

[1] - أخرجه أحمد رقم ٢٤٢٥٤، ٢٤٦٥٤، والبزار في "مسنده" (٣٢٧٥) (زوائد)، وأبو يعلى (٤٨٦٨)، وابن حبان (٦٧٣٢)، و إسناده صحيح.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٢٠٩٧، و مسلم رقم ٧١٥.

تأثير التقررات الاجتماعية لغير المسلمين على المسلمين و بخاصة في مجتمعنا الهندي، بل لا يلتفت الناس إلى ذلك، و من هنا نرى أن النكاح بمثل هؤلاء النسوة أفضل في الاوضاع الراهنة. فقد كانت أزواج النبي – صلى الله عليه و سلم – بنفسه أرامل أو مطلقات ما عدا السيدة عائشة – رضي الله عنها -، و قد كانت بعض منها في نكاح عدة أشخاص، فلذا يعتبر الزواج بمثل هؤلاء النسوة البائسات أفضل في العصر الحاضر.

التكييف الشرعي للمطالبات المالية بمناسبة الزواج:

السؤال الثاني عشر: ما هي الصفة الشرعية للطلبات و أخذ جهاز العروس في الزواج؟

الجواب: قال الله تعالى في كتابه: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ). [٢ / البقرة: ١٨٨]. فنهي عن أكل الأموال بطريقة باطلة، و يدخل فيه أن يؤخذ شيء من أحد بغير حق وبدون طيب نفس . فالمطالبة بالمبلغ المالي أو الدوطة بمناسبة الزواج تدخل فيه. و تشير عبارات الفقهاء بأنه في حكم الرشوة، و لذا يحرم أخذه، و يحرم كذلك إعطاءه بدون ضرورة شديدة، و يجب رده إن أخذه.

نفقة المطلقة:

السؤال الثالث عشر: على من تجب نفقة المطلقة في المجتمع المعاصر؟

الجواب: يرى الإسلام بشأن النكاح أنه معاهدة بين الرجل و المرأة، فتبقى علاقة الفتاة بأسرتها بعد النكاح أيضا، و لا تصبح ملكا للزوج؛ بل هي رفيقة له و شريكة حياته، فإذا انفصمت علاقتها به، فتعود مسؤولية كفالتها إلى أهلها و أسرتها أي والديها و إخوتها، و الأقرباء الذين يستحقون ميراثها بعد وفاتها. و قد حدد الفقهاء نظاما كاملا للنفقة بهذا الشأن، يوجد تفصيله في كتب الفقه.

ثانيا: تجب نفقة العدة بعد الطلاق، و إن كان لها أولاد فيكونون

تحت حضانتها، أي الولد إلى سبع سنين، و الجارية إلى البلوغ، و تجب نفقتهم على الزوج في هذه المدة كلها ، و تجب أجرة الحضانة كذلك عليه. و يبدو من عبارات الفقهاء أن أجرة الحضانة لا بد أن تكون كافية للعيش. و هكذا تمت تدابير النفقة للمطلقة إلى مدة لا بأس بها.

لماذا تقل مرتبة النساء في الشهادة؟

السؤال الرابع عشر: لماذا جعلت امرأتان بمنزلة رجل في الشهادة؟

الجواب: له أسباب: الأول و هو ظاهر أن الشهادة يلزم فيها أن يشاهد الشاهد بنفسه الأحداث و الأحوال، و النساء بما أنهن مسؤولات عن شؤون البيت تقل مشاهدتهن للأحداث، و لذا لا يمكن عثورهن على الحوادث بالدرجة التي يمكن للرجال الوقوف عليها.

ثانيا: يلزم في إقامة الشهادة فهم الحوادث فهما دقيقا، و وعيها و حفظها في الذهن، و هذه الموهبة أكثر في الرجال بالنسبة للنساء، و يعترف بهذه الحقيقة علماء النفس كذلك، فحجم دماغ النساء أقل من حجم دماغ الرجال، و ليس فيه منقصة للنساء، بل لزم كونهن كذلك ليقدرن على القيام بالواجبات النسائية. و الواقع أن النساء عليهن أن يلعبن دور " زوجة " أو " أم "، و لزم لأداء هذه المسؤوليات أن يتصفن بالعاطفة أكثر من الرجال إلى حد ما. و من هنا نشاهد ليل نهار أن المرأة مهما كانت مرهقة تعبانة متحطمة و مصابة بالألم في كل عضو، و لكن إذا بكى الطفل أو بال أو تغوط، فتتحرك أمومتها فورا، و تكون في قلق و اضطراب إلى أن تريحه، و الأب مهما كان شفيقا عطوفا، لكنه يخلو من هذه العاطفة و الكيفية في الغالب، و هذه نتيجة لكون المرأة مليئة بالعاطفة.

و من القوانين المسلمة أن العواطف مهما تشتد تقل عملية الفهم و الذاكرة بقدرها، و من هنا ترى أن المرء يصبح عاطفيا إلى حد كبير وقت الغضب أو شدة الحزن، و لأجل ذلك يخطئ في فهم و وعي ما يحدث في تلك

الأحوال، و من هنا كانت مرتبة النساء في الشهادة أقل، و أهميتهن أنقص. غير أن ما يختص معرفته و إدراكه و فهمه الدقيق بالنساء، فإن الفقهاء أعطوا شهادة النساء في تلك الأمور أهمية زائدة.

الفرق في العقيقة بين البنات و البنين:

السؤال الخامس عشر: أمر بذبح و نسك شاتين عن الغلام وعن الجارية شاة، فلماذا هذا الفرق؟

يكفي ذبح كبش في عقيقة الغلام كذلك، فقد عَقَّ النبي – صلى الله عليه و سلم بذاته عن الحسن والحسين كَبْشا كَبْشا، فعن عبد اللَّه بن عباس -رضي اللَّه عنهما –" أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عَقَّ عن الحسن والحسين كَبْشا كَبْشا ". ([1]). و لكن الأفضل ما ذكرته في السؤال، فعن أُمّ كُرْزٍ الْكَعْبِيَّةِ، عَنِ النَّبِيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: " عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ ". ([2]). و لا يغيبن عن البال أن امتثال أوامر و أحكام الله و رسوله لازم بدون اعتراض و انتقاد و بدون معرفة أسرارها و مصالحها، فليس من اللازم أن تدرك حكمة و مصلحة كل حكم شرعي، و إن كان لا يخلو حكم شرعي من مصلحة، و لا يصادم عقلا و حكمة.

و مما يدرك من حيث الظاهر من مصلحة التفريق بين عقيقة البنات و الأبناء: أن الابن يكون وسيلة للرخاء الاقتصادي و السعة المالية في المستقبل، و الشريعة قد أناطته كفالة الوالدين و الإنفاق عليهما، فولادته تقتضي شكرا مضاعفا، و لا يخفى أن الشكر الزائد لله تعالى لا يتأدى إلا بخدمة زائدة لعباده.

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٢٨٤١، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه أحمد رقم ٢٧١٤٢، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٣٢٨١)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (١٠٤٥)، و البزار (١٢٣٤) (زوائد)، والطبراني (١١٣٢٧)، و هو حديث صحيح.

ما معنى أن النساء ناقصات العقل؟

السؤال السادس عشر: جاء عن النساء في الأحاديث المباركة أنهن ناقصات العقل، فما المراد من ذلك ؟و الواقع أنهن يفقن الرجال في التعليم و الدراسة في الوقت الحاضر، أفلا يعتبر جعلهن ناقصات العقل من باب إهانتهن و الاستخفاف بهن؟

الجواب: التعليم يعني جمع المعلومات، و العقل عبارة عن قوة التفكير، فمن الممكن أن يحصل شخص على المواد و الأبحاث الموجودة في الكتب، و لكن تقل فيه أهلية الروية والنظر والتفكير في الأمور، و لذا لا يعتبر تقدم البنات في مجال العلم و الدراسة دليلا على تفوقهن، حتى من ناحية العقل و المنطق. و إني أرى أن المراد من نقصان العقل في الحديث الشريف هو نقصان القدرة على اتخاذ القرار، فكأنه يعني أن النساء بسبب كونهن أكثر الناس سرعة في الغضب و الانفعال، و شدة في العاطفة، تنقص قدرتهن على اتخاذ القرار، و إذا تدبرتم طبيعة النساء بالواقعية لقمتم بتصديق ذلك.

و ليس المراد من جعل النساء ناقصات العقل الإهانة إليهن؛ بل القصد منه التعاطف معهن، و الإهابة بالمرحمة لهن، و الدعوة للعطف عليهن. و ما مثلهن إلا كصغير السن يخطئ، فيقال: اعف عنه؛ لأنه صغير. و كذلك لفت النبي – صلى الله عليه و سلم – انتباه الرجال إلى سلوك العفو معهن إذا تظاهرن بسرعة الانفعال، أو قمن بالاعتداء عليهم مدفوعات بشدة العاطفة، فاعتبروا - أيها الرجال - كأنهن قليلات الفهم، فلا تتعرضوا للانتقام منهن.

▼ ▼ ▼

الخطبة الرابعة:

رسول الإسلام و الطبقات الضعيفة و الحيوانات

ألقيت في ٦ / من ذي الحجة عام ١٤١٧ هـ
الموافق ١٤ / من أبريل سنة ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كان النبي – صلى الله عليه و سلم – صورة مجسمة للرحمة، فكانت شخصيته – صلى الله عليه و سلم – المتصفة بعظيم الشمائل والخِصال، وكريم الصفات والأفعال عبارة عن الرقة و الرأفة و العطف على البشرية، حتى شملت رحمته و محبته الصديق و العدو، والقريب والبعيد، و الغني و الفقير، و القوي و الضعيف، و الكبير و الصغير، و لكن كما يميل الأب العطوف و الأم الحنون أكثر ما يميل إلى من هو معوق أو مقعد أو أضعف من أولاده، و إلى من هو أشد فقرا و إفلاسا منهم، فكذلك بل فوق ذلك أظلت رحمته – صلى الله عليه و سلم – الذين كانوا مقهورين و مضطهدين و منكوبين، فالضعيف قوي في مجلس عدله، و الطريد يستحق عنده التكريم و الترحيب بقدر إصابته، و المظلوم يستحق الرحمة لديه بقدر ما وقع عليه الظلم، و الذي أهين بغير حق، يستحق في مجلسه التوقير و التبجيل بقدر إهانته، و الذي أهمل أكرم بالرعاية و العطف و الفضل بقدر ذلك، و لم يكن شيء أرفع من العدل بعد الإيمان أحب إليه، و لم يكن شيء أشد كراهية له – صلى الله عليه و سلم – من الظلم بعد الكفر.

القضاء على الجور غاية من الغايات الهامة من بعثة محمد –صلى الله عليه و سلم-:

من أهم غايات بعثة رسول الإسلام محمد – صلى الله عليه و سلم – أن يخلص الإنسانية من أعباء القيود التقليدية و القوانين و أنظمة الحياة ذاتية الصنع، و لذا اعتنى النبي – صلى الله عليه و سلم – اعتناء خاصا بالطبقات التي كانت مضطهدة مقهورة وعرضة للظلم و الجور والاستغلال من قبل علية القوم و وجهائهم، و التي كانت تطحن في رحى الجور و المعاناة، و

حاول إنقاذها من القسوة و الضراوة الاجتماعية. و قد طبع النبي – صلى الله عليه و سلم – على نصرة المظلومين و المستضعفين، فقد كون جمعية لجيدي الخصلة، طيبي المنبت، سليمي النية، محبين للعدل باسم " حلف الفضول " قبل البعثة كذلك، لينصر البائسين المنكوبين، و يأخذ على يد الظالمين الغاشمين. ([1]).

و لما نزل عليه أول وحي، و رجع من " غار حراء" إلى زوجته الطاهرة و أم المؤمنين السيدة خديجة – رضي الله عنها -، كان قلقا متضجرا بقدر ما، وطرأت عليه حالة الفزع و الروع، فقامت بتسليته و كشف همه، و صورت – و هي شريكة حياته، و من يكون أعلم بخلقه و عاداته و ليله و نهاره و صباحه و مسائه منها ؟- تصويرا رائعا لحياته الزكية و خلقه الكريم، لا يقدر على تصوير أحسن منه، حيث قالت: " كَلاَّ وَاللهِ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِين عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ". ([2]). فلم يزل يبذل جهده لرفع الطبقات المستضعفة المهضومة التي كان يسلك معها سلوكا اجتماعيا جائرا، و معاملة غير إنسانية، و لم يزل يسعى لمنحها الحقوق المشروعة، و لتمكينها من إحراز العدل.

و سنذكر اليوم بعض الطبقات منها، و قد تقدم ذكر النساء، و تم التحدث عن سلوكه الكريم و معاملته الجميلة المحتوية على سماحته و رحابة صدره مع غير المسلمين و الأقليات، والمستفعفين الآخرين، و سلوكه مع الحيوانات فضلا عن الإنسان.

وضع العبيد قبل الإسلام:

إن أشد الطبقات اضطهادا كانت طبقة العبيد، و لما أشرقت شمس

---

[1] - راجع: الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ١ / ٢١١، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ، و ابن سعد، الطبقات الكبرى ١ / ١٢٩، بيروت، دار صادر.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٣.

الإسلام في ربوع العالم، كانت العبودية سائدة في كل قوم، و جاء في الكتاب المقدس كذلك ذكر العبيد و الإماء في أمكنة شتى و مواضع عديدة، و اعتبر جنس كبير عبيدا في الهند على أساس العنصر، و ساد التصور فيها بشأنهم أن الهدف و الغاية من خلقهم خدمة الطبقات البشرية الأخرى، و أطلق عليهم اسم " شودر " (الطبقة المنبوذة)، و اعتبر " التشتري " و " الويش " من الطبقات التي يقوم بخدمتها طبقة " شودر "، و هذه الطبقات كلها من خدام طبقة " البراهمة ". و كان يتم مع العبيد في كل منطقة كبيرة من مناطق المعمورة معاملات سيئة، و يبرر ذلك، و كانت روما و إيران مناطق متحضرة في ذلك الزمن، و لكن بلغ وضع العبيد بها إلى أن كانوا يؤمرون بالتصارع مع السباع، كما كان يتم إجراء المبارزة بين العبدين، و بين العبيد و الوحوش، و يتفرج الناس على هلاكهم القاسي، و كان هذا لعبا ممتعا، و يطلق عليه " سيافي "، و صنعت ملاعب كبيرة لهذه اللعبة العارية من الإنسانية في أوربا.

تكريم العبيد في الإسلام:

منح النبي – صلى الله عليه و سلم – هذه الطبقة تكريما بالغا و تقديرا عظيما، فقد كان سيدنا بلال و صُهَيْب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – من العبيد، و لكن كبار الصحابة كانوا يحترمونهما، و ينخفض لهما أنظار الإجلال و التكريم من خلفاء الوقت، حتى إذا جاءا إلى مجلس سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه -، ناداه بـ " سيدنا " و " رئيسنا " ([1])، و كان يؤثرهما على رؤساء العرب و سادة قريش.

والعدد الكثير من الذين تشرفوا باعتناق الإسلام في البداية كانوا من العبيد و الإماء، و لعل هذا كان نتيجة لمعاملته – صلى الله عليه و سلم - الجميلة معهم و علا قته بهم، و منهم: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، و خباب بن

[1] - راجع: الحاكم، المستدرك رقم ٥٢٣٩، و صحيح البخاري بتحقيق ديب البغا، رقم ٣٥٤٤، بيروت، دار ابن كثير، ط: ٣، ١٤٠٧ هـ.

الأرت، و بلال بن رباح، و عمار بن ياسر، و والده ياسر بن عمار، و صهيب بن سنان الرومي، و سالم مولى أبي حذيفة، و أبو فليهة، و عامر بن فهيرة – رضي الله تعالى عنهم -، و غيرهم. و من الإماء: سمية، و زنيرة مولاة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، و لبينة، و النَّهْدِيَّةُ – رضي الله عنهن -، و غيرهن، و للعبيد و الذين تحرروا من العبودية مساهمة كبيرة فيما بعد في خدمة العلوم الإسلامية.

و أحل – صلى الله عليه و سلم – العبيد في محل الإنسان، و وضع لهم حقوقا، و راعى كرامتهم و حرمتهم، و نهى أن يقول الناس لعبده: يا عبدي، فعن أبى هريرة عن النبي - صلى الله عليه و سلم - قال: لا يقل أحدكم: عبدي، أمتى، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، وليقل: غلامي، جاريتى وفتاى وفتاتى ". ([١]). بل جعلهم إخوة، فعن أبي ذر، قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم -: " إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ". ([٢]). و قد قال – صلى الله عليه و سلم – بنفسه لعبده زيد: " أنت أخونا و مولانا ". ([٣]). و نهى العبيد كذلك عن أن يقولوا لمالكهم: " يا ربي "، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه و سلم -: " لا يقل العبد: ربي، ولكن ليقل سيدي ". ([٤]). و في رواية: " وليقل سيدي مولاي". ([٥]). و لا يخفى أن كلمة " المولى " معناها: المحب والصاحب و الكبير "، و قد قام بتزويج الموالي المعتقين ببنات أشراف العرب، مع أن العرب كانوا يزدرونهم و ينظرون إليهم محتقرين، فبلال، و صهيب، و زيد، و أبو هند – رضي الله تعالى عنهم -، و كم من عبيد في الإسلام تزوجوا ببنات القبائل الشريفة، و اعتبرته

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٢٥٥٢، و في الأدب المفرد رقم ٢٠٩، و مسلم رقم ٢٢٤٩، و أحمد رقم ١٠٣٦٨.

[٢] - أخرجه البخاري رقم ٣٠.

[٣] - راجع: المستدرك رقم ٤٦١٤، و هو حديث صحيح.

[٤] - أخرجه مسلم رقم ٢٢٤٩.

[٥] - أخرجها مسلم رقم ٢٢٤٩.

هذه القبائل شرفا و سعادة لها. و جعل الموالي المعتقين يرثون سادتهم في بعض الصور، و جعل السادة السابقين يرثون عبيدهم المعتقين في بعض الأحوال، و هذا اعتراف عملي بأن هؤلاء أقرباء فيما بينهم بعضهم لبعض.

حقوق العبيد:

ثم وضع النبي – صلى الله عليه و سلم – حقوقا للعبيد بطريقة رسمية، و أوجب كفالتهم على الملاك، فعن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قال النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ". ([1]). فراعاه الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – مراعاة عظيمة حيث كانوا لا يفرقون في المطعم و الملبس بين مستواهم و بين مستوى العبيد، و جرت عادة العرب في لبسهم بأنهم كانوا يرتدون رداءين، فيلفون أحدهما كالمئزر، و يلبسون الآخر على الجزء الأعلى من الجسم، و لكن بلغ حال أبي ذر – رضي الله تعالى عنه – إلى أنه إذا كان له رداءان، فيلبس أحدهما، و يعطي الآخر لعبده، مع أن لباسا بلونين لا يجمل على الجسد، و لكنه لم يحتمل أن يسلك مع العبد سلوكا أدنى، فعن الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَكْسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ ". ([2]). و يروى عن علي – رضي الله تعالى عنه

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٣٠، ٢٥٤٥، و أحمد رقم ٢١٤٣٢.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٣٠، ٢٥٤٥، وفي "الأدب المفرد" (١٨٩)، و مسلم (١٦٦١)، و أحمد رقم ٢١٤٣٢.

– أنه ذهب بعبده ليشتري القماش، و قال له: اختر لي و لك الثوب، و قال: اختر ثوبا جميلا، و ثوبا عاديا، ثم بعد ما اشتراه، أعطى العبد ثوبا جيدا، و أخذ لنفسه ثوبا خشنا، و قد طلب منه العبد أن يأخذ قماشا جيدا قائلا: إنني اخترته لك، و لكنه رفض، و قال: أنا كبير السن، لا يناسبني إلا الثوب الزهيد الخشين، و أنت شاب ينبغي لك ثوب جميل. و تكونت هذه الطبيعة لدى الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – نتيجة لتوجيهاته – صلى الله عليه و سلم – و تعليماته و وعظه و تنبيهه و تأكيده مرارا على حقوق العبيد.

و إذا أدرك – صلى الله عليه و سلم – أن أحدا يقصر في أداء حقوق العبيد، فباع عبيده جبرا، ليبتعد عن اعتداءاته. و كان الناس يعاقبون العبيد بدون قيد و حد، فقام – صلى الله عليه و سلم – بتحديد ذلك أيضا، و نهى عن الضرب على الوجه بوجه خاص؛ لأن الضرب على الوجه ليس بتأديب فحسب؛ بل إنه إهانة و استخفاف و تذليل كذلك، و هذا لا يجوز.

التدبير التدريجي لإنهاء الرق:

يقال بالعموم: إن الإسلام أبقى عادة الاستعباد إلى مدة، والحاجة ماسة - لمعرفة سبب ذلك – إلى أن نراعي الظروف التي ولد فيها النبي – صلى الله عليه و سلم - في العالم، فقد كان الوضع السائد أن أسارى الحرب كانوا يستعبدون، ثم كانت تتم عملية بيعهم و شرائهم. و تحتمل أربع صور بشأن أسراء الحرب: الأولى: أن يطلق المسلمون أسارى الأعداء لمبادلة أسرائهم. و قد اختارها – صلى الله عليه و سلم – في بعض المواضع.

الثانية: أن يقتل الأسارى، كما كانت هذه الصورة سائدة في ذلك الزمن. و لا شك أن هذا حل قاس و جائر و عار من الإنسانية، و لذا لم يختر – صلى الله عليه و سلم – هذه الصورة ما عدا غزوة بني قريظة التي حكم فيها حكم محكم من اليهود بأنفسهم أن يقتل مقاتلتهم.

الثالثة: أن يستعبدوا.

و هذه الصورة كانت أفضل و أحسن في ذلك الوقت، و لذا اختارها – صلى الله عليه و سلم -، غير أنه – صلى الله عليه و سلم – أحل العبيد في محل إنساني في المجتمع، و وضع لهم حقوقا ما كانت تتصور من قبل. و لم تكن في ذلك الزمن " هيئة أمم ما "، و لم تكن اتفاقية بين الدول و الأمم المختلفة بشأن الحروب القانونية و غير القانونية، و أسارى الحرب، فلم يكن في تلك الأوضاع منهاج عمل أفضل منه، و لكن مع ذلك اتخذ – صلى الله عليه و سلم – تدبيرا يؤدي إلى إغلاق باب الرق تدريجيا، فوضع أصلا و هو: أن أمة تصير أم ولد لسيدها، فإنها تصير كالحرة فلا تباع، و الأولاد الذين يولدون للسيد من أمته، يكونون أحرارا، و تحصل لهم حقوق تحصل لأولاده الآخرين. و الكفارات التي وضعها الإسلام للذنوب المختلفة، يحتل فيها تحرير الرقبة المرتبة الأولى، فأهم حكم هو تحرير الرقبة في كفارة الصوم، و في كفارة اليمين، و في كفارة القتل، و في كفارة الظهار.

و بين النبي – صلى الله عليه و سلم – فضيلة عظيمة لتحرير العبيد، حتى نشأ مذاق خاص في المسلمين لشراء العبد و تحريره، فأعتقت السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها – أربعين عبدا في كفارة يمين واحدة. و يحكى عن حكيم بن حزام أنه أعتق مائة عبد، و يروى عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – أنه أعتق ألف عبد. و حكي أن عبد الرحمن بن عوف الذي كان من أغنياء الصحابة، أعتق ثلاثة آلاف عبد. و من لا يعرف رحابة صدر أبي بكر – رضي الله عنه – و رحمته و رأفته، فقد كان يكثر من إعتاق العبيد. و من ثمرة تعاليمه – صلى الله عليه و سلم - أن الرق الذي كان سائدا من ألوف سنة، توقفت سلسلته تماما ببركته – صلى الله عليه و سلم – بعد مجيء الإسلام في حدود ألف سنة.

طبقة الأجراء و الكادحين:

الطبقة الثانية التي كانت مضطهدة في كل عصر، و ليست اليوم كذلك فئة أشد ظلما و اضطهادا منها، هي طبقة الكادحين و الأجراء و العمال، فكل ما نشاهد من حسن و جمال و زينة و تطريز على الأرض، ليس إلا ثمرة من عرق جبينهم و كد أنفسهم، و لكنهم اليوم كذلك يواجهون استغلالا بقدر، يندر نظيره في طبقة أخرى، فيما يغلب على الظن، و من هنا تمتد فجوات الغنى و الفقر بين الرأسماليين و العمال.

العمال في نظر الرسول – صلى الله عليه و سلم -:

أحل النبي – صلى الله عليه و سلم – العمال محل إكرام، و منحهم تكريما و شرفا، و أثار في الناس الشعور بأنهم يستحقون التوقير و التبجيل. و دلنا القرآن الكريم على أن موسى – عليه و على نبينا السلام – الذي كان من أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، عمل بنفسه لشعيب – عليه و على نبينا الصلاة و السلام – ثمان سنين أو عشر سنين. و قد قال النبي – صلى الله عليه و سلم -: إن الأنبياء كلهم تقريبا رعوا الغنم، و قد قال عن ذاته المباركة أيضا: إني كنت أرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ ؟فَقَالَ: نَعَمْ،كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ ". ([١]). و قال – صلى الله عليه و سلم -: إن الله يحب المؤمن الذي يعرف صناعة ويتخذها حرفة و يكتسب بها، فعن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما - عن النبي - صلى الله عليه و سلم – قال: " إن الله يحب المؤمن المحترف ". ([٢]). و جعل الكد و

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٢٢٦٢.

[٢] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٢٣٧، و الطبراني في الأوسط رقم ٨٩٣٤، و في الكبير رقم ١٣٢٠٠، و الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب رقم ٥٦٧، و القضاعي في مسند الشهاب:ج٢/ص١٤٩ ح١٠٧٣، بإسناد فيه مقال.

الكدح في طلب الرزق الحلال أفضل من الجهاد مع الإمام العادل سنة واحدة كاملة، فعن ابن عباس أن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: " طلب الحلال جهاد ". ([١]). و قال – صلى الله عليه و سلم -: عن علي رفعه: ان الله يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال (كنز العمال ٥/٤) الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَام - كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ". ([٢]). و عنه – رضي الله عنه - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ طَعَامًا أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ ". ([٣]). و عنه – رضي الله تعالى عنه- أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَاسِطًا يَدَيْهِ يَقُولُ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ طَعَامًا فِي الدُّنْيَا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ ". ([٤]). و شرف يد شخص بتقبيلها بمناسبة، أصبحت خشنة بسبب الكد و الكدح و العمل، فعن أنس بن مالك قال: أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك فاستقبله سعد بن معاذ الأنصاري، فصافحه النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال له: ما هذا الذي اكتتبت يداك، فقال يا رسول الله: أضرب بالمر والمسحاة في نفقة عيالي، قال: فقبل النبي - صلى الله عليه وسلم - يده، فقال: هذه يد لا تمسها النار أبدا". ([٥]).

---

[١] - أخرجه الديلمي في الفردوس رقم ٣٩١٩، والقضاعي في مسند الشهاب:ج١/ص٨٣ ح٨٢، بإسناد فيه مقال.

[٢] - أخرجه البخاري رقم ٢٠٧٢.

[٣] - أخرجه أحمد رقم ١٧١٨١، والطبراني في "مسند الشاميين" (١١٢٣)، و هو حديث صحيح.

[٤] - أخرجه أحمد رقم ١٧١٩٠، و ابن ماجه (٢١٣٨)، و الطبراني في "مسند الشاميين" (١١٢٢)، والطبراني في "الكبير" ٢٠/ (٦٣٢)، ولفظ ابن ماجه: "ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده".، و هو حديث صحيح.

[٥] - كتاب الكسب للامام محمد بن الحسن الشيباني ص: ٣٣، و رواه الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " رقم ٣٨٦٤، و قال: هذا الحديث باطل؛ لأن سعد بن معاذ لم يكن حيا في وقت غزوة تبوك، وكان موته بعد غزوة بني قريظة من السهم الذي رمي به، ومحمد بن تميم الفريابي كذاب يضع الحديث، و راجع: ابن الجوزي، الموضوعات ٣ / ٣١ – ٣٢.

و هذا تكريم للعمال و الأجراء من قبل النبي – صلى الله عليه و سلم -، و تدبير لرفع مكانتهم في المجتمع؛ لأن أهم قضية للإنسان هي إقرار الكرامة النفسية و الحفاظ على الحرمة الذاتية. و بذلك سبق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- كل الأنظمة والقوانين والمواثيق في حفظ حقوق العمال والخدم بغض النظر عن ديانتهم وجنسياتهم.

العامل المقيد:

يبذل اليوم جهود في كل مكان للقضاء على عادة العمل المشروط المقيد، و الإسلام لا يبيح مثل هذا العمل. و لكل شخص من وجهة النظر الإسلامية حرية في اختيار عمل ما، و اتخاذ مهنة و حرفة، و لا يجبر أحد على أن يرتبط بواحد، فيقوم بخدمته، و من هنا كانت الإجارة معاهدة بين طرفين تتم برضاهما.

حقوق العمال:

بين النبي – صلى الله عليه و سلم – حقوق العمال بكل صفاء و وضوح تام، و يبدو من قول له – صلى الله عليه و سلم – أنه لا بد من تعيين أجرة أجير بقدر يكفي لكفالة أهله و عياله، و ما يحتاجون إليه من مسكن و خادم. ثم الإسلام يميل إلى أن يشرك العامل في الثمرة الحاصلة من عمله و كده، لتتم عملية التوزيع العادل للثروة. و من العقود المشروعة التي أباحها النبي – صلى الله عليه و سلم – عقد " المضاربة "، و هي أن يتجر و يعمل شخص في رأس مال لصاحبه على أن له حصة معينة متناسبة من ربحه الحاصل من التجارة، ففي توزيع الربح بطريقة متناسبة تعليم فعلي أن لا يحرم العامل بإعطاء الأجرة التافهة من الربح الكثير الحاصل من التجارة دائما؛ بل يشرك في الربح. و إليه إشارة في قوله – صلى الله عليه و سلم -: أنه ينبغي أن يعطى الخادم و لو لقمة أو لقمتين مما طبخه، فعن أبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ

يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ، أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ حَرَّهُ وَعِلَاجَهُ ".([1]). و حكى النبي – صلى الله عليه و سلم – واقعة ممتعة حدثت في بني إسرائيل رواها المحدث الشهير الإمام البخاري في مواضع عديدة من كتابه، و مفادها أن عاملا ذهب بدون أخذ أجرته، و تذكرها بعد مدة وقت بؤسه و ضيقه المالي، فجاء إلى صاحب العمل، و طلب أجرته، فقال له: اذهب بكل ما ترى من مواش و ثروة، فإنه من أجرتك، ففي أول وهلة يحمله الأجير على الاستهزاء و الاستخفاف، و لكن المستأجر أكد له من أن كل هذا حصل من استثمار أجرته، و تنميتها، ففي النهاية أخذ العامل كل ذلك و ذهب.

فعن عَبْد اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ. قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ

[1] - أخرجه البخاري رقم ٥٤٦٠، و أحمد رقم ٩٣٠٧.

وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ: أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ ". ([1]).

و أرى أن هذه الواقعة تشير إلى أنه ينبغي للملاك أن يمكنوا الأجراء من الشركة في التجارة، و أن يستثمر جزء من رؤوس أموالهم، حتى يكونوا شركاء في ربحها.

ثم أكد النبي – صلى الله عليه و سلم – بوجه خاص على تعيين أجرة الأجراء بطريقة واضحة وقت العقد، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ " أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَهَى عَنْ اسْتِئْجَارِ الْأَجِيرِ حَتَّى يُبَيَّنَ لَهُ أَجْرُهُ ". ([2]). و أكد على إعطاء أجرة الأجير قبل جفاف عرقه، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " أعط الأجير أجره قبل أن

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٢٢٧٢، ٣٤٦٥، و مسلم رقم ٢٧٤٣، و أحمد رقم٥٩٧٣.

[2] - أخرجه أحمد رقم ١١٥٦٥، بإسناد فيه مقال.

يجف عرقه ". ([1]). وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ". ([2]). و عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه و سلم - قال: " أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، وأعلمه أجره وهو في عمله ". ([3]). و جعل النبي – صلى الله عليه و سلم – نفسه خصما من قبل الثلاثة و منهم الأجير، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: " قال الله تعالى: ثلاثة أنا خَصْمهم يوم القيامة: رجل أعطَى بي، ثم غَدَر، ورجل باع حرّا وأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفَى منه العمل، ولم يُوفه أجْرَه ". ([4]).

و ليس من الممكن أن ينكر أن التعاليم المتزنة العادلة التي منحها النبي – صلى الله عليه و سلم – لها تأثير، و أن القوانين و الضوابط التجارية المعتدلة التي وضعها – صلى الله عليه و سلم – لها دور في نشوء الحركات لحقوق العمال و الأجراء، و الإنصاف معهم، في الوقت الحاضر، فكل ما نشاهده من عمل و تحرك بهذا الصدد ليس إلا ثمرة من ثمرات ما قام به – صلى الله عليه و سلم -.

المرضى:

سأذكر المرضى في ضمن الطبقات المضطهدة المقهورة. و مما لا شك فيه أن الصحة نعمة ليس فوقها نعمة من نعم الله تعالى، و لعل المرض ليس فوقه بلية. وليس شيء يحمل شخصا مشتغلا على القيام بعيادة المريض الآيس و سريع الغضب و الانفعال و غير المعتدل، و تمريضه و خدمته إلا الشعور بالمسؤولية في الآخرة و الحب الإنساني، و لذا أكد النبي – صلى الله

[1] - أخرجه ابن ماجه رقم ٢٤٤٣، و هو حديث حسن.
[2] - أخرجه الطبراني في الصغير رقم ٣٤.
[3] - أخرجه الديلمي في الفردوس رقم ٣٥٤، و البيهقي في الكبرى رقم ١١٤٣٤.
[4] - أخرجه البخاري رقم ٢٢٢٧، ٢٢٧٠، و ابن ماجه رقم ٢٤٤٢.

عليه و سلم – تأكيدا بالغا على تمريض المريض و عيادته، فقال – صلى الله عليه و سلم – لمسلم على مسلم خمسة حقوق، و ذكر منها عيادة المريض، فعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ ". ([1]). و جعل – صلى الله عليه و سلم – العائد في حديقة من حدائق الجنة، فعن ثوبان – رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم-:" عائد المريض في مخرفة الجنة حتى يرجع ". ([2]). و قال النبي – صلى الله عليه و سلم – بمناسبة، - و هو من الحديث القدسي -: إن الله تعالى يسأل العبد يوم القيامة عن عيادة المريض، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يومَ القيامة: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يارب كَيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين ؟قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانا مَرِضَ فلم تَعُدْهُ ؟أما علمتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لوجَدتني عنده ؟يا ابنَ آدمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطعمني، قال: يا رب، كيف أطعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمين ؟قال: أمَا علمتَ أنه استطعمكَ عبدي فلان فلم تُطْعِمْهُ، أمَا علمتَ أنَّكَ لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي ؟يا ابنَ آدم! استَسقيْتُكَ فلم تَسْقني، قال:يا رب، وكيف أسقِيكَ وأنتَ ربُّ العالمين ؟قال: اسْتَسقَاك عبدي فلان، فلم تَسْقِه، أما إنَّك لو سَقَيْتَهُ وجدتَ ذلك عندي ". ([3]).

و جعل النبي – صلى الله عليه و سلم – العيادة واجبا إنسانيا، فلا فرق بهذا الشأن بين مسلم و غير مسلم، و صغير و كبير، و فقير و غني، فقد

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ١٢٤٠، و مسلم رقم ٢١٦٢.

[2] - أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٨، و أحمد رقم ٢٢٣٧٣، ومخرفة: هي سكة بين صفين من نخل، يخترف من أيهما شاء أي يجتني.

[3] - أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٩، و البخاري في الأدب المفرد رقم ٥١٧، و إسحاق بن راهويه في مسنده رقم ٢٨، و ابن حبان في صحيحه رقم ٩٤٤.

قام – صلى الله عليه و سلم – بعيادة اليهود و المشركين كذلك، فعن أنس بن مالك قال:"كان غلام يهودي يخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - فمرض، فعاده النبي - صلى الله عليه وسلم – ". ([1]). و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: " أَنَّ أَبَا طَالِبٍ مَرِضَ فَعَادَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم – ". ([2]). و نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن الفرار من مكان انتشر فيه مرض معد أو وباء، فعن أسامة قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ". ([3]). و من حكمة النهي أن جراثيم المرض تنتشر في المناطق الأخرى بواسطة الفارين، كما أن الفرار يؤدي إلى ضرر عظيم و هو: عدم توفر الممرضين و القائمين برعاية الذين وقعوا في الوباء، و أصيبوا بالمرض. و قد منح القرآن الكريم المرضى امتيازات خاصة، حيث قال تعالى: (وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ). [٢٤ / النور: ٦١]. و نفى بوجه خاص الحرج عن الأعمى و الأعرج، فقال: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ). [٤٨ / الفتح: ١٧].

المرض ليس نتيجة للإثم:

يعتبر المرض نتيجة حتمية للإثم في بعض الديانات، فلدى إخواننا الهندوس نظرية " التناسخ "، فحسب هذه النظرية ما يتحمل الإنسان في حياته الحاضرة من صعوبات و آلام و مشاق و ما يقاسيه من معاناة، ليس إلا نتيجة للذنوب التي ارتكبها في حياته الماضية، و هذا يؤدي إلى نشوء عاطفة البغض و الكراهية للمريض بدلا من تولد عاطفة المواساة

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ١٣٥٦، ٥٦٥٧، والنسائي في الكبرى رقم ٧٥٠٠، و ابن أبي شيبة رقم ١٢٠٥١، و أبو يعلى رقم ٣٣٥٠.

[2] - أخرجه ابن أبي شيبة رقم ١٢٠٥٠، و هو حديث صحيح.

[3] - أخرجه البخاري رقم ٣٤٧٣، ٥٧٢٨، و مسلم رقم ٢٢١٨.

و المناصرة و النصح و المودة و الرحمة و الشفقة. و دلنا الإسلام على أن الله تعالى يمتحن عباده و يبتليهم بأنواع من البلاء، فليس من اللازم أن يمرض المذنب فحسب، بل قد يمرض عباد الله الصالحون كذلك، حتى يتعرض له الأنبياء و الرسل – عليهم السلام – أيضا، بل قد يشتد ابتلاء الصالحين و الأبرار و المتقين في بعض الأحيان، فعن سعد قال: سئل النبي - صلى الله عليه و سلم - أي الناس أشد بلاء ؟قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه ". ([1]).

أهمية الحياة الإنسانية:

قدم النبي – صلى الله عليه و سلم – فكرة كون الحياة الإنسانية أمانة إلهية، فجعل الانتحار وقتل النفس محرما و إثما عظيما، بينما تحاول المحاكم اليوم السماح به، و لكنه يعتبر كارثة ليس من وجهة النظر الإسلامية فحسب، بل من وجهة النظر الخلقية و الإنسانية كذلك. و قد حمى الإسلام الإنسان منذ أنه لم يخرج إلى عالم النور، فحظر على الإجهاض (Abortion) لمقصد اقتصادي. و شجع النبي – صلى الله عليه و سلم - على تكثيف السكان، بينما لا تعتبر فكرة السيطرة على الكثافة السكانية فكرة جديدة، فتوجد هذه الفكرة لدى العرب قبل الإسلام، و قد ذمها القرآن الكريم و عابها و شنع عليها، حيث قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ). [٦ / الأنعام: ١٥١]. و قال سبحانه: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا). [١٧ / الإسراء: ٣١]. و النظرية الأساسية التي دفعت إلى تحديد النسل، هي أن الوسائل الغذائية محدودة، فإذا نمت الكثافة السكانية بدون حد و قيد، فلا يمكن توفير الضرورات الأساسية للإنسان، و لكنه يعتبر من باب الأوهام المجردة و

[1] - أخرجه الدارمي رقم ٢٧٨٣، و ابن حبان رقم ٢٩٠٠، و هو حديث صحيح.

التخوفات الوهمية، و قد أظهرت الظروف خطئها إظهارا مثل الشمس في رابعة النهار؛ فإن الإنسان كان لهم أن يموتوا جوعا حسب تنبوءات مؤسس نظرية " تحديد النسل "، و لكن يمكن لكل شخص أن يشاهد بأم أعينه أن مستوى الحياة قد تحسن من حيث الطعام و الشراب و اللباس و الكسوة و السكنى و وسائل السفرو النقل و مواصلاته تحسنا كان يصعب تصوره قبل خمس و عشرين سنة. و الواقع أن الكثافة السكانية كلما تنمو، تزداد بقدرها وسائل المعاش، و من هنا نرى أن الأرض تغل بما كان حلما قبل النصف من القرن، حيث لم يدر بخلد أحد .

و قد يحث بعض الناس اليوم بعناوين جديدة على قتل أفراد البشر، و يحاولون تبريره بأسماء جديدة و أساليب حديثة، و من القتل غير المشروع ما يسمى " قتل المرحمة " و هو يعني قتل شخص آيس من حياته بسبب مرض خطير مؤلم يواجهه، عن طريق الأدوية الخاصة تؤدي إلى موته. و الإسلام لا يراه مشروعا بحال؛ فإنه لا يوجد مرض إلا وضع الله تعالى له دواء و وسيلة لعلاجه، و ما على المعالج إلا البحث عن تلك الوسائل، و ليست عمليته و وظيفته القيام بما يؤدي إلى هلاك مريض، بدلا من صيانته.

و على كل، فإن النبي – صلى الله عليه و سلم – حرم الانتحار في كل حال مهما كان سببه و غايته. و من الممكن أن نقدر في ضوء هذه التعاليم أن الحياة الإنسانية كم حرمتها و أهميتها في نظر الإسلام؟

ضوابط خلقية للأطباء:

قد وضع النبي – صلى الله عليه و سلم – ضوابط و مبادئ للأطباء و المعالجين من وجهة نظر صيانة الحياة و الصحة الإنسانية، فالذين لا يعرفون الطب كما ينبغي، و ليس فيهم مهارة العلاج، و حذاقة المداواة، و ألحقوا الضرر بمريض وقت مداواته، فجعلهم – صلى الله

عليه و سلم – ضامنين عن الضرر، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن ". ([1]).

ولقد اهتم النبي – صلى الله عليه و سلم – اهتماما بالغاً بالعلاج والصحة الإنسانية حتى أباح على سبيل العلاج استعمال الأشياء التي لا تباح في عامة الأحوال، إذا لم يكن لها بديل في الأشياء المباحة.

و حفظ السر يعتبر قضية هامة بالنسبة للمريض، فقد يقع الإنسان في بعض الأوقات في مرض لا يحب إظهاره. و ترشدنا بهذا الصدد الأصول و المبادئ التي وضعها الرسول – صلى الله عليه و سلم – بشأن الغيبة؛ فإنها تعني إظهار العيب الجسدي أو الفكري أو الخلقي أو العملي للآخرين. و هي محرمة و إثم، و نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عنها بشدة. و به يظهر أنه لا بد للأطباء أن يعملوا بالأمانة مع المرضى بشأن الأمراض التي لا يحبون إظهارها أمام الآخرين، و أن يستروها، غير أنه إذا لم يمكن تخليص أحد من الغش و الخسارة إلا بكشف ذلك، فيجوز بالنسبة له إظهاره. و قد ثبت عن النبي – صلى الله عليه و سلم – أنه أظهر العيب لمن يريد الزواج، فعن فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ خَطَبَنِي مُعَاوِيَةُ، وَأَبُو جَهْمِ بْنُ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَعَائِلٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؟"، فَكَأَنَّ أَهْلَهَا كَرِهُوا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: لَا أَنْكِحُ إِلَّا الَّذِي دَعَانِي إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَنَكَحَتْهُ ". ([2]).

و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على صفة من صفات الإسلام وهو الاتزان و الاعتدال الذي يعتبر ميزة حقيقية له.

---

[1] - أخرجه النسائي رقم٤٨٣٠، و في الكبرى رقم ٧٠٣٤، ٧٠٦٨، و أبوداود رقم ٤٥٨٦، و ابن ماجه رقم ٣٤٦٦، و هو حديث حسن.

[2] - أخرجه مسلم رقم ١٤٨٠، وأبو داود رقم ٢٢٨٧، و أحمد رقم ٢٧٣٣٣.

الأطفال الأيتام:

توفي والد النبي – صلى الله عليه و سلم – قبل ولادته الميمونة، و توفيت أمه – صلى الله عليه و سلم - حين كان ابن أربع سنوات، فلعل الله تعالى أراد أن تتم تربيته بأعينه بدون اللجوء إلى الوسائل الظاهرة، و أن يتمتع بالتربية الربانية ، فلما فتح عين وعيه و شعوره وجد نفسه الكريمة يتيما، فكان ذا تجربة و خبرة جميلة بمصائب اليتم و بلاياه، ولم تكن مشاكله و صعوباته أمرا غريبا عنه، بل مر – صلى الله عليه و سلم – بذاته بها، فمن هنا كان ذا شعور شديد بكون هذه الطبقة مظلومة مضطهدة، و مواجهة للاعتداءات و الظلم الاجتماعي.

و كان المجتمع العربي يبرر سلوكا جائرا للغاية مع الأيتام ، فكان يحرمهم من الميراث، و كان الرجال يتزوجون الفتيات اليتيمات بمهر ضئيل جدا، و يعاملون معهن معاملة غير عادلة، و كان الناس يأخذون المال الجيد من الأيتام و يعطونهم أموالهم الرديئة، و كانوا يتخذون معهم طريقة مزرية، و يطردونهم بالخداع و المكر، ويدفعونهم بعنف عن حقوقهم، ويزجرونهم زجرا عنيفا، حيث قال تعالى: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ). [١٠٧ / الماعون: ٢]. و قد ذكر القرآن الكريم كل ما كان يواجهه الأيتام من ظلم و جور في الحياة الاجتماعية، و قام النبي – صلى الله عليه و سلم – بالقضاء على جميع تلك الاعتداءات.

أقوال النبي – صلى الله عليه و سلم – بشأن الأيتام:

جعل النبي- صلى الله عليه و سلم – خير بيت بيتا فيه يتيم يسلك معه سلوكا حسنا، و شر بيت بيتا فيه يتيم يعامل معه معاملة سيئة، فعن أبى هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم

يساء إليه ". ([1]). و جعل كافل اليتيم قريبا منه – صلى الله عليه و سلم – كقرب السبابة و الوسطى، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قال: " كافِلُ اليتيم، له أو لغيره، أنا وهو كهاتَيْن في الجنة " ، وأشار مالك بالسبابة والوسطى. ([2]). و كان الناس عادة يعتبرون الأيتام ثقلا و حملا عليهم، و لكن النبي – صلى الله عليه و سلم – وجههم إلى أن لا يتصوروا مثل ذلك؛ لأن مثل هؤلاء الضعفاء قد يكونون سببا للرزق، فهم لا يطعمونهم و لكنهم في الحقيقة هم يطعمونهم، فعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ رَأَى سَعْدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ ". ([3]).

تأثير التعاليم النبوية –على صاحبها ألف ألف صلاة و سلام– في المسلمين:

ولقد تكونت طبيعة خاصة في الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – بتأثير التعاليم و التوجيهات النبوية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم – لخدمة الأيتام، و السلوك الجميل معهم و مواساتهم و مداراتهم و ملاطفتهم، حتى وصل الأمر بعبد الله بن عمر – رضي الله عنه – إلى أنه ما كان يأكل الطعام إلا مع يتيم، فعن أبي بكر بن حفص: أن عبد الله كان لا يأكل طعاما إلا وعلى خوانه يتيم ". ([4]). و رفع إلى النبي – صلى الله عليه و سلم – قضية الحديقة التي ادعاها يتيم، و لكن لم يستطع إثبات دعواه، و صدر الحكم ضده، فبدأ اليتيم يبكي، فرق قلبه – صلى الله

---

[1] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ١٣٧، و المروزي في " البر والصلة " رقم ٢٠٨، و ابن المبارك في الزهد رقم ٦٥٤، و الطبراني في الأوسط رقم ٤٧٨٥، و عبد بن حميد في مسنده رقم ١٤٦٧، و ابن ماجه رقم ٣٦٧٩، و البغوي في شرح السنة رقم ٣٤٥٥، و هو حديث حسن.

[2] - أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٣، و أحمد رقم ٨٨٨١.

[3] - أخرجه البخاري رقم ٢٨٩٦، و أحمد رقم ١٤٩٣.

[4] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ١٣٦، و البرجلاني في الكرم والجود رقم ٥٦، و هو أثر صحيح.

عليه و سلم – عليه، فرغب – صلى الله عليه و سلم – إلى طرف ثان لكي يتنازل عن الحديقة مراعيا ليتمه، و لكنه لم يرض بذلك، و كان أبو الدحداح – رضي الله عنه – حاضرا في مجلسه – صلى الله عليه و سلم – فوهب حديقته لليتيم، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ " فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: " فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ " قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ ". ([1]). و كفل النبي – صلى الله عليه و سلم – بنفسه عدة أيتام، و لما دخلت السيدة أم سلمة – رضي الله تعالى عنها – في عصمته – صلى الله عليه و سلم ، وكان معها أيتام، فأحبهم – صلى الله عليه و سلم – بحيث لم يشعروا بيتمهم.

و من وظائف القاضي و مسؤولياتهم المستقلة في الشريعة الإسلامية صيانة و مراقبة أموال الأيتام و ممتلكاتهم و عقاراتهم، و من فضل الإسلام أنه لما طلعت شمسه، بدأ وقف العقارات عليهم، و إنشاء دور اليتامى. و لعله لا يوجد نظير لدور الأيتام القائمة لدى المسلمين ، و لمراعاة حقوق الأيتام في مجتمع مسلم، في مجتمع آخر.

الحيوانات:

سحابة الرحمة التي ظهرت في صورة النبي – صلى الله عليه و سلم –

---

[1] - أخرجه أحمد رقم ١٢٤٨٢، و عبد بن حميد (١٣٣٤)، و ابن حبان (٧١٥٩)، والطبراني ٢٢/ (٧٦٣)، و إسناده صحيح.

لم تمطر على البشرية فحسب، بل سقت الكون كله كذلك، فكما متع – صلى الله عليه و سلم – الإنسان الناطق بكرمه و جوده، فكذلك أغدق على الحيوانات العجماء رحمته بدون حد. و لا شك أن الإنسان حين يركب على شقاوته، و يصبح الجور و الظلم طبيعته، فلا يتوقف جوره على حد، و يجعل الحيوانات العجماء عرضة لظلمه و اعتدائه، و يبتعد عن الأدب و الثقافة. و كان العرب يعيشون على الحيوانات، فيتناولون لبنها كالغذاء، و كانت ظهورها مطية لهم و وسيلة رئيسية لحمل الأعباء و الأثقال، و تدور تجارتهم عليها، و كانوا يصنعون من جلودها أشياء، و مع ذلك كان سلوكهم مع الحيوانات قاسيا و جائرا غير رحيم.

الأمر بالسلوك الجميل مع الحيوانات:

نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – سلوكا غير إنساني مع الحيوانات، فنهى عن الضرب على وجهها، فعن أبي سعيد عن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: " لا تضربوا وجوه الدواب؛ فإن كل شيء يسبح بحمده ". ([١])، و عن جابر: نهى رسول الله - صلى الله عليه و سلم - عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه ". ([٢]). و منع من اتخاذها هدفا، فعن ابن عباس: أن النبي - صلى الله عليه و سلم - قال: " لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا ". ([٣])، و عن سعيد بن جبير قال: مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا ؟لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا". ([٤])، و عن عبد الله بن جعفر قال: مر رسول الله - صلى الله عليه و

---

[١] - أخرجه الديلمي في الفردوس رقم ٧٤٣٥، و هو حديث صحيح.

[٢] - أخرجه مسلم رقم ٢١١٦، والترمذي رقم ١٧١٠.

[٣] - أخرجه مسلم رقم ١٩٥٧.

[٤] - أخرجه البخاري رقم ٥٥١٥، و مسلم رقم ١٩٥٨.

سلم - على أناس وهم يرمون كبشا بالنبل، فكره ذلك، وقال: لا تمثلوا بالبهائم ". ([1]). وكان الناس يجعلون الحيوانات تتصارع و يتفرجون عليها، فمنع – صلى الله عليه و سلم – عن هذه الوحشية و الضراوة، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: قال: " نَهى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم- عن التحريش بين البهائم ". ([2]). و أمر بمراعاة علف الدابة و حاجاتها، و رأى جملا يلصق بطنه بظهره، فقال: اتقوا الله تعالى بشأن هذه الحيوانات، فعن سهل بن الحنظلية - رضي الله عنه -: قال: " مرَّ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ببعير قد لَحِقَ ظهرهُ ببطنِهِ، فقال: اتَّقُوا اللهَ فِي هذه البهائمِ المُعْجَمَةِ: فَاركَبوها صَالِحة، وَكُلُوهَا صالحة ". ([3]). و ظهرت معجزة بهذا الشأن، فإن جملا شكا مالكه، فنبهه على ذلك، فعن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه -: قال: " دخل رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-حائطا لرَجُلٍ من الأنصار، فَإِذَا فيه جَمَلٌ، فلما رأى النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- حَنَّ، وذَرَفَتْ عَيناهُ، فأَتَاهُ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-، فمسحَ ذِفْرَاهُ، فسكتَ، فقال: مَنْ رَبُّ هذا الجملِ ؟لِمَن هذا الجَملُ ؟فجاءَ فَتى مِن الأنصارِ، فقال: لي يا رسول الله، فقال له: أَفلا تَتَّقي اللهَ في هذه البَهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاها، فَإِنَّهُ شَكا إِلَيَّ: أَنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ ". ([4]). و لا نعتبر مثل هذه الواقعات غير ممكنة، فالممكن و غير الممكن من ناحية الخلق، و لا يستحيل شيء على خالق الكون. و أرشد النبي – صلى الله عليه و سلم – إلى سوق البهائم ببطء و تمكينها من الرعي في فصل الخضرة، و الإسراع بها في السير في حال الجدب، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل

[1] - أخرجه النسائي رقم ٤٤٤٠، و في الكبرى رقم ٤٥٢٩، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه أبوداود رقم ٢٥٦٢، و الترمذي رقم ١٧٠٨، و البيهقي في شعب الإيمان رقم ٦٥٣٩، و أبويعلى رقم ٢٥٠٩، بإسناد لا بأس به.

[3] - أخرجه أبوداود رقم ١٦٢٩، ٢٥٤٨، و ابن حبان (٥٤٥) و (٣٣٩٤)، و أحمد رقم ١٧٦٢٥، و هو حديث صحيح.

[4] - أخرجه مسلم رقم ٣٤٢، و٢٤٢٩، والدارمي (٦٦٣) و (٧٥٥)، وأبو داود (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٣٤٠)، و أحمد رقم ١٧٤٥.

حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فأسرعوا عليها في السير ". ([1]). و وجه – صلى الله عليه و سلم – إلى استخدام كل حيوان في عمله الخاص، فنهى عن اتخاذه منبرا، و المراد منه أن لا يستخدم كالمنصة حتى يخطب عليه قائما أو جالسا، و قال – صلى الله عليه و سلم -: " إن شخصا كان يركب ثورا، فتوجه إليه بقدرة الله الخاصة، و بدأ يقول: إني لم أخلق لهذه العملية، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه -: " عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ، قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي، قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَمَا هُمَا يَوْمَئِذٍ فِي الْقَوْمِ ". ([2]).

و أعلمنا النبي – صلى الله عليه و سلم – أن ثواب الآخرة و عذابها يرتبطان أيضا بالمعاملة الجميلة أو السيئة مع البهائم، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ. قَالَ: فَقَالَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ ". ([3]). و قال – صلى الله عليه و سلم -: يدخل الجنة شخص قام بقضاء حاجة الكلب، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا يَا

---

[1] - أخرجه مسلم رقم ١٩٢٦، و أبوداود رقم٢٥٦٩، وابن حبان رقم ٢٧٠٣، ٢٧٠٥.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٢٣٢٤، ٣٦٦٣، و مسلم رقم ٢٣٨٨.

[3] - أخرجه البخاري رقم ٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢، و مسلم رقم ٢٢٤٢.

رَسُولَ اللَّهِ: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ". ([1]). و جعل – صلى الله عليه و سلم – أجر الصدقة في كل ما يتناوله حيوان و طير من مزارع الإنسان، فعن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق له منه صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة ". ([2]).

إهلاك البهيمة بدون حاجة:

أباح الإسلام أكل اللحوم، و لكن لا يصح التعرض لقتل البهائم بدون سبب، فقد أمسك شخص عصفورا، و كانت أمه في قلق، فكره – صلى الله عليه و سلم - ذلك. و جعل المسؤولية في ذبح عصفور بدون حاجة على الذابح، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أَنَّ رسولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قال:" مَا مِن إنسان يَقْتُلُ عُصْفُورا فما فوقها بغير حَقٍّ إلا سَأَلَهُ اللهُ عز وجل عَنها، قيل: يا رسولَ الله، وما حَقُّها ؟قال: يَذْبَحُها فيأكُلُهَا، ولا يَقْطع رأسها ويَرمِي بِهَا ". ([3]). و عن الشَّرِيد يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: " مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا، عَجَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ ". ([4]). و عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " مَنْ ذَبَحَ عُصْفُورًا أَوْ قَتَلَهُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ إِلَّا بِحَقِّهِ، سَأَلَهُ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". ([5]). و من هنا منع النبي – صلى الله عليه و

[1] - أخرجه البخاري رقم ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ٦٠٠٩، و مسلم رقم ٢٢٤٤.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٢٣٢٠، ومسلم رقم ١٥٥٢.

[3] - أخرجه النسائي رقم ٤٣٤٩، و الحميدي رقم ٥٨٧، بإسناد فيه مقال.

[4] - أخرجه النسائي رقم ٤٤٤٦، وفي "الكبرى" (٤٥٣٥)، وابنُ حبان (٥٨٩٤)، و أحمد رقم ١٩٤٧٠، بإسناد فيه مقال.

[5] - أخرجه أحمد رقم ٦٥٥٠، و الطيالسي (٢٢٧٩) بإسناد فيه مقال.

سلم – عن قتل المخلوقات التي لا يستخدمها الإنسان، فنهى بصراحة عن قتل النمل و النحل و الهدهد و نحوه، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: " أَنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّرد". ([1]). و نهى بكل شدة عن إحراق حيوان، فعن حمزة الأسلمي - رضي الله عنه -:قال:إنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم -قال: " إنْ وَجَدْتُمْ فلانا فاقتلوه، ولا تُحَرِّقُوهُ، فإنهُ لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا ربُّ النار ". ([2]). و مرة أوقد الناس الموقد في مكان كان فيه أجحار النمل، فأمر – صلى الله عليه و سلم – بإطفائه، و عوتب نبي – عليه السلام – أمر بإحراق قرية النمل، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه - قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: قرصت نملةٌ نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أن قرصتك نملةٌ أحرقت أمةً من الأمم تسبح ". ([3]).

الطريقة المهذبة للذبح:

ثم وضع الرسول – صلى الله عليه و سلم – مبادئ و أصولا للذبح بشأن الحيوانات التي يباح أكلها و ذبحها للأكل، بينما لم تكن أصول موضوعة للذبح قبل الإسلام، فكانوا يهلكون الحيوان كيفما يشاءون و يأكلونه، و لكن النبي – صلى الله عليه و سلم – أمر بإحسان الذبح، و استخدام الشفرة الحادة؛ لأن الذبح بسكين غير حادة يؤدي إلى تألم الحيوان الزائد، فعن شداد بن أوس - رضي الله عنه -:قال: " ثِنتان حَفِظْتُهُما عن رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فَإذا قَتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذَبحتُم

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٥٢٦٧، و الدارمي رقم ٢٠٠٥، و أحمد رقم ٣٠٦٦، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه أبو داود رقم ٢٦٧٣، و أحمد رقم ١٦٠٣٤، و هو حديث صحيح.

[3] - أخرجه البخاري رقم ٣٠١٩، ومسلم رقم ٢٢٤١، و النسائي رقم ٤٣٥٨، و أبوداود رقم ٥٢٦٦.

فأحْسِنُوا الذَّبحَ، وليُحدَّ أحدُكم شَفرَته، ولْيُرِحْ ذبيحَته ". ([1]). و أمر كذلك بتعجيل إمرارها و عدم إحداد السكين بحضرة الذبيحة، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها، و أن يتم الذبح في الحلقوم، و يقطع الودج، حتى تخرج النفس بسرعة ولا تبقى حياة، و يتخلص الحيوان من الأذى. و كان الناس يذبحون بالقرض بالسن، و القطع بالظفر، فنهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن هذه الطريقة الوحشية، فعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أن النبي – صلى الله عليه و سلم – قال: " مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَى الْحَبَشَةِ ". ([2]). و قد كان يبان الجزء الذي يرغب فيه من الحيوان الحي، فكان بعض الناس يقطعون سنام البعير، و بعضهم يقطعون ذنب الأكباش و يأكلونه، فنهى – صلى الله عليه و سلم – عن هذه الطرق الوحشية الجائرة، و وضع قاعدة أن الجزء الذي أبين من الحيوان الحي فهو في حكم الميتة، فعن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ - رضي الله عنه -: قال:" قَدِمَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- المدينةَ، وهم يَجُبُّونَ أَسنِمَةَ الإبل، ويَقْطَعُونَ أَلْيَاتِ الغَنم، ويأكُلُونَ ذلك، فقال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: ما يُقْطَعُ من البهيمةِ وهي حَيَّة، فهو مَيتَة لا يُؤكَلُ ". ([3]). و كانت الحيوانات تتخذ هدفا، فيربط الحيوان الذي يقدر عليه، ويرمونه بالسهم و نحوه، ثم يأكلونه في النهاية، و كان يسمى بالعربية " صبورا "، فنهى النبي – صلى الله عليه و سلم – بكل شدة عن اتخاذ حيوان هدفا، و حرم ما أهلك بهذه الطريقة،

---

[1] - أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥، و الدارمي رقم ١٩٧٠.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٢٤٨٨، ٢٥٠٧، ٣٠٧٥، ٥٤٩٨، ٥٥٠٣، ٥٥٠٦، ٥٥٠٩، ٥٥٤٣، و مسلم رقم ١٩٦٨.

[3] - أخرجه أبوداود رقم ٢٨٥٨، و الترمذي رقم ١٤٨٠، و الدارمي رقم ٢٠١٨، و أحمد رقم ٢١٩٠٣، و هو حديث حسن.

حتى يجتنب الناس عن هذه الحركات الوحشية و الأفعال الضارية، فعَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ دَخَلْتُ مَعَ أَنَسٍ عَلَى الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ فَرَأَى غِلْمَانًا أَوْ فِتْيَانًا نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا. فَقَالَ أَنَسٌ: نَهَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ ". ([١]). و عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى رَابِطٌ دَجَاجَةً يَرْمِيهَا، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمَرَ حَتَّى حَلَّهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ، فَقَالَ: ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهِيمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ ". ([٢]). و عن جابر بن عبدالله يقول: نهى رسول الله - صلى الله عليه و سلم - أن يقتل شيء من الدواب صبرا ". ([٣]).

أكل اللحم في الديانة الهندوسية:

يرى بعض الناس أن الإسلام بإباحته أكل اللحم برهن على القسوة، كما يرى بعض إخوتنا الهندوس الذين يجهلون حقيقة الأمر أن الإسلام ليس إلا عبارة عن أكل اللحم، فلا يغيبن عن البال بهذا الصدد في البدء أن أكل اللحم أبيح في جميع ديانات العالم ما عدا الديانات الهندية، و اعترفت هذه الديانات كلها بأن " اللحم" مادة غذائية بشرية هامة، و الواقع أن إباحة أكل اللحم موجودة كذلك في الديانات التي تولدت في الهند ما عدا " الديانة الجينية ". و إن اشتهر في الوقت الحاضر لدى إخواننا الهندوس أن أكل اللحم محظور عليه في ديانتهم، و لكن يعتبر هذا مجرد جهل بديانتهم و تاريخهم، فقد جاء ذكر أكل البهائم و طبخها و التضحية بها في كتب " الويد " (الكتب المقدسة لدى الهندوس)، ففي " رك ويد ": " يا إلهي، يطبخ لك "

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٥٥١٣، و مسلم رقم١٩٥٦.

[٢] - أخرجه البخاري رقم ٥٥١٤.

[٣] - أخرجه مسلم رقم ١٩٥٩.

بسان " و " وشنو " مائة جاموس". ([1]). و في " يجرويد " جاء ذكر تقديم القرابين إلى الإله في صورة الفرس و الفحل و الثور و البقرات التي لا تلد و الجواميس. ([2]). و ورد في " منوسمرتي": " الابن يشبع إلى شهرين بلحم السمك، و إلى ثلاثة أشهر بلحم الظبي، و إلى أربعة أشهر بلحم الضأن، و إلى خمسة أشهر بلحم الطير". ([3]).

و قد اعترف " غاندي " بأن عملية التضحية بالبهائم و أكل اللحم كانت سائدة إلى مدة في المجتمع الهندوسي، و كانت تقدم قرابين البهائم في الأضاحي الويدية كذلك، كما قال الدكتور " تارا تشند ".

و الواقع أن ديانات العالم لم تتفق على كون اللحم غذاء بشريا، و على إباحة ذبح الحيوان لهذا الغرض فحسب، بل لزم حله بمقتضى الفطرة و من الناحية العقلية كذلك.

أكل اللحم من اقتضاء الفطرة:

يرى الذين يمنعون أكل اللحم أنه يفضي إلى قتل الكائن الحي، و لا شك في ذلك، و لكنه ينسجم مع النظام الفطري للكون؛ لأن خالقه أراد أن يكون الخلق الأدنى غذاء للمخلوق الأعلى و وسيلة لعيشه و ذريعة لبقاءه. و لنتدبر، هل يمكن الاجتناب من قتل الكائن الحي ؟و الجواب واضح، فإنك حين تتناول كأسا من الماء أو الحليب، فإنك تسمح بلسان الحال بالموت لمئات من الجراثيم، ثم إن الأدوية التي تستخدمها ماذا تعمل في جسدك ؟فإنها ليست من عمليتها إلا قتل الجراثيم الضارة التي تولدت في جسمك، و التي تنتعش و تنمو، فلا يمكن حتى شرب الماء، و لا يباح حتى استخدام الأدوية بالفكرة الواسعة لقتل الكائن الحي.

---

[1] - رك ويد ٦: ١١: ١٧.

[2] - يجرويد، أدهيائ، ٢٠ / ٧٨.

[3] - منو سمرتي أدهيائ: ٣: ٢٦٨.

ثم أثبت العلم (Science) اليوم أن الروح و الحياة كما تسري في الحيوانات، فكذلك تسري في النباتات و الأغراس و الشجيرات، و هي لا تخلو من الشعور. و تسلم الفلسفة الهندوسية كذلك بالحياة فيها، فقد جعل " سوامي ديانند " ثلاثة قوالب لانتقال الروح بالتناسخ: ١ – الإنسان. ٢ – الحيوان. ٣ –ففيه اعتراف صريح بالحياة في النباتات، فإذا أردنا الابتعاد عن قتل الكائن الحي؛ فإننا نحتاج إلى الابتعاد عن الأغذية النباتية كذلك، فكأنه لا مجال في هذا الكون للأناسي الذين يريدون أن يعيشوا مبتعدين ابتعادا تاما عن قتل الكائن الحي.

أكل اللحم من ناحية الاقتصاد:

يتوفر الجزء الأكبر من الغذاء الإنساني بالحيوان؛ فإن بعض المناطق باردة شديدة البرودة، أو حارة شديدة الحرارة كمناطق الصحراء، لا يمكن فيها الزراعة، فاللحم هو الذي يستخدم في تلك الأمكنة كالغذاء الإنساني، ثم في الجسم الإنساني بعض العناصر لا يسد نقصها إلا باللحم، و زد إلى ذلك أن الحيوان يتعطل نفعه بوصوله إلى سن، فلا يحصل منه لبن، و لا يستخدم في عمل، فإن لم تسمح في هذه الحالة بجعله غذاء؛ فإنه يصبح ثقلا كبيرا على الذين يربون الحيوانات. و كيف يتحمل هذا الحمل الفلاحون الفقراء الذين لا يستطيعون أن يشبعوا بأنفسهم؟

و قد يقول بعض الناس: إننا لا نطالب بالحظر على ذبح البقرات من وجهة النظر الدينية؛ بل هي حاجة اقتصادية؛ لأن الحيوان إذا لم يذبح، فالناس يجدون اللبن و السمن بأسعار رخيصة، فينتفع عامة الناس بذلك، و لكنه ليس إلا من باب الأوهام؛ فإن البلاد التي يذبح فيها الحيوانات أكثر من الهند، و ليس هناك حظر بنوع ما على ذبح الحيوانات، فاللبن و السمن فيها

أرخص و أوفر بالنسبة للهند، و على سبيل المثال: أمريكا و أوربا، و مع أن في بلادنا حظرا على ذبح البقرات في كثير من المناطق، و تحديدات عديدة على ذبح الحيوانات الأخرى، و بالرغم من ذلك فاللبن و السمن أغلى فيها بالنسبة لتلك البلاد.

و بالإضافة إلى ذلك أن من الحقيقة أن الدول الراقية المختلفة في العالم تصدر اليوم اللحوم على نطاق واسع بتربية الحيوانات و تنمية نسلها، و تحصل على منافع اقتصادية كثيرة، فإن تم الحظر على ذلك في بلادنا، فإن ذلك يؤدي إلى الخسارة الكبرى في الإيرادات الحاصلة للوطن و القوم عن طريق تصديرات اللحوم و الجلود و ما إلى ذلك.

هل يجعل أكل اللحم الإنسان متطرفا؟:

يرى بعض الناس أن أكل اللحم يؤدي إلى تكون طبيعة التطرف و القتل في الإنسان، و يعكس فيه أثرا خلقيا سلبيا، و لكن تاريخ العالم و البيئة الحالية لبلادنا ينفيان ذلك، فقد تم كل ما حدث اليوم في الهند من اضطرابات طائفية، و اضطهاد و اعتداء على الحرمات و مجزرة دامية و تلاعب بالدماء في " ميرت " و " بهاجلفور " بأيدي الذين يأكلون البقول و الخضار، و يخالفون أكل اللحم. و يعتبر غوتم بوذا (Buddha) و المسيح – عليه و على نبينا السلام – من بين زعماء العالم أكبر دعاة إلى عدم التطرف و الشفقة و العطف و الرحمة، فهل كانت هذه الشخصيات المختارة تمتنع عن أكل اللحم ؟و مما لا شك فيه أن هؤلاء كلهم كانوا يأكلون اللحم، و لم يكن بوذا (Buddha) آكل اللحم فحسب، بل لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ما تناول اللحم. و هل في الدنيا شخص أشد جورا و تطرفا و قساوة و ضراوة من " هتلر "؟لكنه ما كان يتناول اللحم؛ بل كان يتخذ غذاءه من الخضروات. و لذا يعتبر من الجهل و الحمق ربط

الأغذية بالقتل أو عدم القتل. فإذا لم تتغير دنيا القلوب، و لم يتعلم الإنسان حب البشرية، و لم يتصف بالخشية من الله تعالى، و لم يتولد فيه الشعور بالمسؤولية في الآخرة؛ فإن مجرد الأغذية لاتستطيع أن تغير طبيعة الإنسان و مذاقه.

الكلمة الأخيرة:

كان النبي – صلى الله عليه و سلم – صورة مجسمة للرحمة، فكانت شخصيته – صلى الله عليه و سلم – المتصفة بعظيم الشمائل والخِصال، وكريم الصفات والأفعال عبارة عن الرقة و الرأفة و العطف على البشرية، حتى شملت رحمته و محبته الصديق و العدو، والقريب والبعيد، و الغني و الفقير، و القوي و الضعيف، و الكبير و الصغير، و لكن كما يميل الأب العطوف و الأم الحنون أكثر ما يميل إلى من هو معوق أو مقعد أو أضعف من أولاده، و إلى من هو أشد فقرا و إفلاسا منهم، فكذلك بل فوق ذلك أظلت رحمته – صلى الله عليه و سلم – الذين كانوا مقهورين و مضطهدين و منكوبين، فالضعيف قوي في مجلس عدله، و الطريد يستحق عنده التكريم و الترحيب بقدر إصابته، و المظلوم يستحق الرحمة لديه بقدر ما وقع عليه الظلم، و الذي أهين بغير حق، يستحق في مجلسه التوقير و التبجيل بقدر إهانته، و الذي أهمل أكرم بالرعاية و العطف و الفضل بقدر ذلك، و لم يكن شيء أرفع من العدل بعد الإيمان أحب إليه، و لم يكن شيء أشد كراهية له – صلى الله عليه و سلم – من الظلم بعد الكفر. و لم يكن الأمر يتوقف على العبيد و العاملين و الأجراء و الأيتام و المرضى و الحيوانات العجماء، بل استحق كل ضعيف رحمته – صلى الله عليه و سلم -. و ذكرنا بعض الطبقات المستضعفة في السطور المتقدمة ليعرف منه طبيعة الإسلام و

رسوله – صلى الله عليه و سلم -.

و فيه رسالة للأمة أنه لا يعود إليها واجبات بشأن أنفسهم فحسب، بل عليها واجبات و حقوق للبشرية كذلك، و بالأخص عليها النهوض لنصرة ناس مظلومين و مقهورين ، و المحاولة للإنصاف معهم، و تبليغ رسالة العدل للإسلام إلى البشرية. و تتضاعف المسؤوليات بالنسبة إلينا في بلادنا " الهند " التي يواجه فيها فئة كبيرة من البشرية الظلم و الجور باستمرار، و هي حرمت من العدل الاجتماعي.

و فقنا الله تعالى لنحقق هذه المهمات و نقوم بالمسؤوليات الملقاة على كواهلنا.

▼ ▼ ▼

الأسئلة و الأجوبة

حكم قتل الحيات و السباع:

السؤال الأول: قال فضيلتكم: لا يصح قتل الحيات والأسبع، فهل يجوز أن نقتل الحيوانات الضارة بالإنسان ؟

الجواب: ما بينت هذا الحكم بشأن السباع و الحيوانات المؤذية؛ بل تكلمت عن الحيوانات العامة، و قلت: إنه لا يجوز قتلها بدون حاجة، فلا حرج في قتل الحيوانات التي تتعرض بسببها الحياة الإنسانية للمخاطر.

حبس الطيور:

السؤال الثاني: ما حكم تربية الطيور بحبسها للجمال؟

الجواب: لا يخلو حبس الطيور لمجرد الزينة من الكراهة؛ لأن فيه إيذاء الحيوان بدون حق و منفعة، و رأى النبي –صلى الله عليه و سلم– شخصا يمسك الطيور، و أمها مضطربة، فكره –صلى الله عليه و سلم– ذلك.

لماذا يقطع نصف العنق من الحيوان فحسب؟

السؤال الثالث: لماذا يقطع نصف العنق من الحيوان فحسب؟ و لا يقطع العنق كله، فما المصلحة في ذلك ؟

الجواب: أمر بقطع نصف العنق من الحيوان بحيث يقطع المريء و الحلقوم و الودجان، ليتم إجهازه بسرعة، و تذهب نفسه بعجلة، و لا يتضرر الحيوان كثيرا، فإذا قطع عنق الحيوان كله، فهذا يوقعه في الألم الزائد بدون سبب.

استخدام المادة الكيميائية للقضاء على البعوض و الذباب:

السؤال الرابع: تزداد البعوض و الذباب يوما فيوما، فكيف نصنع بها؟ و

هل يجوز استخدام شيء من المادة الكيميائية؟

الجواب: أن مرادي مما سبق أن عقوبة الإحراق لا تليق إلا بالله تعالى، كما جاء في الروايات، و لكن لا بأس باستخدام المادة الكيميائية، و اتخاذ التدابير الأخرى للتخلص من الجراثيم المضرة.

التجارب الطبية على الحيوانات:

السؤال الخامس: ما وجهة نظر الإسلام بشأن الاختبار الطبي (Medical experimentation) على الحيوانات الحية و الميتة؟

الجواب: يرى الإسلام أن هذا الكون كله خلق لصالح الإنسان، فيجوز الاستفادة منه للأغراض المشروعة، فكما أن الغذاء حاجة للإنسان فكذلك بل فوق ذلك العلاج أيضا حاجة لهم، فلا حرج في إجراء الاختبار على الحيوانات للأهداف الطبية.

قطع ذنب الكبش الحي:

السؤال السادس: تكون قطعة لحم على ذنب الكبش، فهل يجوز إخراجها في حالة كونه حيا ؟

الجواب: هي طريقة مؤلمة جدا للحيوان، فكان العرب يعملون مثل هذا العمل، و بخاصة كانوا يقطعون سنام البعير ذا كتل من الشحم و يطبخونه و يأكلونه، فنهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن هذه الطريقة الوحشية البربرية، فلا يجوز بتاتا قطع اللحم من ذنب الكبش في حالة كونه حيا، و ما قطع منه فهو في حكم الميتة، و لا يحل أكله.

ماذا يصنع مع الكلاب؟

السؤال السابع: كيف يصنع مع الكلاب ؟مع أننا سمعنا أن الملائكة لا تدخل في المكان الذي مر به الكلب.

الجواب: الكلب خلق إلهي، فلا يجوز إيذائه عبثا بدون جدوى، أو

قتله بدون سبب، و قد أمر النبي – صلى الله عليه و سلم – بقتل الكلاب في البداية، و لكن نهى عنه فيما بعد، فعن عبد الله بن مغفل قال: إني لممن يرفع أغصان الشجرة عن وجه رسول الله - صلى الله عليه و سلم - وهو يخطب، فقال: لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم، وما من أهل بيت يرتبطون كلبا إلا نقص من عملهم كل يوم قيراط إلا كلب صيد أو كلب حرث أو كلب غنم ". ([1])، غير أنه إذا كان يخشى من الكلاب الخطر، كما يخشى عادة من الكلاب المجنونة، فلا حرج في قتلها. و يباح اتخاذ كلب حراسة إذا لزم اتخاذه، و لكن لا يباح تربية الكلاب، و اتخاذها في الدار، و معاشرتها عبثا بدون جدوى، و هو عمل لا يناسب من وجهة النظر الإسلامية، و فيه ضرر من الناحية الطبية كذلك.

حكم تربية الببغاوات و الطيور:

السؤال الثامن: من فضلك سلط الضوء على تربية الببغاوات و الطيور و تجارتها.

الجواب: لا ينبغي حبس الطيور لأجل الزينة عبثا، غير أنه إذا تم إيناس الطير بحيث يرضى بالبقاء لدى المؤنس بدون حبس، فلا حرج في ذلك، كما يربى الحمام، و مع ذلك يباح بيعه و شراؤه بعد السيطرة عليه؛ لأنه مال في نظر الشريعة الإسلامية، و إذا كان في قبضته و تحت سيطرته، فوجد القبض المشروط، و يجب توفر الشيئين بصفة أساسية لبيع شيء و شرائه: أحدهما أن يكون مالا. و ثانيهما أن يكون في حيازته و قبضته.

▼ ▼ ▼

[1] - أخرجه النسائي رقم ٤٢٨٠، والترمذي رقم ١٤٨٩، و أحمد رقم ١٦٧٨٨، و هو حديث صحيح.

الخطبة الخامسة

رسول الإسلام و الحقوق الإنسانية الأساسية

ألقيت في ٧ / من ذي الحجة عام ١٤١٧ هـ
الموافق ١٥ / من أبريل سنة ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لنتدبر في كم مدة قليلة حدث انقلاب اعتقادي و اجتماعي و حضاري و علمي و خلقي و سياسي شامل، بيد النبي – صلى الله عليه و سلم؟و في كم مدة يسيرة انتشرت الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب كلها، بحيث لم يبق بيت مدر و حجر محروما من هذا الضوء، و تعطرت جزيرة العرب كلها بطيب أنوار الإسلام في حياته – صلى الله عليه و سلم - النزيهة، فالمنطقة التي كانت أشقى المناطق في العالم، أصبحت يغبط عليها. و أيام دعوته – صلى الله عليه و سلم – على الأكثر ٨١٥٦ يوما، و تشرفت في كل يوم ٢٧٤ ميل مربع باستجابة دعوته – صلى الله عليه و سلم -، ثم أثرت هذه الدعوة الحقة في الناس تأثيرا، و تغير بها القلب و الذهن تغيرا، و أحدث حب الدين النبوي – على صاحبه أفضل صلاة و تسليم – حماسة و سموا في الهمم، أن وصل الإسلام بعد وفاته – صلى الله عليه و سلم – في مدة وجيزة مشتملة على مجرد خمس عشرة سنة إلى ثلاث قارات معلومة: آسيا (Asia) و أفريقيا و أوروبا. و لم تصر هذه المناطق مفتوحة للإسلام فحسب، بل فتح المسلمون أينما حلوا قلوب سكانهم كذلك، و أوقدوا مجامر الإيمان في المناطق الباردة من الكفر، و نصبوا ألوية الرسالة المحمدية و الأخوة الإنسانية.

و لكن الذي يدعو إلى التفكير، هو أين ذهب تلك القوة الانقلابية ؟و لماذا تخلت النصرة الإلهية عنا ؟و لماذا ابتعد عنا الانتصار و الظفر ؟

أهمية موضوع: "الحقوق الإنسانية الأساسية":

اخترت اليوم موضوعا هاما جمع في داخله روح جميع الموضوعات المتقدمة، فالذي أتحدث عنه الآن هو أن الإسلام ماذا منح البشرية بصفة إنسانية من الحقوق الرئيسية، و بكم ناحية، أظلت رحمته –

صلى الله عليه و سلم - الكون الإنساني؟ و ما هي الجوانب المختلفة من الحياة البشرية التي شملتها؟

قضية الحقوق الإنسانية الرئيسية في عصرنا الحاضر:

تعتبر قضية الحقوق الإنسانية الأساسية قضية هامة للغاية في عصرنا الحاضر على المستوى الدولي، فقد عرض البشرية، التدمير و التخريب الذي كان نتيجة للحرب العالمية الأولى و الثانية اللتين نشبتا بين الأمم العظيمة والراقية، لكرب لا يوجد له نظير في التاريخ الإنساني، فيما يغلب على الظن، فقد جعلت هذه الحروب المفتوحين لعبة للفاتحين، و تم التلاعب بأنفس الإنسان و أموالهم و أعراضهم و حرماتهم بطريقة يندى لها حتى أجبنة الشياطين كذلك حياء بمشاهدتها، حتى وافقت الهيئة العمومية للأمم المتحدة (General assembly of the United Nations) في ديسمبر عام ١٩٤٨ م على قرار يتعلق بالحقوق الإنسانية الرئيسية، يشتمل على ثلاثين بندا، ثم زيد فيه بعض الزيادات بين الفينة والفينة، و يعتبر هذا القرار محاولة تاريخية عظيمة للحفاظ على الحقوق الإنسانية في الوقت الحاضر. و قد وضعت الأمم الغربية التي لعبت دورا قاتلا للبشرية، و لم تزل تساند كل أمة تغزو أمة أخرى في أي مكان من العالم في العصر الحاضر كذلك، بترتيب هذا القرار إكليل الصداقة الإنسانية على رأسها، بينما هي التي تقوم بتجارة الأسلحة المدمرة، و تاريخهم الحقيقي مليء بدماء المظلومين و المستضعفين.

أهمية خطبة حجة الوداع:

أرى أن القيام بدراسة خطبة حجة الوداع من وجهة نظر الحقوق الإنسانية الرئيسية يجعل الدارس يدرك أن هذه الخطبة التاريخية جامعة لجميع الحقوق الأساسية تقريبا، و كم هي بليغة، و حازة للعواطف الكفرية

يبدو أن ذكر هذه الأمور بهذا الاستيعاب و الجامعية، و بمثل هذا الأسلوب المؤثر يكاد يكون عسيرا. و ليس بمستغرب أن أقول: إن كل ما أبينه اليوم ليس إلا أدنى محاولة لشرح و إيضاح هذه الخطبة النبوية – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم -.

إعلان المجد البشري و الكرامة الإنسانية:

لا شك أن أهم أمر أن النبي – صلى الله عليه و سلم – أعلن بالمجد و الكرامة الإنسانية بصفة إنسانية، بغض النظر عن الدين و الجنسية و العقيدة و اللون و العرق و المنطقة و اللغة، حيث جاء في القرآن الكريم: (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا). [١٧ / الإسراء: ٧٠].

و الإنسان يضرب أمثلة بنورالشمس و جمال القمر و تجليه، و يشبه أفراد البشر بالورد واللآلئ، و يعجبه عيون الظبي، و يستهويه النرجس، و لكن هذا من قصر نظر الإنسان، و إلا فليس هناك في الحقيقة قالب خلقي أرفع من قالب الإنسان الذي وضع الله تعالى فيه ما وضع من جوانب جمالية، و ركبه في أية صورة من الزينة، و هذبه بأي تهذيب من أظافر الرجل إلى الرأس، و لأجل ذلك قال الله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ). [٩٥ / التين: ٤].

التوحيد مظهر لاحترام الجيل البشري:

إن أكبر مظهر لاحترام الإنسانية عقيدة التوحيد النقية، التي تجعل الإنسان أن يسجد لله تعالى في جانب، و في جانب آخر تغنيه من خلائق العالم كلها، و تخلصه من السجود على كل عتبة، فلا تكريم للإنسانية أكبر من التوحيد، و لا أشد إذلالا لها من الشرك، فالإنسان في نظر الإسلام أشد احتراما و إكراما من الشمس و القمر، و الأحجار، و الفولاذ، و أمواج الأنهار،

و الجبال الشامخات الثابتات على الأرض، و من كل شيء في العالم. فلا يضع جبهته و لا يطأطئ رأسه أمام أحد غير الله تعالى. و هي عصارة الجهود و المحاولات التي بذلها رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – طول حياته، و هكذا خلص – صلى الله عليه و سلم – الإنسان من ذل و خزي عظيم.

مراعاة الحرمة الإنسانية:

كان – صلى الله عليه و سلم – يراعي الحرمة الإنسانية مراعاة عظيمة، بحيث أبقى حرمة الإنسان الميت كذلك، فنهى عن كل معاملة مع الميت، يتأذى بها الإنسان في حياته، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: "كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا". ([1]).

و أمر أن يغسل الميت بغاية من الاحترام، و أن يلبس الكفن النظيف، و أن يضمخ بالطيب، و أن يصلى عليه ، و أن يدعى و يستغفر له، و أن يحمله الناس على أكتافهم إلى المقبرة، و أن يدفنه باحترام بالغ. و ينبغي احترام الميت كإنسان، سواء كان مسلما أو غير مسلم، فقد مر به – صلى الله عليه و سلم – مرة جنازة غير مسلم، فقام لها، فقالوا: إنها ليست جنازة مسلم، فقال: أَلَيْسَتْ نَفْسًا ؟، فعن عَبْد الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ:كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا: فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟". ([2]). فما أروع هذا الموقف الإنساني؟

و كان العرب يسلكون سلوكا سيئا مع أعدائهم، ويمثلون بالقتيل فيجدعون أنف الميت و يقطعون أذنه و غيرهما من الأعضاء، و يصنعون من

---

[1] - أخرجه أبوداود رقم ٣٢٠٧، و ابن ماجه رقم ١٦١٦، و أحمد رقم ٢٤٣٠٨، ٢٤٦٨٦، ٢٤٧٣٩، ٢٥٣٥٦، ٢٥٦٤٥، و هو حديث صحيح.

[2] - أخرجه البخاري رقم ١٣١٢، و مسلم رقم٩٣١، و تقدم تخريجه.

الأعضاء المقطوعة عقودا فيلبسونها، و يشربون الخمر في هام الأعداء و جماجمهم و يسقون فيها الآخرين. و قد تمت المعاملة نفسها مع عمه – صلى الله عليه و سلم – حمزة – رضي الله تعالى عنه – بمناسبة غزوة أحد، و يطلق على هذه الطريقة بالعربية " مثلة ". و قد نهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن المثلة، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةَ ". ([1]). و كانت النساء يكبرن أشعارهن بوصلها بشعر إنساني آخر - و من سوء الحظ ما زالت هذه العادة باقية في مجتمعنا - ، فنهى النبي – صلى الله عليه و سلم – عن ذلك، و جعله موجبا للعن الله تعالى، فعن عائشة - رضي الله عنها - أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: " لعن الله الواصلة والمستوصلة ". ([2]). و في هذا النهي إشارة إلى أنه لا يجوز لإنسان أن يستخدم أجزاء الجسد لإنسان آخر؛ لأنه ينافي العظمة و التكريم و الحرمة و الكرامة الإنسانية. و على أساس هذا المبدأ ذكر فقهائنا الأجلاء فروعا كثيرة في كتبهم، و مفادها أنه لا تجوز الاستفادة من أعضاء الإنسان و أجزائه بطريقة مهينة بدون ضرورة شديدة؛ لأن فيه الإساءة إلى حرمة الإنسان و كرامته.

صيانة النفس و الحياة:

إن حماية الحياة الإنسانية و سلامة النفس البشرية من الأمور التي أكد عليها النبي – صلى الله عليه و سلم – تأكيدا بالغا، فنهى القرآن الكريم بكل شدة عن قتل النفس الإنسانية بدون حق، حيث قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ). [١٧ / الإسراء: ٣٣]. و جعل قتل شخص بدون حق قتل الناس جميعا؛ لأن احترام الحياة الإنسانية إذا ذهب من

---

[1] - أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده رقم ٢٢٣٣، و هو حديث صحيح. و قد تقدم تخريجه.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٥٩٣٤، و مسلم رقم ٢١٢٣.

القلب، فلا فرق بين قتل شخص و جماعة؛ لأنه يتسوي في أعين من تعود على الظلم قتل واحد فأكثر، حيث جاء في القرآن المجيد: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا). [٥ / المائدة: ٣٢]. و بعد الكفر لم يذكر القرآن الكريم وعيدا أشد على جريمة مثلما ذكره على قتل الإنسان، حيث قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا). [٤ / النساء: ٩٣]. و لم يحم الإسلام أنفس الذين يتمتعون بزهرة الحياة الدنيوية فحسب، بل صان أنفس الذين يتربون في بطون أمهاتهم، حيث قال سبحانه: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ). [١٧ / الإسراء: ٣١]. أي: لا تتعرضوا لقتل الأولاد بسبب خشية الفقر و الإفلاس، فدخل في الأولاد من ولدوا و عاشوا في الدنيا، و من هم في غشاء رحم الأم. و لذا اتفق الفقهاء على حرمة الإجهاض بعد نفخ الروح أي بعد مرور مائة و عشرين يوما بعد استقرار النطفة، و لا يجوز قبل ذلك أيضا بدون عذر شديد. و لقد صعدت حركة تنظيم الأسرة الميل إلى الإجهاض إلى حد خطير، يعتبر أمرا مخزيا من الناحية الخلقية، و طريقة مخترعة حديثة لقتل الأولاد.

و لم يسمح الإسلام كذلك بالانتحار و حرمه، حيث قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ). [٤ / النساء: ٢٩]. و لا فرق بين المسلم و غير المسلم بشأن احترام الحياة الإنسانية. و يحرم قتل كل شخص، و قد نهى القرآن الكريم عن قتل النفس الإنسانية مطلقا بدون قيد مسلم أو كافر، و جعل النبي – صلى الله عليه و سلم – قتل كافر عاقد مع المسلمين للتعايش موجبا للحرمان من رائحة الجنة، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا ". ([١]).

---

[١] - أخرجه البخاري رقم ٣١٦٦، ٦٩١٤.

حفظ العرض و الكرامة و الحرمة الإنسانية:

تعتبر قضية عرض الإنسان و كرامته و شرفه أهم قضية بالنسبة له، و من هنا كان النبي – صلى الله عليه و سلم – يعني بها عناية شديدة، فكان يراعي كرامة الإنسان و مكانته مراعاة بالغة، فكتب – صلى الله عليه و سلم – رسالة إِلَى هِرَقْلَ ملك الروم، فخاطبه بـ " عَظِيمِ الرُّومِ". ([1]). مع أن بعض الصحابة كانوا مترددين بشأن هذا التكريم، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – قال: لا حرج في ذلك؛ لأن أتباعهم يذكرونه كذلك. ثم فكر – أيها القارئ - أن النبي – صلى الله عليه و سلم – استعمل في هذه الرسالة المباركة المرسلة إلى هرقل: " فَإِنْ تَوَلَّيْتَ" بدلا من " إن كفرت "، أي: إن أعرضت عن دعوة الإسلام فإن عليك إثم إعراض أتباعك و رعاياك كذلك عن الإيمان، ففيه مواساة هرقل و السلوك الجميل معه؛ لأن كلمة الكفر قد تشق عليه. و أمر النبي – صلى الله عليه و سلم – الذاهب إلى بيت أحد أن يرغب إلى صاحبه أن يؤم هو، مراعيا للكرامة الإنسانية، و أن يجتنب من الجلوس في الموضع الخاص لجلوسه من فراش أو سرير مما يعد لإكرامه، فعن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يُؤمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في سُلطانِهِ، ولا يقعدْ في بيته على تَكْرِمَتِهِ إلا بِإِذنه ". ([2]). و نهى عن المعاملة المليئة بالسخرية مع أحد، حيث ورد في القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). [٤٩ / الحجرات: ١١]. و العقوبة الشديدة التي وضعت في الشريعة الإسلامية التي جاء بها – صلى الله عليه و سلم – بشأن

---

[1] - راجع: صحيح البخاري رقم ٧.

[2] - أخرجه مسلم رقم ٦٧٣.

اقتراف جريمة الزنى تؤكد لنا أن العرض و الكرامة الإنسانية كم تحتل من الأهمية الكبيرة في الإسلام ؟و حدد القرآن الكريم ثمانين جلدة على قذف شخص و وصم سيرته بطريقة خاطئة، حتى يصعب بهت أحد وقذفه بالباطل . و بما أن شارب الخمر لا يراعي حرمة الناس و كرامتهم، و لا يقدر على ضبط لسانه من الاتهام و البهتان، و لذا لم يذم النبي – صلى الله عليه و سلم – الخمر، و لم يلعن شاربها و ساقيها و مشتريها و بائعها و حاملها فحسب، بل حدد له عقوبة شديدة كذلك، فقد جاء ذكر أربعين جلدة في بعض الروايات، و ثمانين جلدة في الروايات الأخرى، فعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال في حد شرب الخمر: " جلد النبي – صلى الله عليه و سلم – أربعين، و أبو بكر أربعين، و جلد عمر ثمانين، و كل سنة، و هذا – أي الجلد بأربعين جلدة – أحب إلي ". ([1])، فأخذ بعض الفقهاء رواية أربعين، و بعضهم رواية ثمانين.

و كان من آثار تعاليمه – صلى الله عليه و سلم – أن التزم صحابته الخريجون على يديه و بخاصة الخلفاء الراشدون بشدة بأن لا يجد فرصة التلاعب صاحب منصب - و لو كان كبيرا – بعرض أحد و كرامته و إن كان عاميا، فقد لطم محمد ابن حاكم مصر عمرو بن العاص مصريا خلال مسابقة الخيل، و رفع الأمر إلى سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه -، فأمر المصري الذي كان غير معروف بضرب ابن الحاكم على مرأى و مسمع من الناس، بل قال له: أن يضرب عمرو بن العاص أيضا؛ لأنه بسببه تجاسر ابنه على ذلك، و لكن امتنع المصري عن ذلك؛ لأن عمرو بن العاص كان بريئا. و بهذه المناسبة قال سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه – مقولته التاريخية: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ". ([2]).

[1] - أخرجه مسلم رقم ١٧٠٧، و أبوداود رقم ٤٤٨٠.

[2] - ابن أعثم الكوفي: الفتوح ٢: ٨٢، وابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب ص ٩٩.

و كان أبو موسى الأشعري – رضي الله تعالى عنه – واليا على الكوفة في عهد عمر الفاروق – رضي الله تعالى عنه -، و طلب شخص مال الغنيمة أكثر من نصيبه، فغضب، و أمر بضربه عشرين جلدة، و رفعت القضية إلى عمر – رضي الله عنه -، فأمر بجلده دون مراعاة لمنصبه. و مثل هذه الحوادث كما تدل على العدل الفاروقي، فكذلك تدل على أن حماية كرامة أدنى مسلم و إنسان كم تحتل من الأهمية و المراعاة في نظر رسول الإسلام و أتباعه – صلى الله عليه و سلم -؟

البراءة من عمل الآخرين:

تعتبر عقيدة الكفارة من العقائد الأساسية لدى الإخوة النصارى، و هي تتمحور على أن ما صدر من خطأ من آدم و حواء، يسري في البشرية جيلا بعد جيل، و قد أدى المسيح – عليه السلام – كفارة هذه الذنوب المتوارثة بالتضحية بنفسه، فكأن مسؤولية خطأ الوالدين ألقيت على الأولاد، و بالعكس من ذلك قدم النبي – صلى الله عليه و سلم – فكرة رائعة و هي أن كل شخص مسؤول عن عمله فحسب، و بريء من عمل الآخرين، و لا يحمل شخص مسؤولية عمل الآخر مهما كان قريبا منه، حيث ورد في القرآن الكريم: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى). [٦ / الأنعام: ١٦٤]. و قد كان أبوجهل و أبولهب من ألد أعداء الإسلام، و لم يدخرا وسعا في إلحاقه – صلى الله عليه و سلم – بكل نوع من أنواع الأذى، و مع ذلك لما آمن عكرمة بن أبي جهل و درة بنت أبي لهب، لما يؤاخذهما شيئا، و لم يتكدر صفاء خاطره أدنى تكدر، بل رحب باعتناقهما الإسلام بحرارة و حماس. بل لم يقلل في حبه و تكريمه للذين اقترفوا الجريمة بعد ما ندموا و تابوا، فقد كان وحشي بن حرب الحبشي قاتلا لعمه حمزة، و من الأمر الطبيعي أن يحزن – صلى الله عليه و سلم – على استشهاده الذي تم بطريقة غريبة، و على المعاملة الوحشية التي

اتخذت معه، و لكن لم يجعله يشعر به شيئا بعد اعتناق الإسلام، حتى لم ير من المناسب أن يلقي نظرة غضب على هند بنت عتبة بن ربيعة التي أمرت بالمثلة بحمزة – رضي الله عنه -، بل أعلن بمناسبة فتح مكة أن من دخل دار هند زوجة أبي سفيان فهو آمن ([1]).

صيانة الحياة الشخصية:

إن صيانة الحياة الشخصية من أهم حاجات الإنسان، فكل شخص يريد أن لا يتدخل أحد في الشؤون الشخصية لحياته، و أن تبقى الأمور التي لا يريد إفشاءها سرا، و قد كان النبي – صلى الله عليه و سلم – يراعي ذلك مراعاة بالغة، و من هنا نهى عن التجسس، و من الاطلاع على بيت أحد و استراق النظر إليه، حيث قال: الإشراف على بيت أحد كالدخول فيه، و أباح خذف شخص بالحصاة يسترق النظر إلى بيت أحد، لكي يصون المرء أحواله الشخصية، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِحصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ ". ([2]). و نهى القرآن الكريم عن الدخول في بيت أحد بدون الاستئذان، حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). [٢٤ / النور: ٢٧]. و تذكرت بذكر هذه الآية قصة عمر – رضي الله عنه- أنه كان يجول في عهد خلافته في المدينة، ليتعرف على حاجات رعاياه و مشاكلها، و سمع صوتا من بيت و هو يمشي، فاطلع من جدار، فرأى أن شخصا من بني أمية يشرب الخمر، و تغني جاريته، و لم يستطع عمر – رضي الله تعالى عنه – أن يحتمله، فوثب من الحائط و وصل إليه، و قال له: تسمع الأغاني، و تشرب الخمر كذلك، و كان الرجل يعرف طبيعة عمر – رضي الله تعالى عنه -، فقال:

---

[1] - أخرجه مسلم رقم ١٧٨٠.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٦٩٠٢، و مسلم رقم ٢١٥٨.

لتسمح لي بأن أقول شيئا، ثم قال: أنا اقترفت ذنبين: ١ – شربت الخمر. ٢ – سمعت الأغاني. و لكنك خالفت ثلاثة أوامر لله تعالى: أحدها: أنك دخلت في بيتي بدون إذن مني، مع أن الله تعالى نهى عن الدخول في بيت أحد بدون الاستئذان، و الثاني أن الله تعالى أمر بالتسليم قبل الدخول في البيت، و أنت ما قمت بالتسليم. و الثالث أنه سبحانه نهى عن التجسس، و أنت قمت بالتجسس. فعفا عنه عمر – رضي الله تعالى عنه -، و أثر ذلك فيه بحيث تاب من جميع المعاصي بصورة دائمة ([1]). و لا شك أن عمر – رضي الله تعالى عنه – كان أمير المؤمنين، و للأمير أن يعفو، إذا لم يرفع إليه الأمر بالبينة، و لم يكن يتعلق بحقوق الناس. و يمكن لنا أن نقدر في ضوء هذه الواقعة أن الحياة الشخصية للإنسان كم تحتل من أهمية في الإسلام ؟حتى يمكن محاسبة أمير المؤمنين إذا خالفها بدون مصلحة كبيرة.

حرية التعبير عن الرأي:

إن الميزة الحقيقية للإنسان أنه يتمتع بأهلية التفكير واتخاذ الرأي و التعبير عنه، فمن الفطرة الإنسانية أنه يؤد التعبير عن رأيه، و قد راعى النبي – صلى الله عليه و سلم – هذا الحق مراعاة تامة، و احترم هذا الدافع النفسي؛ بل أوجب التعبير عن الرأي و الفكر في بعض المناسبات و المواضع، و من تأثير طبيعته – صلى الله عليه و سلم– و مذاقه في الصحابة أنهم ما كانوا يعبرون عن آرائهم و أفكارهم فحسب؛ بل كانوا يختلفون معه – صلى الله عليه و سلم – مع رعاية مكانته و مرتبته كذلك، في الأمور التي لم تكن من الوحي. فشاور – صلى الله عليه و سلم – بمناسبة غزوة أحد بشأن ميدان المقاومة مع الأعداء، فكان – صلى الله عليه و سلم – يرى أن الأفضل أن تتم مقاومة الأعداء بالبقاء في المدينة، و كان يرى الصحابة الشباب و

---

[1] - راجع: المتقي، كنز العمال رقم ٨٤٨٥، بالعزو إلى أبي الشيخ في كتاب القطع والسرقة.

المتحمسون أن المقاومة في خارج المدينة أفضل، و لم يكره – صلى الله عليه و سلم – آرائهم فحسب، بل فضلها و اختارها. ([1]).

و كانت بريرة – رضي الله عنها – جارية للسيدة عائشة – رضي الله عنها – التي أعتقتها بعد شرائها، و كانت زوجت في زمن الرق مع مغيث – رضي الله عنه -، و الأمة و العبد لهما الخيار بعد العتق أن يردا النكاح الذي تم حال الرق حسب القانون الإسلامي، فاستخدمت بريرة حقها هذا، و كان مغيث يحب بريرة حبا جما، و أراد إبقاء هذا النكاح، و ود النبي – صلى الله عليه و سلم – أن تقر بريرة – رضي الله عنها– هذا النكاح و تديمه نظرا لقلق مغيث – رضي الله عنه، و أظهر – صلى الله عليه و سلم – رغبته هذه أمامها، فسألت: هل هذا أمر أم شفاعة؟ فأجاب – صلى الله عليه و سلم -: بأنه شفاعة، فرفضتها، و لم يكره – صلى الله عليه و سلم – ذلك، فعن عبد اللَّه بن عباس - رضي الله عنهما - قال: " إنَّ زوج بريرة كان عبدا يقال له: مُغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفَها ودُمُوعُه تَسِيلُ على لحيته، فقال النبيُّ - صلى الله عليه وسلم- للعباس: يا عبَّاسُ، ألا تعجَب من حُبِّ مُغيث بريرةَ، ومن بُغْضِ بريرةَ مغيثا؟ ! فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: لو راجعتيه ؟قالت: يا رسول الله، تأْمُرني؟ قال: إنما أشْفَع. قالت: فلا حَاجَةَ لي فيه:". ([2]).

و لم يفتح باب الرأي في الأمور الإدارية فحسب، بل أذن النبي – صلى الله عليه و سلم – بالاجتهاد في الأحكام الشرعية كذلك، و قال: في الاجتهاد أجر، و إن أخطأ صاحبه، فعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم-: " إذا حكم الحَاكِمُ فاجتهدَ

---

[1] - راجع: ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٨ – ١٠، بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٥٢٨٣، و النسائي رقم ٥٤١٧، و أبوداود رقم ٢٢٣١، و ابن ماجه رقم ٢٠٧٥، و الدارمي رقم ٢٢٩٢، وابن حبان رقم ٤٢٧٣.

فأصابَ، فلهُ أجران، وإذا حَكَمَ فاجتهد فأخطأ، فله أَجر ". ([1]). و لعل إليه إشارة في رواية ضعيفة: " اختلاف أمتي رحمة ". ([2]). و يجربه أهل العلم عمليا أن اختلاف الفقهاء و أهل العلم يساعد في بعض الأوقات في حل مشاكل الأمة و عويصاتها.

و لقد أنشأت الطبيعة التي كونها – صلى الله عليه و سلم – بشأن حرية التعبير عن الرأى، في الصحابة السماحة و سعة الصدر و احترام أفكار الآخرين و آرائهم، فكان أبوذر الغفاري يرى أنه لا يجوز ادخار مال لأكثر من قوت يوم، و هو داخل في الكنز الذي نهى عنه القرآن الكريم، و كان جمهور الصحابة لا يتفقون مع رأيه، حتى عثمان بن عفان الذي كان خليفة في ذلك الوقت لم يكن متفقا معه، و مع ذلك لم يمنع أباذر – رضي الله عنه- أحد عن فتواه.

و جرت عدة حروب بين علي – رضي الله تعالى عنه – و بين الخوارج، و كانوا يكفرون الصحابة، و مع ذلك كان سيدنا علي – رضي الله تعالى عنه – يحتاط في تكفيرهم، و كان يقول: نتبع سياسة الإغماض عنهم ما لم يتعرضوا للحرب معنا ([3]). و رغب هارون الرشيد إلى الإمام مالك في أن يعلق الموطأ على غلاف الكعبة، و يجبر الناس على العمل بما فيه، و لكن لم يحب الإمام مالك هذا الإجبار، و وجهه إلى أن يترك باب اختلاف الرأي مفتوحا. فقد روى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - أنه قال: " شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل، فإن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٧٣٥٢، و مسلم رقم ١٧١٦.

[2] - ذكره نصر المقدسي في الحجة والبيهقي في الرسالة الأشعرية بغير سند، وأورده الحليمي والقاضي حسين وإمام الحرمين وغيرهم، ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا.

[3] التمهيد لابن عبد البر ٣٣٥/٢٣

مصيب، فقال: وفقك الله تعالى يا أبا عبد الله ". ([1]).

وروى ابن سعد في الطبقات عن مالك قال: " لَمّا حَجّ المنصورُ قال لي: عزَمْتُ على أن آمُرَ بكتُبِكَ هذه التي وضعتَها يَعْنِي الْمُوَطَّأَ فتُنسَخَ، ثم أبعثَ إلى كل مصرٍ من أمصار المُسلِمِينَ منها نُسخة، وآمرَهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويلُ، وسمعوا أحاديثَ، ورَوَوا رواياتٍ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ودانُوا به، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ". ([2]).

حق الانتقاد و الاحتجاج:

يتصل حق النقد و الاحتجاج بقضية حرية التعبير عن الرأي، ولم يسمح – صلى الله عليه و سلم – بالنقد البناء البريء فحسب، بل شجع عليه كذلك، فجعل – صلى الله عليه و سلم – أفضل درجة للجهاد قول الحق عند السلطان الجائر الظالم، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إنَّ من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سُلطان جائر ". ([3]). و في رواية: " أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ". ([4]). و تم التعبير عن النقد البناء البريء في القرآن و الحديث بـ " النهي عن المنكر"، و جعل من واجبات المسلم، و قال – صلى الله عليه و سلم – مرة: عليكم نصر أخيك، و إن كان ظالما أو مظلوما، فاستغربه الصحابة و قالوا: إنك وجهتنا دائما لنصر المظلوم، فكيف ننصر الظالم ؟فقال – صلى الله عليه و سلم -: منع الظالم من الظلم هي نصرته،

---

[1] - أبو نعيم الأصبهاني (ت: ٤٣٠ هـ)، حلية الأولياء ٦ / ٣٣٢، ط: ٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

[2] - ابن سعد، الطبقات الكبرى ٩ / ٤٤١، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨ م، تحقيق: إحسان عباس.

[3] - أخرجه أبوداود رقم ٤٣٤٤، و الترمذي رقم ٢١٧٤، و ابن ماجه رقم ٤٠١١، و القضاعي في "مسند الشهاب" رقم ١١٤١، و هو حديث حسن.

[4] - أخرجها أبوداود رقم ٤٣٤٤.

فعن أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ ". ([1]). فهذا يدل على أنه – صلى الله عليه و سلم – كون طبيعة الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – بحيث ما كانوا يترددون في مراجعته – صلى الله عليه و سلم – إن صعب عليهم شيء. و مرة قال – صلى الله عليه و سلم -: كل من يتعرض للحساب لحقه العذاب، فقالت السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها -: إن القرآن تحدث عن الحساب اليسير، فالذي يعطى كتابه بيمينه فإنه يحاسب حسابا يسيرا، و هذا يدل على أنه يتم اليسر مع الحساب، فوضح – صلى الله عليه و سلم – أنه العرض، و لكن من نوقش في الحساب لا ينجو من المؤاخذة الإلهية، فعن عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ ". ([2]). و هناك مراجعات أخرى تمت من قبل المخلصين له – صلى الله عليه و سلم -، فأجاب عنها وعالجها وحلها بدقة.

و قد يشتد صاحب الحق في المطالبة به، فلم يأمر – صلى الله عليه و سلم – بتحمله فحسب، بل استخدم الحلم كذلك في مثل هذه المواضع، فكان ليهودي دين عليه، فطالب و اشتد في المطالبة، و كان الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – معه – صلى الله عليه و سلم – فساءهم ذلك، فقال – صلى الله عليه و سلم – لا ينبغي أن يغضب على ذلك؛ فإن لصاحب الحق مقالا، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

[1] - أخرجه البخاري رقم ٢٤٤٤، و الترمذي رقم ٢٢٥٥، و أحمد رقم ١٣٠٧٩.
[2] - أخرجه البخاري رقم ١٠٣، ٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧، و مسلم رقم ٢٨٧٦.

وَسَلَّمَ - يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، ثُمَّ قَالَ: أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ فَقَالَ: أَعْطُوهُ؛ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً ". ([1]). و لعل – صلى الله عليه و سلم – كان يصف الصفوف بمناسبة غزوة بدر، فتخدش سواد بن غزية تخدشا يسيرا، فطالب بالقصاص، فعرض عليه نفسه، فقال سواد: كان بطني مكشوفا، فكشف – صلى الله عليه و سلم – بطنه، فتقدم سواد، و قبل بشفة الحب و العقيدة بطنه، و قال: هذا هو قصاصي، فعن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح (سهم) يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل (متقدم) من الصف.فطعن في بطنه بالقدح وقال: " استو يا سواد ".فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى، فكشف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن بطنه فقال: استقد.قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد ؟قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك. فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم – بخير". ([2]).

فربى النبي – صلى الله عليه و سلم – الصحابة بهذا الأسلوب، فنشأت فيهم نفسية احتمال النقد البريء، و جراءة الجهر بكلمة الحق أمام الحكام الطغاة الجبابرة. و كانت خولة صحابية، و لقيت بعمر – رضي الله عنه – في الطريق، فنصحته بكلمات شديدة، حتى غرق أصحابه الذين كانوا معه في التعجب، و منعوها من هذا الأسلوب و اللهجة، فزجرهم عمر – رضي الله تعالى عنه – بنفسه، و استمع إلى نصيحتها برحابة صدر و طلاقة وجه.

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٢٣٠٦، ٢٣٩٠، ٢٤٠١، ٢٦٠٦، ٢٦٠٩، و مسلم رقم ١٦٠١.

[2] - راجع: ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٧٤، ابن كثير، السيرة النبوية ٢ / ٤١٠، بيروت، دار المعرفة.

([1]). و كان مرة عمر – رضي الله تعالى عنه- يخطب، فنهض شخص و قال: لا نسمع كلامك حتى تبين لنا أن كل شخص وجد رداء، فمن أين لك رداءان على جسدك ؟فأشار إلى ابنه عبد الله بأنه يجيب، فقال عبد الله: واحد من نصيبي أعطيته. فقال الرجل: الآن استمر في خطبتك. يكتب ابن القيم – رحمه الله تعالى -: " خطب عمر بن الخطاب يوما وعليه ثوبان: فقال: أيها الناس ألا تسمعون ؟فقال سلمان: لا نسمع، فقال عمر: ولم يا أبا عبد الله؛ قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا، وعليك ثوبان. فقال: لا تعجل، يا عبد الله، يا عبد الله، فلم يجبه أحد. فقال: يا عبد الله بن عمر، فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك ؟قال: نعم: اللهم نعم، فقال سلمان: أما الآن فقل نسمع ". ([2]).

فهل يوجد في الدنيا في الوقت الحاضر نظير لهذا العدل، و التحمل، و الحياة الصافية النزيهة ؟

حرية العقيدة و اعتناق الدين:

يتصل بحرية الرأي و الضمير قضية " الحرية الدينية "، و أعلن القرآن الكريم بكل صراحة و وضوح أنه لا مجال للإكراه بشأن الدين، فإنه أمر القلب و الضمير، حيث قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). [٢ / البقرة: ٢٥٦]. و خاطبه – صلى الله عليه وسلم – القرآن قائلا: إن وظيفتك مجرد الدعوة و التذكير، و لست بمسيطر على الناس، حيث قال سبحانه: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ). [٨٨ / الغاشية: ٢١ – ٢٢]. و لما قدم – صلى الله عليه و سلم – إلى المدينة، كان يسكنها ثلاثة أقوام: المسلمون، و اليهود، و بعض المشركين، و قام – صلى الله عليه و سلم – بعقد الاتفاقية بينهم على أساس التعايش السلمي للأمن و السلام، و الدفاع المشترك، و قام بأخذ

---

[1] - راجع: بسام محمد حمامي، نساء حول الرسول – صلى الله عليه و سلم - ص ٤٨.

[2] - ابن القيم، إعلام الموقعين ٢ / ١٨٠، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

التوقيعات على مستندها من كل ممثل لطرفه، و حسب هذه الاتفاقية كان لكل فئة حق اتباع دينها. ([1]).

و التسامح الذي سلكه – صلى الله عليه و سلم – في الشؤون الدينية، ظهر تأثيره في التاريخ الإسلامي كله، فكان لعمر – رضي الله تعالى عنه – عبد اسمه " الوسق" وكان غير مسلم، و رغب عمر – رضي الله عنه – إليه مرارا في أن يؤمن حتى يحله في منصب إداري هام، و لكنه رفض، فامتنع عمر – رضي الله عنه – من الإصرار عليه ([2]). وكان من عادته – صلى الله عليه و سلم – أن ينصح قائد الجيش إذا بعثه لمهمة، فكان يوجهه إلى الاجتناب من الاعتداء على الشخصيات و المعابد الدينية. و لما فتح بيت المقدس في عهد عمر – رضي الله تعالى عنه -، صلى عمر – رضي الله عنه – في كنيسة (Church) برغبة الأساقفة، ثم رأى أنه من الممكن أن يحاول المسلمون تحويلها إلى المسجد جبرا و قهرا، فسلم القائمين عليها ميثاقا رسميا للحفاظ عليها، و امتنع من الصلاة في الكنائس الأخرى رغم رغبة القائمين عليها. كتب ابن خلدون – رحمه الله -: " ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وجاء كنيسة القمامة، فجلس في صحنها، وحان وقت الصلاة فقال للبترك: أريد الصلاة، فقال له: صلِّ موضعك، فامتنع وصلَّى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبترك: لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي، وقالوا: هنا صلَّى عمر، وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ". ([3]) .

و لم يحاول المسلمون في حين من الأحيان أن يفرضوا القانون الإسلامي على غير المسلمين بشأن الحلال و الحرام كذلك، فقد تبنى الفقهاء في ضوء الأحاديث النبوية الرأي الشهير، و هو: أنه يباح لغير

---

[1] - راجع: ابن هشام، سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٦ – ١٠٨.

[2] الدرر المنثور للسيوطي ٢٢/٢

[3] - " تاريخ ابن خلدون " (٢ / ٢٢٥.

المسلمين استخدام الخمر و الخنزير و تبايعهما، و إن كانا محرمين على المسلمين. و إن أتلف مسلم خمر مسلم؛ فإنه لا يضمن، و إذا أتلف خمر غير المسلم فإنه ضامن. و جاء في " الهداية " الكتاب الشهير في فروع الحنفية أن قوما إذا كانوا يستحلون الزواج بالمحارم كالأم و الأخت حسب عقيدتهم و دينهم، و عملوا بطريقتهم في الدولة الإسلامية، فليس لنا حق التدخل في هذا الأمر، غير أن الطرفين إذا ترافعا إلينا، فنحكم حسب الشريعة الإسلامية. يكتب المرغيناني – رحمه الله تعالى -: " ولو ترافعا يفرق بالإجماع؛ لأن مرافعتهما كتحكيمهما ". ([1]).

و ما هذا التسامح و الاستغناء و التحمل إلا أثرا من آثار التعاليم التي منحها – صلى الله عليه و سلم – الأمة الإسلامية.

احترام الزعماء الدينيين:

يعتبر رعاية عواطف و مشاعر أتباع الزعماء الروحيين بشأنهم قضية هامة متعلقة بالحرية الدينية، و لقد وضع القرآن الكريم المبدأ بهذا الصدد، و هو أنه لا يجوز سب زعماء الديانات الذين يعبدهم الأمم الأخرى، و إن كانت عقائدهم باطلة. حيث قال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ). [٦ / الأنعام: ١٠٨]. و بالإضافة إلى ذلك، فقد قدم القرآن الكريم و رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – إلى الأمة الإسلامية فكرة رائعة، و هي أن الله تعالى بعث رسلا و أنبياء في كل أمة و لغة، و ما ذكر القرآن إلا أسماء بعضهم. و هذه العقيدة تجعل المسلمين يحتاطون دائما بشأن الزعماء الروحيين الآخرين؛ لأنهم يرون أنه من الممكن أن يبعثوا رسلا في عصورهم، و لكن الناس حرفوا تعاليمهم و توجيهاتهم الحقيقية.

فقد ذهب كثير من العلماء المسلمين إلى أن " بوذا "، و " كرشنا "، و "

[1] - المرغيناني، الهداية ١ / ٢١٩.

راما " و الزعماء الروحيين الآخرين من الهند، لعلهم كانوا مكرمين بالنبوة في عهدهم. و يبدو هذا الرأي وجيها بالنظر إلى فكرة التوحيد و الآخرة الصريحة التي نجدها في المواد التي نسبت إليهم، و بالنظر إلى التوجيه إلى الأعمال الصالحة في صحفهم. و لنتدبر أن عهد المسيح – عليه السلام – الذي دعا إلى الله و توحيده، كان قبل ستة قرون من بعثته – صلى الله عليه و سلم -، و لكن الناس في هذه المدة أخرجوه من العبودية و أجلسوه على عرش الألوهية، و جعلوه ابنا لله تعالى، و لم ترض دنيا النصرانية بأقل من ذلك، فالشخصيات المختارة التي كانت قبل آلاف من السنين، كم يتسرب إلى تعاليمها من التخليط و التلبيس و التحريف ؟

و بين الله تعالى عظمة القرآن الكريم، و بواسطته عظمة رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم -، و هي: أنه مصدق للرسل و الأنبياء السابقين، حيث قال تعالى: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ). [٥ / المائدة: ٤٨]. فصدق – صلى الله عليه و سلم – الأنبياء السابقين، و بخاصة أزال الغبار عن حياة الأنبياء الذين شوهت حياتهم النزيهة و أسيء بها الظن. فقد أساءت الأناجيل إلى الأنبياء – عليهم السلام – الذين هم أزكى جماعة في البشرية إساءات يصعب على اللسان النطق بها، و على اليد كتابتها، و على المؤمن حتى تصورها. فوجهت التهم إلى نوح – عليه السلام – بأنه زنى ببناته، و التهم نفسها وجهت إلى لوط – عليه السلام -، و جعل سليمان – عليه السلام – مشركا، و أطلق على هارون – عليه السلام – بأنه كان عابدا للبقرة، و حتى لم يقصر اليهود في إيذاء نبيه موسى – عليه السلام -، بل نسبوا إلى الشخصية الصالحة التي ينتمون إليها و هي شخصية " يهوذ بن يعقوب " بأنه زنى بـ " تمر " زوجة ابنه – و العياذ بالله تعالى -.

فهيأ الله تعالى أسباب التصديق للأنبياء السابقين عن طريق القرآن و حامله، و بخاصة مدح – صلى الله عليه و سلم – بكثرة، الأنبياء الذين كان

يتهمهم اليهود، فقال عن موسى – عليه و على نبينا السلام –: حين يصحو الناس يوم القيامة، يظهر موسى بأنه متمسك بعمود العرش الإلهي، فعن أَبِي سَعِيدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ ؟". ([1]). و نهى عن تفضيله على يونس بن متى، فعن ابْن عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: " لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ". ([2]). و قال عن يوسف: إنه صبر صبرا لعلي ما كنت أستطيعه. و قد اخترع اليهود قصصا متنوعة حول داود و سليمان – عليهما السلام -، فجلى القرآن شخصيتهما، و كان اليهود يطلقون على المسيح – عليه السلام – أنه ولد الزنا، فرد عليه – صلى الله عليه و سلم – أشد رد و رفضه رفضا باتا.

و خلاصة القول أن المحاولات المشؤمة التي قام بها اليهود لتشويه سمعة الأنبياء السابقين و وصم حياتهم النقية و ما أرخوا من ستار صفيق من سوء الفهم و الظن على شخصياتهم، لم تنجح بفضل الجهود المكثفة التي بذلها – صلى الله عليه و سلم – لتنقية حياتهم من شبهاتهم و إزالة الغبار عن سيرتهم، بل أعاد – صلى الله عليه و سلم – التكريم و الاحترام و التوقير إلى تلك الشخصيات. و لذا لا يمكن أن يتصور بشأن المسلمين أنهم يسيئون إلى الشخصيات الدينية الأخرى للهندوس، كما لا يمكن أنهم يعتبرون التفوه بالكلمات البذيئة بشأنهم أمرا صحيحا.

المساواة:

تعتبر " المساواة " بصفة إنسانية حقا هاما من بين الحقوق الإنسانية الرئيسية. و الواقع أنه لا يوجد نظير في ديانات العالم للمساواة التي قدمها

---

[1] - أخرجه البخاري رقم ٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٢٧، و مسلم رقم ٢٣٧٤.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٣٣٩٥، ٣٤١٣،٤٦٣٠، ٧٥٣٩، و مسلم رقم ٢٣٧٧.

الإسلام إلى البشرية على المستوى الاجتماعي و السياسي و الديني، و للقضاء الذي قام به على فكرة الفوارق الطبقية و نظام الطبقات و توزيع البشر إلى خانات. و ما زال الغرب و الشرق مأخوذين بذلك الفكر الرجعي القديم رغم الزيادة في القيم الديمقراطية و اعتبار العنصرية جريمة على المستوى العالمي. و قد يقول بعض الناس: إن المسلمين اليوم واقعون كذلك في الطبقية، و لكن يوجد فرق أساسي بين المسلمين و الأمم الأخرى، و هو أن الطبقية قضية عقدية لدى إخوتنا الهندوس، و ثابتة بكل وضوح و صفاء في المصادر الموثوق بها في الديانة الهندوسية، و يحتل الفرق بين الإسرائيليين و غيرهم لدى الذين يؤمنون بالإنجيل (Bible) رتبة الفكرة الدينية كذلك. و الحرب التي تدور بين البيض و السود في الدول الغربية، لعل من دوافعها أيضا أن السود لا يعتبرون من الجيل الإسرائيلي. و لكن الإسلام يرفض بتاتا الطبقية و الفوارق العنصرية من وجهة النظر الاعتقادية و الدينية، فإن نشأت في المسلمين في منطقة ما مثل هذه العقلية المريضة، فهي ناتجة عن المعاشرة مع الأمم الأخرى، و مفسدة اجتماعية، و يسهل نسبيا إزالة المفاسد الاجتماعية و إصلاح العيوب العرفية، و لكن ليس من الميسور إزالة الفساد الفكري و الاعتقادي.

و قد قضت الرسالة النبوية – على صاحبها ألف ألف تسليم – المشتملة على المساواة و الأخوة الإنسانية على جميع الفوارق، حتى كان مسلم عادي لا يكترث بخليفة الوقت بشأن الجهر بالحق، و كان لا يشق على الخليفة شيئا أن يصطف مع رعاياه. ففي عهد عمر الفاروق – رضي الله عنه – كان زيد بن ثابتٍ قاضيا، و رفعت القضية ضد أمير المؤمنين، و حضر عمر – رضي الله عنه – كمنكر و مدعى عليه في مجلس قضائه، فقام زيد على سبيل الاحترام، و لكن ماراقه هذا الموقف، و قال: يا زيد، هذا أول ظلم منك، و دارت القضية، و طلب من المدعي إقامة البينة، و لكن لم يستطع أن

يقدمها، و إن لم يستطع المدعي تقديم البينة، فعلى المدعى عليه اليمين حسب الأصول العامة للشريعة الإسلامية، فبهذا الاعتبار كان ينبغي لزيد أن يطلب من عمر – رضي الله تعالى عنه – اليمين، و لكنه رغب إلى المدعي في أن يبرئ أمير المؤمنين من اليمين، فلم يعجبه، و قال: هذا ظلم ثان منك. ([1]).

و أسلم في عهد خلافة عمر – رضي الله تعالى عنه – رئيس غساني، و قدم المدينة، و كان اسمه " جبلة بن الأيهم "، و هو و إن كان اعتنق الإسلام و لكنه لم يعرف لحد الآن الطبيعة الإسلامية و المذاق الديني، فقد وقعت رجل أعرابي على لباسه الفاخر الزاهي و داسته، و هو يطوف يوما بالبيت الحرام، فشق ذلك على طبيعته الحساسة و لم يستطع أن يحتمله، فصفعه، و رفع الأمر إلى الخليفة، فقال عمر – رضي الله تعالى عنه -: إما أن ترضيه و إما أن يضربك كما ضربته، فلم ترض به طبيعته الجاهلية، وطلب منه فرصة إلى الغد، وفر هاربا خلال مدة الإمهال، و ارتد و لحق بهرقل في القسطنطينية. و لكن لم يحزن عمر – رضي الله تعالى عنه – بفقد ملك غسان، بل شكر الله تعالى على توفيقه للاستقامة و الصمود على الحق. ([2]).

و كم يردد الناس اليوم الكلام عن العدل و المساواة، و كم تكثر الخطب على القيم الديموقراطية، و لكن هل مقياس العدل موحد للحكومة و الرعية و العامة و أصحاب السلطة في العصر الحاضر؟ و هل يسلك مع الجميع سلوكا قضائيا موحدا؟ ومن العسير أن نجد جوابه في صورة " نعم " في موضع ما. و لا شك أن بلادنا الهند يطلق عليها أنها أكبر دولة ديموقراطية (Democratic country) في العالم، و هي تستحق هذا اللقب بجدارة، و لكن هل تطبق طريقة موحدة للعدل و الإنصاف مع عامة المواطنين و الحكام في البلاد؟ كلا، و لكن القانون الذي منحنا –

---

[1] - راجع: البيهقي، السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ١٠ / ١٣٦، رقم ٢٠٢٥٠.

[2] - راجع: الرازي، مفاتيح الغيب ١٢ / ١٨، بيروت، العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

صلى الله عليه و سلم -، و اتبعه صفوة أصحابه، و قاموا بالتطبيق و الممارسات الفعلية حتى أصبحوا أسوة و نموذجا فعليا للأمة الإسلامية و البشرية، لا يفرق بين المالك والمملوك و بين العبد و السيد، فقد قام سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه – بزجر عديد من ولاته على رؤوس الأشهاد، و أدار القضية في محكمة مكشوفة ضد واليه المغيرة بن شعبة في أمر مهم. ([1]).

حق الحصول على العدل و الإنصاف:

منح النبي – صلى الله عليه و سلم – الجميع حق الحصول على العدل و الإنصاف بطريقة موحدة، فلم تكن ترفع إليه – صلى الله عليه و سلم – قضايا المسلمين فحسب، بل كانت ترفع إليه دعاوى اليهود، و قضايا المسلمين و اليهود كذلك، و كان كل متظلم يستفيد من مجلس قضائه – صلى الله عليه و سلم -، و لقد بين القرآن الكريم بهذا الشأن أمرا أساسيا، و عالج الميل الفطري الذي قد يدفع الإنسان إلى التفريق بين الأصدقاء و الأعداء و الأقرباء و الأباعد، حيث قال تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى). [٥ / المائدة: ٨]. أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على ترك العدل فيهم؛ بل استعملوا العدل في معاملتكم مع كل أحد، صديقا كان أو عدوا.

و لا شك أن الذين يطالعون التاريخ الإسلامي بحياد و واقعية ليعترفون بأن المسلمين طبقوه تطبيقا عمليا بصفة دائمة، فقد رفع الدعوى سيدنا علي – رضي الله عنه- في عهد خلافته ضد يهودي في محكمة القاضي شريح، و قدم كشهود ابنه العظيم الحسن و عبده قنبر، فرد شهادتهما؛ لأنه لا تقبل شهادة الولد في صالح الوالد، و لا شهادة العبد في صالح سيده، و

---

[1] - راجع: صحيح البخاري ٦ / ٥٥٥، و مصنف عبد الرزاق ٧ / ٣٨٤، رقم الأثر ١٣٥٦٥، بيروت، المكتب الإسلامي، ط: ٢، ١٤٠٣هـ.

بالتالي حكم لليهودي على أمير المؤمنين، و لكن الله تعالى هيأ أسباب الظفر من الهزيمة الظاهرة، و ذلك أن اليهودي كان مخطئا، فاعترف بخطئه متأثرا بعدل المسلمين، و سعد باعتناق الإسلام. فعن الشعبي قال: "ضاع درع لعلي يوم الجمل، فأصابها رجل فباعها، فعرفت عند رجل من اليهود فخاصمه إلى شريح، فشهد لعلي الحسن ومولاه قنبر، فقال شريح لعلي: زدني شاهدا مكان الحسن، فقال: أترد شهادة الحسن؟قال: لا، ولكني حفظت عنك أنه لا تجوز شهادة الولد لوالده".. ([1]).

لم تقتصر طبيعة الحكام و الولاة المسلمين هذه على الخلافة الراشدة فحسب؛ بل حافظوا على مثلهم الرفيعة بهذا الشأن حتى في عهد انحطاطهم، و نال بغيته من مجلس عدلهم كل طالب للإنصاف، و قد ضرب الحكام المسلمون و المغول أمثلة رائعة للعدل و الإنصاف النزيه في الهند نفسها. و يعني عدم الاعتراف بها إغماض العينين عن ضوء الشمس، و ما هي إلا منحة من منح الأسوة الحسنة و الخلق العظيم أكرم بها البشرية عن طريق رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم -.

حق الاحتراف و اتخاذ المهنة:

إن الفكرة التي كانت تسود في بعض المناطق قبل الإسلام، هي: أن بعض المهن مخصوصة ببعض الناس، و بخاصة كانت الواجبات محددة في الهند للفئات و الطبقات الجنسية المختلفة، و كان عليها القيام بالأعمال و المهام الموكولة إليها. و لكن رسول الإسلام – صلى الله عليه و سلم – لم يحدد شيئا من ذلك، بل فتح مصادر كسب المعيشة لكل شخص، فله الحرية إما أن يختار التجارة، و إما أن يختار تقلد الوظيفة، و إما أن يختار الصناعة، فليس أحد يجبر على أن يختار مهنة خاصة، و لا يحظر اتخاذ

[1] - راجع: المتقي الهندي، كنز العمال رقم ١٧٧٩٠.

مهنة على أحد، و لا يقام عائق بين الانتقال من مهنة إلى أخرى، غير أنه يلزم توفر الأهلية و الكفاءة في شخص يريد اتخاذ معيشة يتصل بها نفع العامة و ضررهم، حتى لا يقعوا في الضرر بسببه، فقد قال – صلى الله عليه و سلم -: لا يباح لشخص لا يعرف فن العلاج أن يقوم بمزاولته، و إن لحق بعلاجه ضرر فهو ضامن، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: " من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن ". ([1]). و لكن هذا الحظر لا يعتمد على اللون و العرق و الطبقة و الأسرة و القبيلة و العشيرة و المنطقة؛ بل تم التفريق بين الإباحة و عدمها على أساس الأهلية و الكفاءة، و من البين أن العقل و المصلحة العامة يقتضيان جعل الكفاءة مقياسا.

حق الملكية و التصرف:

حق الملك من الحقوق التي اعتبرت حقوقا إنسانية رئيسية، و قد منح النبي – صلى الله عليه و سلم – هذا الحق كل إنسان بطريقة متساوية، فلكل أحد حق التملك و التصرف في ملكه، و صيانة ممتلكاته. و لما قدم النبي – صلى الله عليه و سلم – المدينة، كان بناء المسجد قضية هامة في ذلك الوقت، و بركت ناقة النبي – صلى الله عليه و سلم – بإذن غيبي في موضع كأن الله تعالى حدده لبناء مسجد نبيه – صلى الله عليه و سلم -، و كانت هذه الأرض ليتيمين سهل و سهيل، و لما رغب النبي – صلى الله عليه و سلم – في شرائها و تقديم ثمنها، التمسا منه – صلى الله عليه و سلم – أن يقبلها هدية، و لكن النبي – صلى الله عليه و سلم – رفض ذلك، و أدى ثمنها. ([2]).

و هذه القصة إن دلت على شيء فإنما يدل على أن يبذل الجهد

---

[1] - أخرجه النسائي رقم ٤٨٣٠، و هو حديث حسن، و قد تقدم تخريجه.

[2] - أخرجه البخاري رقم ٣٩٠٦، وراجع: أحمد بن على المقريزى (ت: ٨٤٥ هـ)، إمتاع الأسماع ١ / ١٤٨، ط: ١، بيروت، العلمية، ١٩٩٩/١٤٢٠ م، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسى.

بأقصى ما يمكن لإيصال النفع إلى اليتامى، و الاجتناب من استغلالهم، كما تشير إلى احترام الحقوق الملكية للملاك، و الحصول على أرض بطريقة مشروعة، مهما كانت غاية الحصول عليها هامة رفيعة حسنة نظيفة؛ لأن التصرف في أملاك الآخرين لو كان مباحا لهدف بدون إذن المالك و بطريقة مشروعة، لكان ذلك الهدف هو بناء المسجد، بل لكان أرفع هدف يباح له التصرف غير المشروع، و لكنه – صلى الله عليه و سلم – قضى على هذه الفكرة بتاتا. و من هنا اتفق فقهاء الإسلام على أنه يكره الصلاة في الأرض المغصوبة، و يأثم المصلي فيها. ([1]).

و قامت وقعة حنين بعد فتح مكة، و رغب النبي – صلى الله عليه و سلم – بهذه المناسبة إلى صفوان بن أمية في أن يعطيه – صلى الله عليه و سلم – بعض الأسلحة عارية، و كانت طبيعة العرب فيها بداوة بحيث لا تذهب المرارة في اللهجة و الأسلوب حتى في أدق وقت و أحرج لحظة، فقال صفوان: لعلك تريد غصبها ؟و مع أن مكة كلها كانت خاضعة له – صلى الله عليه و سلم -، و لم يكن من الجور أن يأخذ الأسلحة بالإكراه لتجريد الأعداء عن السلاح و نزعها منهم، و لكن مع ذلك أجاب – صلى الله عليه و سلم – برفق و لطف، و قال: إنها عارية مردودة، فعن صفوان بن أمية - رضي الله عنه -: " أَنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- اسْتَعَارَ مِنه أدراعا يومَ حُنين، فقال: أَغَصْب يا محمد؟قال: بل عَارِيَّة مضمونة ". ([2]). و جلى النبي – صلى الله عليه و سلم – بذلك أهمية و حرمة أملاك الأقلية غير المسلمة المنهزمة المستسلمة المغلوبة.

و بالإضافة إلى ذلك، فقد جعلت الشريعة سرقة مال أحد بدون

---

[1] - راجع: ابن نجيم، البحر الرائق ١ / ٢٨٣، بيروت، دار المعرفة، و مرعي الحنبلي(ت: ١٠٣٣ه) ، دليل الطالب لنيل المطالب ١ / ٣٠، ط: ١، الرياض، دار طيبة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

[2] - أخرجه أبوداود رقم ٣٥٦٢، و النسائي في الكبرى رقم ٥٧٧٩، و الحاكم في المستدرك رقم ٢٣٠٠، و أحمد رقم ١٥٣٠٢، و هو حديث صحيح.

التفريق بين مسلم و غير مسلم من أشد الكبائر، و حدد القرآن الكريم بنفسه عقوبته في صورة قطع اليد، حيث قال تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). [٥ / المائدة: ٣٨]. ثم أعار – صلى الله عليه و سلم – الحفاظ على المال و العقار أهمية، و جعله حقا بحيث جعل المضحي بنفسه للدفاع عن ممتلكاته شهيدا، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: قال: سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: " مَنْ قُتِلَ دُونَ ماله فهو شهيد ". ([١]).

عصارة تعاليم محمد – صلى الله عليه و سلم -:

لقد استمعتم إلى جوانب مختلفة من السيرة النبوية الزكية – على صاحبها ألف ألف صلاة و تسليم – في الأيام الخمسة هذه، و تم فيها تقديم تعاليم النبي – صلى الله عليه و سلم – و رسالته أكثر من تقديم أحواله – صلى الله عليه و سلم -. و لو سأل سائل: ما عصارة جميع تعاليم النبي – صلى الله عليه و سلم – و جهوده الدعوية و التبليغية طول حياته ؟فلعل أصرح جواب لهذا السؤال ما بينه – صلى الله عليه و سلم – في خطبة، حيث قال: " إن إلهكم واحد، و كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ ". أي: إله جميع الإنسان واحد، و كلهم من أولاد آدم – عليه السلام -. فخلاصة تعاليمه – صلى الله عليه و سلم – هو توحيد الله تعالى، و الوحدة الإنسانية، و هما مرتبطان فيما بينهما، فالقوم الذي لا يؤمن بتوحيد الله تعالى، و يتخذ بعض الناس وسائط بين الله تعالى و الإنسان، لا يمكن منهم أن يعتقدوا بفكرة الوحدة الإنسانية و المساواة البشرية.

فإن هذا التوحيد و الوحدة الإنسانية يرسخان فكرة شرف الإنسان و مجدهم و كرامتهم في القلوب و الأذهان. فالعقيدة التي توصل الإنسان إلى حد

[١] - أخرجه البخاري رقم ٢٤٨٠، و مسلم رقم ١٤١، و النسائي رقم ٤٠٨٧، و أبوداود رقم ٤٧٧١، و الترمذي رقم ١٤١٩، و أحمد رقم ٦٥٢٢.

أن يخضعوا و يطأطئوا رؤوسهم للأشجار و الجبال و الأنهار و الترع و الجداول، و الشمس و القمر و الكواكب الأخرى، حتى للأحجار التي تطأها الأقدام، و الحيوانات التي لا عقل لها، و الحشرات و الدود، فهي توصل الإنسان في الحقيقة إلى أذل و أحقر و أحط درجة في الكون، فالرجاء منها أنها تحلي الإنسانية بالعز و التكريم و المجد رجاء خائب. فيحدث بدون شك الفوارق الطبقية و التفاوت و عدم المساواة الاجتماعية حيث لا توجد فكرة الوحدة الإنسانية. و لكن مما يؤسف له أن المسلمين الذين بعثوا كسفراء للرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم –، و هداة للبشرية المتعطشة في العالم كله، تركوا بذل الجهود لإيصال هذه الرسالة إلى البشرية جمعاء، و إنهم واقعون في الغفلة عن هذا الواجب الديني منذ قرون. و نتج عن ذلك أنهم وصموا بالمتطرفين و الأصوليين و الإرهابيين بدلا من أن يعتبروا منقذين للإنسانية. فالحاجة ماسة إلى أن يقوم المسلمون، و يوصلوا هذه الرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم - التي هي رسالة أمن و سلام، و راحة و ارتياح، و سلامة و وقاية، و حماية و صيانة، و التي هي علاج للمفاسد الاجتماعية كلها، إلى كل بيت.

شخصية انقلابية:

إن النبي الكريم – صلى الله عليه و سلم – كما هو رسول الإنسانية، فكذلك هو رسول الانقلاب، فقد قدم فكرة، و أيدها بعلم و قواها بحجة، و جعلها سائغة و مقبولة للبشرية، غيّر مجرى التفكير و التخيل، و أحدثت تغييرا في الأفكار، حتى غلب بصورة دائمة الفكر الذي بشر به ودعا إليه – صلى الله عليه و سلم -.

و خذ على سبيل المثال: عقيدة التوحيد هذه، فكم من نبي من آدم إلى المسيح – عليهما السلام - بعث لجلب البشرية إليها، و القضاء على الشرك، و لكنه كان هو الغالب في الدنيا دوما، حتى تصافحت الأمم التي كانت تعتبر

حملة لواء عقيدة التوحيد مع الأفكار و التصورات الشركية تدريجيا، و اصطبغت بصبغتها. فمن لا يعرف أن البوذية و الجينية في الهند، و المسيحية من بين الديانات الإسرائيلية كانت داعية في الحقيقة إلى التوحيد، بل برزت في مجال العمل لاستئصال شأفة الشرك، بل توجد عبارات في "كتب الويد " و " غيتا "، تقدم تصورا واضحا عن التوحيد، و لكن حرم حملة هذه الديانات بالتدريج من عقيدة التوحيد متأثرين بالأمم المشركة، فكأن الأفكار و التصورات الشركية دمجتهم في نفسها.

و لكن لما غلب التوحيد على الشرك بعد بعثته – صلى الله عليه و سلم -، قواه – صلى الله عليه و سلم – بقوة العلم و الاستدلال تقوية، تحول إلى فكرة غالبة للدوام، حتى بدأت تبحث الديانات القائمة على أساس الشرك، أو المصطبغة بصبغته بطريقة تامة عن عناصر التوحيد في الآلهة و الإلاهات عقدتها الديانة الهندوسية، و لكن بتأثير الإسلام نهضت جماعات في القوم الهندوسي كذلك خالفت عبادة الأوثان. و قد وصلت المسيحية إلى البلاط الملكي في اليونان سريعا بعد المسيح – عليه السلام -، و بما أن اليونانيين كانوا يعتقدون ثلاثة آلهة من قبل، و لذا تخلت المسيحية من عقيدة التوحيد النقية، و لبست لباسا جديدا من التثليث، تجلى فيه على العرش الإلهي مع الله تعالى المسيح و روح القدس، و لم تزل تصر بعد الانحراف عن عقيدة التوحيد على هذه العقيدة المخترعة، و تتمسك بها، و لعل بفضل النبوة المحمدية – على صاحبها أفضل صلاة و تسليم – قامت حركات في دنيا المسيحية بعد إشراق شمس الإسلام أدت إلى نشوء فرقة " البروتستانت " التي ثارت على التصور التقليدي بشأن المسيح – عليه و على نبينا السلام -.

و أضرب الجمهورية كذلك مثلا؛ لأن النظام الملكي للحكم كان نظاما سائغا مقبولا للحكم في العالم كله، حين أشرقت شمس الإسلام، و كانت الروم و الفارس دولتين ملكيتين كبيرتين متجاورتين للعرب، و حاملتين عظمة

و فخامة للغاية. و هذا النظام كان سائدا قبل الإسلام كذلك حسب التاريخ المعلوم للدنيا، و نشأت أفكار غريبة بشأن الملوك في الرعايا كذلك بسبب بقائهم تحت تأثيرهم باستمرار، فكان الفرس يعتبرون عائلة الملك عائلة إلهية، و كان الشعب في الهند في بعض المواضع إذا لم يتشرفوا بزيارة الملك في الصباح، يعتبرون بدء العمل مشؤوما. فقضى الإسلام على هذه الفكرة للملوكية الأسرية، و قدم بدلا منها فكرة الخلافة. و الخلافة تعني أنه ليس شخص حاكما وراثيا، بل يكون الخليفة الذي ينتخبه أرباب الحل و العقد من عامة الناس على أساس الأهلية و الكفاءة. و نشأ من تصور الخلافة تصور الجمهورية، و مع أن جمهورية اليوم لا تخلو من المفاسد الكثيرة، و أكبر مفسدة فيها أنها فضلت الكمية على الكيفية، و العدد على الكفاءة، و مع ذلك فإن محاسنها ليست إلا ثمرة من ثمار الخلافة التي قدمها – صلى الله عليه و سلم – من حرية الفكر و الرأي، و حق النقد و المحاسبة، و مسؤولية الحكومة أمام الشعب، و الحكومة الشعبية بدلا من الحكومة الشخصية. و إن عرفت الدنيا الجمهورية الخيالية بين آونة و أخرى قبل الإسلام كذلك، و كتب بعض حكماء اليونان مصنفات حولها، و لكنها كانت حلما مجردا، و مسطورة في صفحات الكتاب كنظرية بحتة، و لكنها تحولت من فكرة و نظرية إلى تطبيق و تجسيد، و صيغت في قالب العمل و الممارسة بفيض من نبوته – صلى الله عليه و سلم -، و أصبحت فكرة غالبة في العالم. فكيف أصبحت الملوكية الشخصية مسبة سياسية، بعد ما كانت نظام الحكم المثالي للإنسان ؟فليس اليوم عيب أكبر من أن يجعل حاكم ملكا و دكتاتورا.

و ذكرت أمرين على سبيل المثال و النموذج المجرد، و إلا فحياته – صلى الله عليه و سلم – الطاهرة النقية و تعاليمه – صلى الله عليه و سلم – الغالية مليئة بالأمثلة.

و لنتدبر في كم مدة قليلة حدث انقلاب اعتقادي و اجتماعي و حضاري و علمي و خلقي و سياسي شامل، بيد النبي – صلى الله عليه و

سلم؟و في كم مدة يسيرة انتشرت الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب كلها، بحيث لم يبق بيت مدر و حجر محروما من هذا الضوء، و تعطرت جزيرة العرب كلها بطيب أنوار الإسلام في حياته – صلى الله عليه و سلم - النزيهة، فالمنطقة التي كانت أشقى المناطق في العالم، أصبحت يغبط عليها. و أيام دعوته – صلى الله عليه و سلم – على الأكثر ٨١٥٦ يوما، و تشرفت في كل يوم ٢٧٤ ميل مربع باستجابة دعوته – صلى الله عليه و سلم -، ثم أثرت هذه الدعوة الحقة في الناس تأثيرا، و تغير بها القلب و الذهن تغيرا، و أحدث حب الدين النبوي –على صاحبه أفضل صلاة و تسليم – حماسة و سموا في الهمم، أن وصل الإسلام بعد وفاته – صلى الله عليه و سلم – في مدة وجيزة مشتملة على مجرد خمس عشرة سنة إلى ثلاث قارات معلومة: آسيا و أفريقيا و أوروبا. و لم تصر هذه المناطق مفتوحة للإسلام فحسب، بل فتح المسلمون أينما حلوا دنيا القلوب كذلك، و أوقدوا مجامر الإيمان في المناطق الباردة من الكفر، و نصبوا ألوية الرسالة المحمدية و الأخوة الإنسانية.

و لكن الذي يدعو إلى التفكير، هو أين ذهب تلك القوة الانقلابية ؟و لماذا تخلت النصرة الإلهية عنا ؟و لماذا ابتعد عنا الانتصار و الظفر ؟

كلمة الشكر:

أشكر الإخوة المؤاسين من أهالي " بنجلور " شكرا جزيلا على أنهم وفروا لي فرصة التعبير و إلقاء الكلمات حول موضوع " السيرة النبوية " الذي يعتبر موضوعا هاما، مع أنني قصير العلم و العمل، في المدينة التي تعرف بحدائقها و بساتينها و رياضها و منتزهاتها، و التي يشعر فيها مؤمن بطيب دماء المجاهدين و الشهداء، فيراها مطيبة و معطرة بها، و التي كانت ملجأ للإسلام حتى النهاية في شبه القارة الهندية، و التي سطرت تاريخ الوفاء بالعهد و الثبات و الصمود و المثابرة إلى أنفاسها الأخيرة، و التي ضحت بأفلاذ كبدها على حرمة

و كرامة محمد العربي – صلى الله عليه و سلم -، فنالت نعمة الفخر و السرور بالموت في سبيل الحب، فبارك الله تعالى في هذه الأرض، و في أسلافها و أبنائها و بناتها و أصدقائها و إخوتها و أخواتها.

و الخطب التي قدمت إليكم أنها تغذي الدماغ أكثر من القلب، و العقل أكثر من العاطفة. و لعلكم شعرتم بأن هذه الخطب تخلو من نبرات الصوت، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين، وتعاقب ضروب التعبير، التي تثير العزائم وتستنهض الهمم، فتصل إلى قرارة النفوسِ، و التي تدفع السامعين إلى الشعور بنوعٍ من اللذة و الهناءة و المتعة و الحلاوة، و مع ذلك فقد استمع إليها شيوخ و شباب و صغار و كبار و أمهات و أخوات بصبر و هدوء و انتباه تام، و تجشموا المشاق للحضور في عدد كبير، و برهنوا على استماعهم إليها و اهتمامهم بها عن طريق أسئلتهم المعقولة السديدة و المثيرة للتفكير. و كل هذا يدفعني إلى أن أكون مدينا و شاكرا لكم للغاية، كما أتوجه بكلمات الشكر إلى العلماء العظام و المفكرين و المفكرات الذين حضروا لاستماع هذه الخطب في عدد كبير، و قدروني أحسن تقدير، و أشكر كذلك الجرائد و المجلات الصادرة عن " بنجلور " التي نشرت فيها عصارة هذه الخطب بأهمية بالغة، و كانت وسيلة لإيصال الرسالة إلى الداني و القاصي، و بخاصة أتقدم بكلمات الشكر و التقدير من أعماق القلب إلى المسؤولين و العاملين الشبان النشيطين في " مركز الدراسات الهادفة "، و أدعو لهم كذلك؛ لأنهم استمروا في هذه السلسلة الميمونة الهامة، فأتمنى على الله تعالى أن يديمها و يجعلها نافعة، و جعلنا و إياكم من حملة الأسوة المحمدية – على صاحبها ألف الف صلاة و تسليم -.

و صلى الله تعالى على خير خلقه محمد و على آله و أصحابه أجمعين.

▼ ▼ ▼

فهرس المحتويات